صندوق الأغاني

حكايات من الغِناء والمغنين

عبد الجبار العتابي

الكتاب: صندوق الأغاني
حكايات عن الغِناء والمغنيين

المؤلف: عبد الجبار العتابي

رقم الإيداع: ١١٦٠٨ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: 978-977-493-790-3
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٤

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

صندوق الأغاني

حكايات عن الغِناء والمغنين

الجزء الأول

عبد الجبار العتابي

إهـداء

إلى تلك التي منحتني لُغة الحُب وجعلتني أتعرف على الإحساس به لأول مرة.

إليها... وقد غنيتُ لها هازئًا بالفيافي التي أركض فيها، وبالشوارع التي أمتطي ظهورها كل ليلة وفي فمي أغنية لها.

إليها... وهي التي جعلتني أكتب إليها أغنيات لم تُغنّ سوى على الورق وبحنجرتي لي وحدي.

إليها... أهدي هذا الكتاب، لأستعيد تلك الذكريات وأعتزّ بها... دائمًا.

المؤلف

محتوى الكتاب

• استهلال ١٣

١- يا موطني... أحمد الخليل ١٥

٢- حمودي الحارثي... وراء شهرة فاضل وفؤاد وياس ١٩

٣- يا نجوى ٢٢

٤- سرُّ اعتزال «فاروق هلال» ٢٤

٥- حبيب الدوركي... أصيب بالشلل ٢٨

٦- عادل الهاشمي... يهاجم طالب القره غولي ٣١

٧- أحلام وهبي... خمس سنوات من التألق في مصر ٣٤

٨- أم كلثوم... تتمنى الغناء في بغداد ٣٦

٩- الموسيقار جميل جرجيس... حينما زعل ولزم بيته ٣٨

١٠- حسين أمين وذكرى مع ناظم الغزالي ٤٠

١١- شذى حسون... حين غنت لأول مرة في بغداد ٤٢

١٢- سهى عبد الأمير... آه من الزمن ٤٤

١٣- ذياب خليل... حين شاكسته ٤٧

١٤- سعدي... في أيامه الأخيرة ٤٩
١٥- فيروز... وزيارة إلى بيتها لم تكتمل ٥١
١٦- جبار عكار... وآهات الربابة ٥٣
١٧- مجيد العلي... والسؤال الصعب ٥٤
١٨- حافظ القباني... الإذاعي الذي غنى (هله يا أم عبد) ٥٦
١٩- حكاية أغنية (مجرد كلام) من شاعرها طاهر سلمان ٥٨
٢٠- حضيري أبو عزيز... أول سفير للأغنية العراقية ٦٢
٢١- رياض أحمد... هل تنبأ بموته؟! ٦٧
٢٢- سالم حسين... حب لاهب مع المطربة راوية ٧٠
٢٣- عبد الحليم حافظ... و(واقعة الفندق) في دمشق ٧٢
٢٤- عبد الحليم حافظ يتحدى احتكار عبد الوهاب ٧٤
٢٥- عفيفة إسكندر: فلسفة غريبة عن التمثيل ٧٨
٢٦- فؤاد سالم: كيف التقى ابنته نغم بعد فراق ٢٤ عامًا ٨٠
٢٧- لماذا لم تُغنِّ فيروز ألحان السنباطي؟ ٨٣
٢٨- محمد القبانجي... يغني لرئيس عصابة ٨٦
٢٩- محمد نوشي... ملحن أول أغنية ريفية ٨٩
٣٠- لماذا منع (عُدي) المطربين الكبار من الغناء؟ ٩١
٣١- يا جلمة أنت... الأغنية التي رفضها سعدون جابر ٩٥

٣٢- نجاة الصغيرة... والخوف من الوسواس ٩٩
٣٣- الناصرية... أغنية الموسم في مصر ١٠١
٣٤- أشهر مطرب ريفي عراقي يعلن اعتزاله ١٠٤
٣٥- بليغ حمدي... ملحن لا ينام ١٠٧
٣٦- الساهر يرفض أغنيات الهلالي، بسبب النشر ١٠٩
٣٧- ع اليادي اليادي ١١٢
٣٨- هلا بيك هلا ١١٥
٣٩- السنين ياما ذوبت من عمرنا كثير السنين ١١٩
٤٠- إبراهيم العبد الله... وليلة لا تنسى. ١٢٢
٤١- أحمد المظفر... مطربًا ١٢٦
٤٢- المحبة... چلبية ١٢٧
٤٣- رابح درياسة وسلوى الجزائرية ١٣٠
٤٤- عليا... وعاللي جرى من مراسيلك ١٣٥
٤٥- عادل الهاشمي، وكأنه لم يرحل ١٣٨
٤٦- مني... مني، يبويه... موكلها مني ١٤١
٤٧- الريل وحمد... قصيدة على لسان امرأة ١٤٤
٤٨- نهاوند التي تبغددت، وظلت أغنياتها خالدة ١٤٩
٤٩- صباح الخير يا لولة ١٥٨

٥٠- مطربات العراق ومطربوه: شهادة للشاعر صالح جودت ١٦٣
٥١- برنامج (ساعة وغنية)... أيام الحرب اللبنانية ١٦٧
٥٢- سعدي الحلي... صار النصر محبوبنا ١٦٩
٥٣- دلال شمالي ١٧٢
٥٤- أغنية مُحيرة ١٧٥
٥٥- الموسيقار منير بشير... هناك من لا يحبون عزفه ١٧٥
٥٦- أغنية (يا الماشية بليل لهلج) ١٧٨
٥٧- فريد الأطرش... صورة في الذاكرة ١٨١
٥٨- أغنية في سكون الليل، بين كنعان وصفي وعبد الحليم. ١٨٣
٥٩- دمعة أبي ١٨٨
٦٠- شوارب الملحن ١٩١
٦١- فكروني ١٩٣
٦٢- حكايتي مع عبد الحليم حافظ ١٩٧
٦٣- سعدون جابر (يلحن) لمحسن فرحان ٢٠٠
٦٤- المغنون أولاد سالم ٢٠٢
٦٥- حسين قدوري... يتحسر لضياع أغنية الطفل ٢٠٤
٦٦- يا ليل يا عين... ما معناها ولماذا يرددها المغنون ٢٠٧
٦٧- المغني الذي أطاحت به أغنية ٢١٢

٦٨- عدنان الشيخلي... يحفر الذاكرة بالأغنيات التراثية ... ٢١٤
٦٩- المطربة نادرة... في بغداد والبصرة ٢١٨
٧٠- فرقد ملكو تكشف أسرار علاقتها مع كاظم الساهر ٢٢٤
٧١- عبد الرزاق العزاوي: نحن بحاجة إلى نوع آخر من الغناء. ٢٢٧
٧٢- حسين الأعظمي: بيئة الأعظمية هي السبب ٢٣٠
٧٣- شعوبي إبراهيم... رحل والجوزة في أحضانه ٢٣٢
٧٤- ذياب مشهور... المشهور عراقيًا ٢٣٤
٧٥- مقطع من أغنية (موعود) ٢٣٦
٧٦- ريحة الورد ولون العنبر ٢٤٠
٧٧- المغنية Mary McBride تحيي حفلًا في بغداد ٢٤٢
٧٨- وائل جسار... في سيارة أجرة في بغداد ٢٤٧
٧٩- سامي عبد الأحد... ملك الطبلة في العالم ٢٥٠
٨٠- تصبح على خير... ناظم الغزالي ٢٥٥
٨١- فيروز... لمن تستمع في صباحاتها؟ ٢٥٩
٨٢- قحطان العطار: ظاهرة غنائيَّة وإنسانيَّة محيِّرة ٢٦٥

• المؤلف في سطور ٢٧٤

استهلال

يزخر عالم الأغنية بالكثير من الأسرار والطرائف والحكايات التي تتمخَّض عنها كلمات الأغنيات أو ألحانها، حالات إنسانية تنبع من الواقع المعاش أو الروح أو القلب، حيث تنسج العواطف كل ذلك ليكون نسيجًا خلاقًا يعجب السامع ويطربه، أو يثير في نفسه ما يثير من لواعج، مثلما أن للكلمات والألحان انثيالات تؤكد الحضور الإنساني في أرجاء الحياة عبر التعابير التي تطلقها المشاعر، وهي تنوء بأعباء الحياة، أو تتناغم مع طلاوتها وحلاوتها وسرورها.

هنا، لا أتحدث عن الأغنية بتعريفها الكلاسيكي، وهي أنها (التأليف الموسيقي الذي يحتوي على لحن وإيقاع وكلمات، بالإضافة إلى الآلات الموسيقية المصاحبة، بحيث يمكن أن يؤديها مطرب واحد أو أكثر)، بل إنني أتعامل معها كما قال فريد الأطرش في أغنيته (زمان يا حب): (صوتك وشوشة عصافير... عصافير)، حيث هي الجمال عبر الصوت والأداء الذي يبهر السامع، بل أنا أقرأ ما بعد ذلك، حيث القصص التي أنشئت منها كلمات الأغنية والمشاعر والعناءات والجهود والرسائل الإنسانية، فضلًا عن حكايات أصحابها الذين تولوا حمْل مسؤوليتها...

في هذا الكتاب... أفتح صندوق الأغاني، كل المتعلقات التي فيها، هناك أسرار لا يعرفها الناس عن المُغنيين والأغاني مصحوبة بالظرائف والطرائف، أمتدح وأنتقد وأغني، والهدف هو توثيق ما عشته، وما حصلت عليه، وما سمعته، وما غفل عنه الكثيرون، فأتيت به ليكون مميزًا يخضع للتعبير عن أشياء كثيرة، توثيق لأغنيات التصقت بالقلب والذاكرة والناس، قبل أن يداهمها النسيان والاندثار، وشرح تأثيراتها وقصصها وناسها، مسجلًا جماليات ومتعة للقراءة، مثلما هي تذكير بالمُغنيين وما أنتجوه وما عانوه؛ لكي تظل الأغنية شاهدة على أحداث كثيرة ومعاناة وفرح، وأشياء أخرى.

الكتاب... نزهة في بستان الأغاني الجميل، وهو توثيق جمالي، لا بد منه.

يا موطني... أحمد الخليل

بالمصادفة... وجدتني أستمع إلى نشيد (يا موطني) للمطرب العراقي أحمد الخليل (١٩٢٢- ١٩٩٨)، وهو ليس نشيد موطني الذي اُعتمد نشيدًا وطنيًا للعراق بعد العام ٢٠٠٣، حيث يقول مطلعه:

(يا موطني يا موطني، أحمي حِماك بالدمِ
وأفتديكَ بالعزيز..... دُمْ عزيزًا واسْلَم
يا موطني... يا موطني)

استمعت أكثر من مرة، بتأمل وإصغاء، كان اللحن والصوت يأخذاني أبعد من تأثير الكلمات، فيهما رومانسية تنثر ماء الورد على وجوه العاشقين، لتتفتح ابتسامات عذبة.

(ونشيد يا موطني للشاعر ناظم توفيق الحلي، وغناء وألحان أحمد الخليل نفسه).

غناه في زمن ثورة الرابع عشر من تموز (١٩٥٨- ١٩٦٣) ليرسم فيه عبر الكلمات المعبرة مشاعره على النغمات التي أطلقها في اللحن، عززها بصوته الرخيم، وامتداداته، ليجيء النشيد كتلة من مشاعر تهز الوجدان اعتزازًا بالوطن العراقي الذي ينتمي إليه.

(كان تلاميذ المدارس يترنمون به في بدء يومهم الدراسي، صباح كل يوم في الاصطفاف اليومي ليحفظونه، من أجل

شد ارتباطهم بالوطن الذي كان قد بدأ عهدًا جديدًا).

أحمد الخليل... كان يوصف بأنه (مطرب وملحن ثورة ١٤ تموز)، ويعتبره الكثيرون (الابن الشرعي) لها، وقد (تبناها من أول يوم انبثاقها)، وكانت له عدة أغنيات فيها، ولا يمكن التغافل عن الأغنية الشهيرة لها التي صارت مثلًا شعبيًا يضربه العراقيون للتآخي بين العرب والأكراد، وهي أغنية (هربجي كُرد وعرب رمز النضال) التي غناها عام ١٩٥٩.

في النشيد كان الخليل يشد نفسه كرايةٍ تخفق في سماء الوطن، يصدح للجمال الذي تشرق صباحاته من ثنايا اللحن والصوت، فتشعره يذوب، وهو ينشده أو يغنيه بكل ما امتلك من خبرة موسيقية، وصوت جبلي، تمر عليه النسمات، ويلامس الغيوم التي تنزل المطر؛ ليبلل الأفئدة التي تشم عطر الوطن.

كلمات ولا أروع، ولحن ولا أجمل، وأداء ولا أرقَّ وأشجى، تكامل في كل شيء، فظهرت الأغنية مفعمة بالعاطفة الجياشة التي تحتضن كل خلايا الإحساس بالحب والشعور بقيمة الوطن.

أحمد الخليل... أراده نشيدًا عراقيًا خالصًا خالدًا، يبقى على مر الأزمنة، لتتغنى به الأجيال، لأنه يحاكي الوطن الحبيب بكل ما صار عليه من جمال وحرية وإباء، مع استحقاق الفداء، لا سيما أن الشاعر (الحلي) ومعه (الخليل) يعرفان حجم التحديات التي تواجه الوطن، والتي لا بد من التصدي لها بكثير من الفداء والوفاء.

نشيد (يا موطني) منحه أحمد الخليل كل ما في روحه من رومانسية وشجن وقوة تأثير في الناس، فظل خالدًا لن يعكر صفوه وروعته تغافل الإذاعات والقنوات الفضائية عنه، لينال من التهميش ونكران الجميل مثلما نال صاحبه.

كلمات النشيد:

(يا موطني أحمي حماك بدمي
وأفتديك بالعزيز... دمْ عزيزًا واسْلَمِ
يا موطني
يا موطني يا نجمة بيضاء في صدر الزمان
يا قبلة لكل حر ثائر يأبى الهوان
دمْ قويًا موطني... دمْ بهيًا موطني
دمْ أبيًّا موطني... يا موطني
لترتفع يا موطني أعلامك البيضاء
لتزدهر يا موطني حقولك الخضراء
دمْ قويًا موطني... دمْ بهيًّا موطني
دمْ أبيًّا موطني... يا موطني
ولَّى الظلام والظلوم وانقضى عهد الشقاء
قل تواريْ يا قلوب... قل سلامًا يا ضياء
دمْ قويًا موطني... دمْ بهيًّا موطني
دمْ أبيًّا موطني... يا موطني).

أحمد الخليل... موسيقار عراقي من مواليد سنة ١٩٢٢ بمنطقة (باديناں) قرب إبراهيم الخليل (المنطقة الحدودية مع تركيا)، ضمن محافظة دهوك.

هو ملحن قبل أن يكون مطربًا، لكنه غنى الكثير من الأغاني مثلما غنى ألحانه الكثير من المطربين، فظلت خالدة، ما زالت في قائمة السماع الأولى عند عشاق الأغنية البغدادية.

أحمد الخليل رحل عن الدنيا يوم ٣١/ ١٠ / ١٩٩٨.

حمودي الحارثي... وراء شهرة فاضل وفؤاد وياس

بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، أصبح نزار الطبقجلي مديرًا عامًا للإذاعة والتليفزيون، فيما كان الملحن علاء كامل (١٩٢٢- ١٩٧٣) مديرًا لقسم الموسيقى، واسمه الحقيقي علي عبد الرزاق حسن، وهو شقيق الصحفي الرياضي ضياء حسن، وكان الفنان حمودي الحارثي مدير قسم المنوعات في التليفزيون، وفي أحد الأيام، جاء الشاعر والمصحح اللغوي آنذاك محمد هاشم إلى حمودي الحارثي مستغلًا أريحيته وعلاقته الطيبة بالجميع، وقدم له شريطًا، وطلب منه أن يسمع الأغاني التي فيه.

(وكان محمد هاشم صديقًا حميمًا لفؤاد سالم، وكانت أغاني الشريط خمس أغاني، هي: لا خبر لفاضل عواد، والهدل وأبو زركة لياس خضر، وفوق الشناشيل لحسين السعدي، وسوار الذهب وفوق النخل لفؤاد سالم).

واستمع الحارثي للأغاني هذه، ووجدها جميلة، لكن المشكلة أن هؤلاء المُغنيين غير مصنفين بعد كمطربين، ولا يحق لهم تسجيل أو تصوير الأغاني الانفرادية، وقد كانوا كلهم يعملون ضمن (الكورس)؛ لأن كل مغنٍّ آنذاك كان يمر بمرحلة امتحان، ومن ثم حين ينجح ينتقل إلى مرحلة أخرى، فتسجل وتصور له أغنياته، هنا قرر الحارثي أن يجتهد، ويصنفهم على مسؤوليته، فصوَّر لهم أغانيهم،

صورها على مسؤوليته أيضًا، وساعده فيها (علي الدبو) الذي كان مراقب استوديو، صورها بدون كورس، وبدون (بلاي باك)، ومن دون موسيقيين، فقط بحضور المُغنيين، وذهب حمودي الحارثي إلى المدير العام نزار الطبقجلي، وقال له: أنا سجلت هذه الأغاني، وهناك من يحارب هؤلاء الشباب الحلوين الناجحين، فسمع الطبقجلي الأغاني وأعجب بها، وقد كانت تربطه علاقة معرفة طيبة قبل هذا الوقت بحمودي الحارثي وإخوته، وقال: ذيعوا الأغاني على مسؤولية المدير العام، فذاع حمودي الحارثي الأغاني، فنجحت نجاحًا كبيرًا، فثارت ثائرة علاء كامل الذي أحال الحارثي إلى لجنة تحقيق بتهمة: كيف تسجل لهؤلاء هذه الأغاني، وتعرضها في التليفزيون؟ ووصل كتاب التحقيق إلى المدير العام الذي طلب الحارثي، وقال له: مزِّق أوراق التحقيق، فقال له حمودي: بل أنت مزِّقه يا أستاذ، وارمه على الأرض، وأنا أدوس عليه، لكن الطبقجلي قال لحمودي: مزِّقه أنت وأنا أدوس عليه، فمزقه حمودي، وداس عليه الطبقجلي!

ومن هنا، انطلقت شهرة هؤلاء المطربين بعد النجاح الكبير الذي حققته أغنياتهم.

لكن حمودي الحارثي أخبرني أن أحدًا من هؤلاء المطربين لم يذكر هذه الحادثة عبر كل السنوات الماضية، وهو ما دعاه إلى أن يسرني بها.

ولكن فاضل عواد، وربما قرأ الموضوع أعلاه الذي نشرته في جريدة الصباح، بتاريخ ٢٥/٠٢/٢٠١٩، فكتب مستذكرًا

موقف الحارثي ذاك، فقال عنه: (الأستاذ حمودي الحارثي هو أول مخرج جازف في إخراج أغنيتي الأولى (لا خبر)، رغم صدور أمر من مدير المؤسسة بمنعها آنذاك، وما إن ظهرت حتى تعجب من منعها من حب الجمهور لها، فهذا موقف شجاع وعظيم من أخي العزيز حمودي لا ينسى، وأشكره الشكر الجميل على ما قام به، ولا غرابة في ذلك من أستاذ كريم، وفنان نبيل أصيل طيب القلب.

يا نجـوى

استمعت لأغنية (نجوى) للمطرب سعدون جابر، كما لم أستمع لها من قبل، استوقفتني كلماتها التي تشبه الكلمات المتقاطعة في أغلبها... وربما كنا نستسيغها للحن الجميل، أو بسبب (هلج وين يا نجوى)، أو لإعجابنا العفوي بسعدون!

الأغنية كلمات الشاعر زهير الدجيلي (١٩٣٧ - ٣ مارس ٢٠١٦)، وألحان محسن فرحان (١٩٤٧ - ٢٠٢٢) (رحمهما الله)، وإنتاجها كان في مطلع السبعينيات (أعتقد ١٩٧٣)، وقد اشتهرت كثيرًا، ورددها العشاق والمعجبون، لكن الأغرب في الأغنية مقطعها الذي يقول فيه:

(حرامات العمر من ينكَضي بساع

يضيَّع الهوى وساعات الوداع...)!

هنا توقفت تمامًا، وأعدت سماع المقطع كلمة كلمة، بل ذهبت إلى البحث عن كلماتها في الإنترنت، فكانت الكلمة (ساعات الوداع) فعلًا...

لأول مرة أعرف أن الوداع يمثل حالة من الفرح أو السرور، أو ما شابه ذلك، ليقول الشاعر عنه: (حرامات أن تضيع ساعاته)، فيما الذي نعرفه أن الوداع هو لحظات قاسية، حيث الرحيل الأبدي أو الاضطراري، والتي فيها طالما

تنكسر القلوب، وتنسكب الدموع.

أعتقد... للضرورة غير المنطقية، مرَّ علينا هذا المقطع الذي أعتقد أن الشاعر أجبرته القافية على أن يدفع بكلمة الوداع بشكل عفوي ولهجة عامية واضحة (اللاوداع)، وإلا ما قيمة الوداع إن ضاع أو انعدم، وهو ما يعني أن اللقاء متواصل، وأن المحبة باقية.

سِـرُّ اعتزال «فاروق هلال»

حين فتحنا آذاننا على الغناء العراقي أو البغدادي، كان اسم فاروق هلال يتردد ونسمع أغنياته، ولكنه في غفلة من الزمن سكت، ومن ثم تحول إلى التلحين والإدارة، وذاب اسمه في الغيابات.

وكنت أتساءل عن السبب، وحاولت أكثر من مرة معه عبر وسائل الاتصال؛ لأنه كان يعيش في القاهرة، ولم تسمح لي الظروف بسبب حالته الصحية، ولكنه حين جاء إلى بغداد نهاية العام 2023 تحينت الفرصة للحديث معه، فكان مُرحبًا.

فقال: أولًا السبب الأول في اعتزالي الغناء هو العمر، فأنا عندي وجهة نظر بعد أن قمت بدوري التربوي في مجال الموسيقى والغناء، أن المطرب المتمكن الذي لديه تاريخ إذا تجاوز عمرًا محددًا معينًا، وتعبت أوتار حنجرته عليه أن يغادر؛ لأنني كنت أقود هذه الحالة، فكنت لا أقبل للمطربين الكبار أن يغنوا، وهم في أواخر إمكانياتهم، لذلك؛ غادرت الغناء؛ لأنه كان يهمني المجال التربوي وخلق جيل جديد يكونون هم البديل.

وتداخلت معه قائلًا: ولكن عبد الوهاب استمر في الغناء...

فقال: لالا... عبد الوهاب في السبعين توقف، وإذا كنت قد سمعت أغنية (من غير ليه) بصوته، فهي مسجلة في

العام ١٩٧٠ على العود، ولكن ذكاء المصريين أنهم أضافوا الموسيقى إليها.

ثم سألته: هل يشيخ صوت المطرب؟

فأجاب: المطرب إذا تجاوز المرحلة المحددة له، عليه أن لا يهدر من قيمته، والدليل على ذلك، خذ المطرب السوري الكبير صباح فخري، الذي ظهر في سنواته الأخيرة بمظهر مُسيء لتاريخه.

ولكي أستفيد من المقابلة، سألته عن آخر أغنياتك؟

فقال: كان ذلك في السبعينيات، وهي أغنية (تعاليلي) من ألحاني، ومن كلمات الشاعر كاظم عبد الجبار، وتقول كلماتها: (تعاليلي تعالي وكطري حنية، تعاليلي عذاب وحركة مابيه).

وسألته أيضًا: من قتل الأغنية البغدادية الأصيلة؟

فقال: أنا برأيي، ليس هناك قتل لمسار أغنية؛ لأن الأجيال تتغير، وتتغير مسارات تلحين الأغنية ومسارات أدائها، فالأغنية البغدادية أصبحت تراثًا، فما وضعه الراحل عباس جميل ورضا علي ومحمد عبد المحسن، وحتى ياس خضر، وغيره وغيره، الآن وثقت كتاريخ.

* هل هذا يعني أن النمو الطبيعي للأغنية أن تغيب الأغنية البغدادية؟

- لن تغيب، لا شيء يغيب، فعندما يكون هناك تراكم كيف ستغيب، خذ غناء المقام العراقي، ليس محببًا جدًا للجماهير، ولكنه تراث عظيم.

* ماذا تقول عن الأغنية السبعينية؟

– الأغنية السبعينية هي أنضج مرحلة غنائية في تاريخ العراق.

فاروق هلال من مواليد بغداد عام ١٩٣٥، مُغنٍّ وملحن، تخرج من معهد الفنون الجميلة ببغداد عام ١٩٥٧ من قسم الموسيقى. ودخل إلى الإذاعة والتليفزيون أوائل الستينات كمطرب وملحن، يمتاز بصوت هادئ وجميل، وأسلوب رشيق في الأداء، اشترك في الستينات في عدة أفلام سينمائية أبرزها: الفلم الغنائي الاستعراضي (درب الحب)، وقدم مجموعة جميلة من الأغاني، شاركته البطولة الفنانة القديرة مديحة وجدي. تفرغ للتلحين تمامًا في منتصف السبعينات تقريبًا، وقدم مجموعة من الأغاني الخالدة مثل: (سألت عنك) للفنانة الكبيرة مائدة نزهت، وأغنية: (علمني عليك) و(تعاليلي) للمطرب الكويتي عبد الله الرويشد، و(خطار أجانا العشق) للمطرب حسين نعمة، و(كالولي راح ومشه) للمطرب ياس خضر، والكثير والكثير من الأعمال الرائعة. وآخرها لحن قصيدة «النخلة»، وهي من كلمات الشاعر (عبد الرزاق عبد الواحد)، وأداء المطرب (جمعة العربي)، وأغنية «راح أموت وما أشوفك يا عراق»، من كلمات الشاعر فالح حسون الدراجي، وأداء الموسيقار فاروق هلال. لُقب بمكتشف المواهب؛ إذ ساعد في بروز أغلب الفنانين من خلال إعداده لبرنامجه الشهير أصوات شابة، والذي استطاع به أن يقلب موازين الفن العراقي من خلال إعطائه فرصة ذهبية للشباب بعد هيمنة

مطربي الإذاعة على الأغنية العراقية، فأصبح هنالك عصر جدير لإبداع الشباب من موسيقيين ومطربين وشعراء وملحنين، كلهم من الشباب، والذين أصبحوا بعد ذلك من قادة الحركة الموسيقية في العراق.

هاجر الفنان فاروق هلال العراق إلى مصر منذ عام ٢٠٠٣م.

حبيب الدوركي... المطرب الذي أصيب بالشلل لأدائه الأغاني العاطفية فقط

فوجئت به عام ٢٠٠٤ وهو يدخل إلى دائرة السينما والمسرح (المسرح الوطني) بكامل أناقته، توجست من أن أكون مخطئًا في معرفته، كان ضئيل الحجم، ولا يقوى على الحركة الكاملة، كان يمشي بصعوبة، ويده اليسرى على غير ما يرام، ومن أول نظرة عرفت أنه يعاني من (الشلل)، ومع استغرابي لحالته وغيابه الطويل عن الوسط الفني والغناء، لكنني عرفته جيدًا، وتأكدت من أنه هو حبيب الدوركي فتوجهت إليه، وجدته مختلفًا عن تصوراتي عنه، وهو الشاب الذي يفيض حماسة وشبابًا وغناء، وهو الاسم الذي عرفناه في سبعينيات القرن الماضي من خلال الفرق الغنائية البصرية، قبل أن ينطلق ليغني لمفرده، فنال حيزًا جيدًا من الشهرة، وحفظت له الناس العديد من الأغاني التي انتشرت، وصارت أغاني فرح وأعراس مثل: (هاي فرحة وبعد فرحة)، و(خايف على أم الشامة)، و(ها يمه هنا)، فضلًا عن العديد من الأغاني المميزة الخاصة به، مثل (الوجه الحلو)، (شسويت بحالي)، (أترجالك)، (لا تلف وتدور)، (أودعمن يا قلبي)، (عاشقة) و(أقول لها لولا)، وغيرها.

كنت أستعرض في ذاكرتي ما أعرفه عن: حبيب الدوركي... بدأ مع فرقة التراث في البصرة، وتمتد مسيرته الفنية إلى عام (١٩٧١) حتى عام (٢٠٠٠)، حيث كان في هذا العام بداية النهاية لهذه المسيرة الحافلة، نهاية دراماتيكية غريبة تحمل أسرارها لهذا المطرب الذي لم ينصفه الإعلام، فغاب بهدوء قبل أن يرحل عن الدنيا، وهو يعاني من الشلل الذي تسببت فيه صدمة عصبية، بسبب تهديد من (عدي) ابن رئيس النظام السابق؛ بسبب أنه لم يُغنِّ له!

الحكاية، وكما جاءت على لسان الدوركي، تتمثل في أنه كان مسافرًا مع مجموعة من المطربين إلى لبنان والأردن لتقديم حفلات في هذين البلدين، وبعد أن قدموا عروضًا في لبنان، سافروا إلى العاصمة الأردنية عمان، هناك جاءه اتصال هاتفي في مقر إقامته، قالوا له: أحدهم يطلبك على الهاتف، سأل إذا ما كان من معارفه أو أقاربه، فأجابه ذلك الشخص أنه من (الجماعة)، ويقصد أنه عنصر من عناصر حماية المقبور (عدي)، وطلب منه أن يترك جماعته في عمان، ويجيء فورًا إلى بغداد، لم يكن منه إلا أن يستغرب الطلب الذي كان عبارة عن (استدعاء) مغلف بالتهديد الواضح، أكد حبيب للمتصل به أنه رجل مطرب، لكن العنصر أغلق الهاتف، تملكت حبيب الحيرة والصدمة، لم يجد إلا أن يتصل بشخص يعرفه يعمل في الحماية أيضًا، وسأله عن هذا الاستدعاء الفوري، فحذره هذا الشخص من المجيء إلى بغداد؛ لأن عدي يريد أن يسجنه! لا يعرف حبيب الدوركي السر وراء هذا، فحاول أن يفهم لماذا؟

فقال له ذلك الشخص: لأنك تغني أغانيَ عاطفية، وليس لديك أغنية واحدة عن الرئيس، وطلب منه أن يترك الفرقة والمطربين، وأن يجد له مكانًا يختبئ فيه، ما إن أغلق سماعة الهاتف حتى شعر بضيق في التنفس، ومن ثم أغمي عليه، واستمرت حالة الإغماء ٤٥ يومًا، فيما ظل في الأردن لأكثر من سنة، وقد أصابه الشلل من إثر الصدمة، ثم عاد إلى بغداد... وهو مشلول!

التقيته عدة مرات، وصار صديقًا مقربًا، ونتحدث كلما جاء إلى دائرة السينما والمسرح، وقد علمت أنه يسكن في منطقة الكرادة قريبًا من شارع العطار، والطريف أنه وهو في حالته الصحية السيئة، كان في أحاديثي معه يحاول أن يستعيد عافيته الغنائية واللحنية، وأسمع منه شغفه بالعود والأوبريت، وأخبرني حينها أنه انتهى من تسجيل أغنية عنوانها (بنت الحلال)، كلمات نزار جواد وألحانه، فضلًا عن أوبريت يحمل عنوان (عراق النهرين)، ويبدو أنهما لم تظهرا إلى الناس؛ بسبب ظروف الإنتاج التي صارت صعبة بعد عام ٢٠٠٣، لكنه في كل لقاءاتي به يحذر من عدم الاهتمام بفن الأوبريت، الذي يخشى عليه من النسيان والانقراض.

رحل حبيب الدوركي عن الدنيا عام ٢٠٠٦، رحل بهدوء بعد أن تعرض لجلطات قلبية متتالية، رحمه الله.

عادل الهاشمي... يهاجم طالب القره غولي

على الرغم من أن الناقد الموسيقي عادل الهاشمي كان له في المطبعة كتاب يتحدث عن عبقرية الملحن طالب القره غولي، يحمل عنوان (وعد أخضر في الأغنية العراقية)، وهو دراسة تحليلية لحياة وأعمال وقوالب الأغنية العراقية التي يعتبر القره غولي من رموزها الكبار، إلا أن الهاشمي هاجم القره غولي بشدة لأسباب مختلفة.

قال الهاشمي لي في حديث صحفي معه: منذ أكثر من عقدين من السنين، أطلقت على الملحن طالب القره غولي وصفًا بأنه أخطر الملحنين العراقيين في العصر الحديث، وما زلت مؤمنًا بهذا الوصف، ولن أتراجع عنه، غير أن المدهش في الأمر أن هذا الموقف لن يلقى صدًى طيبًا عند القره غولي، فهو لم يفتأ يردد عبارة: أكل عليها الدهر وشرب، وهي (أن الناقد الهاشمي يهاجمني دومًا، ولا أدري ما هو السبب!)، وطالما دبجت مئات الصفحات في كتابة التحاليل النقدية عنه، وكان رده العملي على صنيعي، هو مزيد من الطعن والأذى والتخريف، وأنا لم أتوقع منه أن يقف مني موقف الحياد، فكيف التأييد؟ فلن تنقضي خلافات القره غولي، ولن تنتهي ملامح إنكاره للبعض وإنكار البعض له، وأصارحكم أن القره غولي بقدر ما يملك موهبة متفردة تعز على غيره من الملحنين، فإنه مولع بجهل

لا يصدق! ومن علامات هذا الجهل أنه يرد على رأي لم يقرأه مطلقًا، إنما سمعه من هنا وهناك، وتلك لعمري واحدة من أخطر الآفات التي تفتك بالفنان، تلك التي يدير فيها ظهره لشيء اسمه القراءة، ويفتح كامل شهيته لشيء اسمه السماع.

وأضاف: ومن علامات جهله أنه يعتقد أنني أكتب النقد الذي ينبع من دوافع شخصية، ولقد علمتني تجربتي الطويلة أنني لا أتضايق مطلقًا من مثل هذا الموقف، بل أنا أتوقعه، خاصة وأنا أحمل سيرة نظيفة عبر ثلاثة عقود من السنين.

وأوضح: عندما يحدثك القره غولي، في حديثه تعجل ورتابة، وتركيز على نفسه وعن عمله، ولا يأتي على لسانه اسم موسيقي أو ملحن آخر إلا للاستخفاف، وما تهكمه من الفنان الموسيقي محمد جواد أموري، والملحن محمد نوشي، إلا مثال على نهجه المرضي هذا، غير أني لست في حاجة أن أؤكد أن هذا كله لا يؤثر في الانطباع الذي تتركه ألحانه في أعماقي، ولا في تقديري لها، ومن العلامات التي تخلق الانطباع على استهانته بالوقت، أنه يجلس دائمًا من الساعة الواحدة ظهرًا وحتى الثامنة مساء، أو ما يزيد، يلعب (النرد) في استوديو الرواد، فكيف يتسنَّى له التعلق بأطراف العلم الموسيقي، والدخول في ساحة المناقشات الساخنة والحامية حول مستقبل الأغنية العراقية، وكيف يتسنَّى له الزراعة بيديه الماهرتين أجمل الأزهار في الحقل الغنائي الذي ينتمي إليه؟ ثم إذا كان هذا حاله،

فكيف يتسنَّى له التركيز على الثقافة الموسيقية، تلك هي الأساس في تطوير أداته التعبيرية والبنائية، فإن الموهبة لوحدها لا تصمد، مهما كانت جليلة القدر.

وتابع: إن مثل هذا النهج يكون، ولا شك، تقريرًا لمصدر خطئه ولثمار هذا الخطأ، وليس هناك فارق بين أن يكون القره غولي قد فعل ذلك عن عقيدة أم عن جهل، فإن الاثنين يعبران عن قصور موهبته الفنية، ومحدودية إدراكه في مجال استشراق الآفاق المستقبلية في البناء والتطلع.

وختم بالقول: إن على القره غولي أن يعود إلى فنه بعيدًا عن الانشغال المحموم بالمهاترات التي يلجأ إليها بلا انقطاع، عندما نتوقع منه العودة إلى إبراز الأحاسيس والسلوك الإنساني في وقاره الحقيقي، لا أن يحطم دورنا المشحون بالتعاطف معه في مواقف تقلل من شأنه الكبير في بناء الأغنية العراقية.

أحلام وهبي... خمس سنوات من التألق في مصر

تعد المطربة العراقية أحلام وهبي، واسمها الحقيقي سهام محمد عبد الرحمن (مواليد البصرة ١٩٣٨- ٢٠٢٠) من المطربات اللواتي نِلنَ شهرة عربية، لم يعرفها الكثيرون والكثيرات من المُغنيين والمغنيات، العراقيين والعراقيات، وارتبطت بعلاقات طيبة مع خيرة النجوم العرب، واستطاعت بجمالها أن تسلب ألباب العديد منهم، فضلًا عن صوتها الجميل، كان حضورها في أي مكان يضيئه غنجها ودلالها، فاختيرت لتمثيل الغناء العراقي في حفلات (أضواء المدينة) الغنائية الشهيرة التي يقدمها الإذاعي جلال معوض، وهي حفلات متنقلة مشتركة في عدد من البلدان العربية.

وكانت أحلام تثير في الأمكنة المشاعر التي سرعان ما يعبر أصحابها عن شيء من السرور بها ولها، ومن ذلك الدعوة التي تلقتها عام ١٩٦٦ من المطرب عبد الحليم حافظ لتكون ضمن قافلة أضواء المدينة هذه لمدينة (الزقازيق)، وكان عبد الحليم الأكثر سعادة ونشوة بحضورها لمدينته، وغنت معه، لكن الانتقالة المهمة في حياتها الفنية حينما دعاها المطرب فريد الأطرش إلى الحضور إلى القاهرة بعد لقائه بها في دولة الكويت عام ١٩٦٧، ذهب إليها بعد انتهاء وصلتها الغنائية، وشجعها على هذا بقوله: (لازم تجي

للقاهرة، فرصتك هناك هتبقى أكبر)، بعد أن قال لها (إن صوتك جميل وقد أعجبني جدًا).

وبالفعل ذهبت إليه، واستقبلها في بيته، وعاشت في القاهرة خمس سنوات، وقد أدخلها الإذاعة المصرية، فسجلت للتليفزيون المصري أغنياتها (الله الله، هلهلي يا سمرة واعيون)، وأقامت العديد من الحفلات في القاهرة ودمياط وبورسعيد والزقازيق، وتعرفت من خلاله على الوسط الفني المصري، وأبرزهم محمد عبد الوهاب، وبليغ حمدي الذي لحَّن لها أغنية طربية من كلماته، اسمها (بين النجوم)، ولحن لها محمد الموجي أغنية (زمان يا جار) باللهجة المصرية، وأعاد لها تلحين أغنية (كلبك صخر جلمود) على الطريقة المصرية، ونجحت الأغنية، كما لحن لها أغنية من كلمات عبد الرحمن الأبنودي عنوانها (خشخيشة)، ولحن لها أغنية (مع المراكبية) كلمات مجدي نجيب، وغنتها في حفل عام ١٩٦٧.

وكان الَموجي الأقرب لها من غيره، حتى إنه أراد الارتباط بها، لكنها رفضت خوفًا على أسرته، واحترامًا لزوجته التي كان لها علاقة طيبة معها.

كما غنت من ألحان منير مراد أغنية بعنوان (الفلاحة)، وغنت لسيد مكاوي أغنية تحمل اسم (إيه شكل الحب ياما)، كما لحن لها جميل العاص من كلماته أغنية (خليه يروح) التي غنتها في حفلة دمياط مطلع عام ١٩٦٦، وغيرهم، وكانت طيلة خمس سنوات، أمضتها هناك ناجحة وحاضرة بين النجوم نجمة زاهرة.

أم كلثوم... تتمنى الغناء في بغداد

على الرغم من زيارتها للعراق لمرتين عام ١٩٣٢ وعام ١٩٤٧، إلا أن المطربة المصرية أم كلثوم (١٨٩٨ - ١٩٧٥) كانت تتوق إلى زيارة بغداد مرة ثالثة، خاصة في أواخر الستينيات من القرن العشرين، وتعبر عن أمنيتها أن تتم دعوتها إلى زيارة بغداد، والغناء على مسارحها، للتعبير عن الحب المتبادل بينها والجمهور العراقي، وهي أمنية لم تتم لأسباب مجهولة، على الرغم من النضج الكبير والشهرة الواسعة التي صارت عليها، حيث تتمنى أية دولة حضور أم كلثوم.

كانت أمنية أم كلثوم تتعاظم مع ما حدثها به الشاعر المصري صالح جودت (١٩١٢-١٩٧٦) الذي زار بغداد مطلع عام ١٩٦٨، وهو يقول أولًا (... وأهل العراق يعشقون الغناء، وبغداد لا تنام في ليالي أم كلثوم، وأم كلثوم حبيبة كل بلد عربي، ولكني لا أعتقد أن أحدًا في الدنيا يسمعها، كما يسمعها أهل العراق...!).

ثم حكى لها حكاية طريفة قائلًا: (أذكر ليلة... أننا دُعينا، أحمد رامي وأنا، في بيت من البيوت الكريمة في بغداد، وأدارت ربة البيت جهاز التسجيل على أغنيات أم كلثوم، فلما أخذها الشجن، جلست على البساط تحت جهاز التسجيل، تقبل الأرض التي تحمل صوت أم كلثوم،

وعيناها تفيضان بالدموع)، فما إن انتهى الشاعر صالح جودت من رواية هذه القصة لأم كلثوم حتى قال لها: (هكذا يحبك أهل بغداد)، ثم أردف قائلًا لها: (غنيت في لبنان وباريس والمغرب، وستغنين في تونس والسودان، فلماذا لا تغنين في بغداد؟) هذا التساؤل، كما يقول صالح جودت، ردت عليه أم كلثوم (من قلبها) قائلة: (يسعدني أن أغني في بغداد، ولكن أحدًا من المسؤولين في بغداد لم يوجه لي مثل هذه الدعوة، وأنا على استعداد لتلبيتها...)!

لم تتم دعوة أم كلثوم للغناء في بغداد... أية غرابة هذه!

والغريب... أن المسؤولين في تلك المدة مرَّ عليهم كلام أم كلثوم كالسحاب الأبيض، ويبدو أنهم كانوا منشغلين في مناكفاتهم السياسية!

الموسيقار جميل جرجيس... حينما زعل ولزم بيته

حين اتصلتُ بالموسيقار الكبير جميل جرجيس (توفي عام ٢٠٠٦ عن عمر ناهز الثمانين عامًا) لأحصل منه على آخر نشاطاته الفنية، كعادتي، لعلاقتي الطيبة معه وحرصه على التعاون، وهو المهتم بالموشحات، وله المئات منها، ردَّ عليَّ قائلًا بأنه لم يذهب إلى دائرة الإذاعة والتليفزيون، و(لزم بيته)!

استغربت ذلك؛ لأنني أعرف جيدًا أن مهمة إعادة تشكيل فرقة الإنشاد العراقية قد عهدت إليه مؤخرًا، كان ذلك بالتحديد في شهر تموز من عام ٢٠٠٠، حاولت أن أعرف منه، وأنا أسأله عن فرقة الإنشاد ومصيرها من بعده، فقال جملة صادمة بالنسبة لي: (تخليت عنها والتزمت بيتي)، وأنا وجدت أن في الأمر سرًّا، وعليَّ أن أعرفه منه، لكنه لم يكن صعبًا في كشف ذلك، فقال وقد سألته عن السبب: لأن الأمور لا توافقني، ثم أضاف: أنا فوجئت بالأمر الإداري، وتسميتي كمدرب فرقة، وليس (مشرفًا فنيًا)، قياسًا إلى عمري الفني، وفوجئت أن رئيس قسم الموسيقى والغناء السيد خليل إبراهيم هو المشرف الفني! وتابع: وقلت لخليل: هذا لا يليق بي، أنا الذي أمضيت خمسين عامًا في تأسيس الفرق الفنية، والواجب المطلوب مني، كمشرف فني، أن أربي الفرقة تربية فنية صحيحة.

واستطرد أمام محاولاتي لمعرفة المزيد: أنا اعترضت على أخي وصديقي خليل إبراهيم، وسألته عن عنوانه، فقال: أنا رئيس قسم الموسيقى والغناء، فقلت له: أخي العزيز، الموسيقى والغناء تابعان لقسمك، ولا يجوز أن تكون المشرف الفني، لكنه لم يقتنع، وظل يماطل، ولم يرضَ أن يغير عنواني.

وتابع: كان جالسًا معنا الفنان حسن الشكرجي، والملحن ياسين الراوي، وقالا له: لا يجوز ذلك، لأن كل شيء تحت اسمك كرئيس قسم، لكنه لم يقتنع، فكتبت مذكرة إلى المدير العام، شرحت له فيها التباسات القضية، لذلك؛ قررت أن لا أداوم إلا إذا أعطوني صفتي الحقيقية التي يعرفني الجميع بها.

وختم بالقول: خليل إبراهيم هو أخي، ولم أتبرأ من صداقته، سواء اشتغلت في الفرقة أو لم أشتغل، فنحن أصدقاء من زمن طويل.

يذكر أن الفنان الكبير جميل جرجيس موسيقار، له المئات من الموشحات والتراتيل الدينية الإسلامية التي كانت تبثها إذاعة وتليفزيون العراق خلال عقود، هي من تأليفه وإعداده وتلحينه، وهو ابن شماس الكنيسة الموصلي، ومؤلف التراتيل الكنسية ومعلمُها. يعتبر صاحب الفضل الكبير في إغناء الفرقة النغمية بعلم الموشحات، وتمرين أعضائها وتدريبهم.

حسين أمين... وذكرى مع ناظم الغزالي

للدكتور حسين أمين (١٩٢٥ - ٢٠١٣) علاقة مع الغناء، بدأت منذ صباه، لكنه يتذكر زميل دراسته الراحل ناظم الغزالي، وحكى له طُرفة منه.

حين أميه قال لي حين سألته: والغناء... إينك منه؟ قال: كنت أهوى قراءة المقامات، كان لدينا مذياع صغير أسمع من خلاله مقامات (محمد القبانجي)، و(رشيد القندرجي)، و(يوسف عمر) الذين فتحنا عيوننا وآذاننا على الاستماع إليهم، كما أن الفنان ناظم الغزالي كان معي في الصف السادس الابتدائي.

وأضاف: أذكر أن الإذاعة العراقية عام ١٩٣٦ كانت حديثة العهد، وحين نجلس في الصف في المدرسة المأمونية، كنا نسمع من الشبابيك المفتوحة محمد القبانجي وهو يغني، وكان ناظم يجلس بجانبي، ويدندن بما يسمع، وذات يوم سمعه مدرس الدين (عبد الرزاق الشيخلي)، لكنه التفت إليَّ اعتقادًا منه أن الصوت يصدر مني، وقال لي: لماذا تونون؟ فقلت له: لستُ أنا، وأشرتُ إلى ناظم، وبعد أن ضربه، قال له: أنت تريد أن تصبح مغنيًا، أنا أعرف تاليتك تصير (شعَّار).

وأضاف: قال المدرس هذا؛ لأن الغناء في ذلك الوقت لم يكن صفة محمودة.

وتابع: علاقتي بناظم امتدت حتى وفاته، رحمه الله، وكان شهمًا وكريمًا، وكان يرفض أن يأخذ مالًا مقابل غنائه مع فرقته الموسيقية حين أدعوه للمشاركة، لا سيما عام ١٩٦٢ في حفل تخرج طلبة كلية التربية، واعتبر ذلك تكريمًا للطلبة.

شذى حسون... حين غنَّت لأول مرة في بغداد

حينما زارت المغنية شذى حسون بغداد في شهر تموز من العام ٢٠٠٩، عقدت مؤتمرًا صحفيًا في نادي الصيد. أي بعد سنتين من فوزها في برنامج ستار أكاديمي اللبناني، وقد صوَّت لها سبعة ملايين عراقي!

شذى خلال زيارتها أحيت حفلتين: الأولى في نادي العلوية، والثانية في نادي الصيد، حضر المؤتمر حشد من وسائل الإعلام العراقية المقروءة والمرئية، وبحضور متعهد الحفلات العراقي ومرافقتها اللبنانية.

كنت حاضرًا في المؤتمر الصحفي ومعي نسخة من مجلة (بغداد) التي على غلافها صورة لشذى، وكنت قد بدأت العمل فيها منذ وقت قريب... فذهبت إلى شذى، وسلمتها النسخة، وصورتها وهي بين يديها.

بدأت الأسئلة تترى... وهي ترد بما استطاعت إليها جوابًا، أو تترك الجواب لمرافقتها اللبنانية، التي حاولت الاستيلاء على كل الأسئلة المطروحة، والتي هي تخص الزيارة والفوز بستار أكاديمي وأغانيها.

حتى إذا ما هدأت القاعة نوعًا ما حتى رفعت يدي لأسأل شذى، فقلت لها: أنت أحييت حفلتين في ناديين اجتماعيين في بغداد، وهذان الناديان معروفان، وإنهما لا يدخلهما الفقراء، نعم... الفقراء الذين هم صوتوا لكِ

لِتفوزين، ولا أعتقد أن غنيًا واحدًا ممن غنيت لهم صوَّت لكِ... هل تعلمين هذا؟!

لم تجب شذى، ويبدو أنني أحرجتها... فتلقفت مرافقتها اللبنانية الجواب لتردَّ... ومع أول كلمتين لها... رجوتها أن تترك الجواب لشذى... لأنها المعنية بالجواب...

حاولت المرافقة أن تبرر... لكنني قلت: أريد أن أسمع من شذى...

قالت: الحمد لله أن جمهوري كبير في العراق، ولكن هذه خطوة أولى.

قلت لها: لكن الفقراء هم من صوتوا لكِ، ومن المفروض أن يكون أول لقاء بهم.

فقالت: كنت أتمنى أن أقدم في مكان عام، وأنا أول ما اتصل بي المتعهد من أجل زيارة بغداد قلت له: أريد مسرحًا لكل الناس، ولكن الظروف هي السبب، واكتفينا بنادي العلوية ونادي الصيد، ولكنني أعد الجمهور أنني سأغني في المرة الثانية في مكان عام.

سهى عبد الأمير... آه من الزمن

في العام ٢٠١٢، شُوهدت المغنية سهى عبد الأمير في أحد شوارع بغداد تتسول بحثًا عن لقمة عيش بعد أن سلبها نظام صدام عقلها في الثمانينات، وأهملها النظام الحالي، فغدت متشردة تتسول لقمة عيشها من العابرين الذين لا يعرفونها، أو ربما بحثًا في بقايا نفايات المطاعم.

للتعريف بها: هي تلك الشابة الجميلة، في الثمانينيات، التي غنت في جلسة بصرية يومًا أغنية عنوانها (أعتب عليك أعتب) فتركت بصمة، وأصبحت اسمًا لامعًا، وراحت أغنيتها تتردد، ثم توالت أغانيها، متميزة بلونها البصراوي المحبب، لا سيما أن لهجتها كانت جميلة جدًا، ومن أشهرها (خلاني حبك حايرة).

كانت اللمحة الأولى للتعرف عليها من زميلنا المخرج الإذاعي فائز جواد حين شاهدها في منطقة الصالحية ببغداد، وهي في هذا الوضع المزري، وهو ما دعاني إلى البحث عنها في العديد من الأماكن والسؤال عن مغنية متسولة، لكن أحدًا لم يعرفها، حتى شهر آذار من العام ٢٠١٤ حينما قرأت منشورًا عنها كتبته الزميلة أسماء عبيد التي اتصلت بها فورًا لتدلني على مكانها، لكن أسماء أخبرتني أنها لا تستقبل الرجال، فطلبت منها مرافقتي إليها، وبالفعل، كنا على مقربة منها.

كانت تسكن على الرصيف في مكان من منطقة البتاويين (في الشارع الذي فيه مستشفى السعدون)، في كوخ، وليس هو بكوخ، مساحته (متر واحد × مترين)، لأنه مجرد قطع من حديد (الجينكو) الصدئ، بباب صغير جدًا وسقف غير مرتفع، وهنالك فتحة في جانبه تؤكد للعابر مليون بالمائة أن هذا المكان لكلب، وأنه ليس أفضل من الكوخ الذي يسكنه (كلب) عند بعض الأثرياء، تحيط به النفايات، وبالتأكيد لا يحميها من برد، أو يأمنها من خوف، لأنها لا تعرف معنى الخوف، وليس هنالك لها في المكان الملتصق بقطعة أرض فارغة مليئة بالنفايات سوى امرأة من الجيران تحنو عليها وتطعمها، وهناك عناصر الشرطة المكلفين بحماية بناية حكومية يقومون على حمايتها بعيون تتطلع إليها ليلًا ونهارًا، ويهرعون إذا ما شاهدوا أحدًا يقف إزاء كوخها، حتى إن الذين هناك لا يسمحون لمن يود زيارتها إلا أن تكون معه امرأة، وحين وصلنا، أنا وأسماء، وجدناها تنظف المكان، وتجمع أغراضها في أكياس نايلون وصناديق كارتونية، وما إن مددت رأسي في الكوخ حتى صرخت بي، لولا أن أسماء تدخلت وتحدثت إليها، فسكنت، لكنها بعد قليل قالت (سأسافر... سأرجع إلى البصرة) ومن ثم يرتفع صوتها، فتشتم وتسب، وتطالب بالإعدام، وحين سألتها لمن؟ قالت بعد أن مرت لحظات وكأنها انتبهت لما تقوله (الباب... الباب)، وتركتنا لتنشغل بالتنظيف، وتدور حول (الكوخ)، فيما اجتمع البعض حولنا، راحت تعبر عن غضب، وتزداد حدة كلماتها غير المترابطة، وحين

أردنا المغادرة سألناها إذا كانت تحتاج إلى شيء ما لنجلبه لها، فقالت: لا، ولما قلنا لها نحن ذاهبان، ردت علينا: باي باي.

ذياب خليل... حين شاكسته

في البصرة أيضًا، وفي شهر كانون الأول من العام ١٩٩٧ التقيت الملحن ذياب خليل (١٩٤٩- ٢٠١٧)، الخبر السيئ الذي زفه لي أنه عاطل عن العمل!

ملحن مثل ذياب عاطل! كان في خاطري أن الموجة الغنائية التسعينية الهابطة قد دفعته إلى الظل، جعلت المسافة بينه وبين التلحين بعيدة، والسؤال هو: لمن يلحن؟

كانت الحسرة بادية من كلماته، والأسى يقطر من ملامحه، فالحضور في المشهد أصبح صعبًا، لا يستوعب أغنية لها لحن (عليك أسأل) أو (حبينه ضي الكمر) أو (لاع البال ولاع الخاطر)!

قلت له: أين أنت الآن؟

ابتسم كأنه وجده سؤالًا تهكميًا، فقال: أنا موجود في البصرة! ثم استدرك: لكنني عاطل عن العمل الفني.

وقطعًا سيكون السؤال اللاحق لماذا؟ فأجاب: لأنني ملحن من الرعيل الثاني، مثلي مثل زملائي، لم نتعود التهافت أو الركض وراء موجة الأغاني الهابطة، لأننا نتعامل مع الأغنية تعامل أهل الصنعة، إضافة إلى غياب الفرقة الموسيقية الرسمية في الإذاعة والتليفزيون!

(أنا تصورت الحال... مغنون كبار بلا فرقة موسيقية)!

حاولت أن أشاكسه وأنا أشير إليه بالتناغم مع الموجة، فقال: لقد طلبني الكثير من المُغنيين الشباب مع إغراءاتهم المادية، الا أنني لم أجد الصوت الذي تستوعبه ألحاني، ثم إنهم يريدون الأغاني التي تحرك الجسد ولا تمس الروح، أغنيات فقاعة الصابون كما أسميها!

بين الهدوء والنظر في اتجاهات الوضع المزري القائم والانحطاط في الأغنية، كان الحل المستحيل في كلماته، حيث قال: أفكر جديًا بالعودة إلى الوسط الفني، بشرط أن يكون كما في السابق، وأن يحتضن الفنان، ويوفر له متطلبات العمل الفني...

(لم يتحقق شيء مما ذكره ذياب خليل كشرط لعودته، فناله المرض، ورحل عن الدنيا تاركًا ألحانًا ملتصقة على أوتار عوده).

(هذا توثيق لجزء من حالة الانحطاط الغنائي الذي مرَّ على العراق).

سعدي... في أيامه الأخيرة

لم أرَ المطرب سعدي الحلي (١٩٢٢- ٢٥ نيسان ٢٠٠٥) عيانًا إلا مرة واحدة، كان ذلك نهاية العام ٢٠٠٤، حينما كنت عابرًا إلى الطريق المؤدي إلى جريدة المؤتمر، في الشارع العرضي الثاني خلف المسرح الوطني.

شاهدت سيارة تتوقف أمام مدخل بناية، وحين اقتربت شاهدته، فتح أحدهم له باب السيارة، ونزل منها بمساعدة هذا الشاب ليجلس على كرسي متحرك...

هالني المنظر... تسمرت في مكاني أنظر إليه، كان سمينًا بعض الشيء، ووجهه ينطق بالأسى، أردت أن أتحدث معه، لكن لساني اختفى تمامًا، لم أستطع نطق كلمة، بقدر ما نظرني وحياني بنظراته ولسانه بكلمات لم أسمعها، أو ربما لم أفهمها.

(يا للأسى... يا للدنيا الغريبة، ما أتعس الزمن، وهو هاهنا يمد عناءاته على جسد المطرب الجميل).

اجتاحتني عاصفة من الحزن، وأنا أتأمل الوجه الذي ما عاد يغني، وليس فيه من الطرب القديم شيء... خمد النشاط، وتثاقل الجسد، وأفلت الأنجم...

سحب الشاب الكرسي، ثم دفعه ليدخل به إلى شقة في الطابق الأرضي، لحقته إلى الداخل، وأنا كالمغمى عليه أو

كالمغيَّب! دخلت وراءه، وفوجئت بامرأة شابة تستقبله بالقبل والتحيات، وحين انتبهت لي سألتني من أنت؟ أجبتها: أنا صحفي؟ لم تكن لديها أية ردة فعل.

رحت أنظر في المكان الذي صار عليه سعدي الحلي، وأعاين الغرفة الواسعة، فشاهدت صورة للراحل نجل الحلي (خالد) معلقة على الحائط، ولوحة على شكل رفوف عليها العديد من الكاسيتات والصور الصغيرة لخالد الحلي (١٩٦٠ – ٢٠٠١)، فعرفت أن هذه الشقة هي بيت خالد، على الفور، ترددت في صمتي أغنية سعدي لنجله خالد (لا يا ولدي) التي يقول مطلعها:

(لا يا ولدي، تدري الوقت هدني، أنا تعبت و ردَّتك تساندني)

إنها تعبير رائع للحالة التي هو عليها الآن، كرسي متحرك، وعدم القدرة على الكلام ربما، ولكن لا معنى للأغنية الآن...

سعدي الحلي وهو بهذه الحالة المرضية... يقوم بزيارة تفقدية لأسرة ابنه خالد!

ليست لديَّ كاميرا لكي أصوره، ولا الوضع مناسب للتحدث معه، بقيت حائرًا فيما أرى حتى شعرت أن وجودي غير لائق... فخرجت منسحبًا إلى الخارج...

خرجت أجرُّ خطواتي جرًّا، وألتفت إلى الوراء، وعلى لساني: (يا مدلولة شبقة بعمري)!

فيروز... وزيارة إلى بيتها لم تكتمل

في العام ١٩٩١ انتهيت من تأليف كتاب عن فيروز، حمل اسم (همسات دافئة عن فيروز: مطربة العين والقلب واللسان)، سلمت مخطوطته إلى الصحفي الراحل رياض قاسم في جريدة الجمهورية، فكتب عنه عمودًا قال فيه (كنت أظن أن فيروز فيروزنا نحن أبناء جيلنا، ولكن عندما قرأت ما كتبه عبد الجبار عنها، وجدت أن فيروز هي فيروز)!

وحينما طلبت من الأستاذ الناقد الراحل محمد الجزائري أن يكتب له مقدمة قال فيها: (في الهمسات فيروز هي التي تغني).

وفي العام ٢٠٠٦، عندما كنت في بيروت، كنت في توق من أجل الذهاب إلى بيت السيدة فيروز ومقابلتها، وأن أخبرها أنني كتبت عنها كتابًا، فأشعر بتحقيق حلم جميل بالنسبة لي.

حينها أعربت للشاعر اللبناني أحمد منصور عن أمنيتي، ورغبتي في أن نزور فيروز في بيتها، ومن المصادفات اللطيفة أننا في شارع الحمرا التقينا رجلًا كبيرًا في السن، عرفني أحمد عليه بالقول أنه من أصدقاء فيروز المقربين، وكشف له ما تمنيته، لكن هذا الرجل أكد أن اللقاء بفيروز، وهي بهذا العمر، صعب جدًا حتى على أصدقائها، وطار الأمل...

ولكن بعد مداولة مع الصديق الشاعر أحمد وافق على أن نجرب الذهاب إلى بيتها، ومحاولة طرق الباب، عسى أن يكون هناك رد إيجابي، لكن أحمد اشترط عليَّ أن أكتب بالضد منها إن رفضت استقبالنا! فقلت له: هذا غير ممكن أبدًا، وتم إلغاء الزيارة.

جبار عكار... وآهات الربابة

حين التقيت الصوت البدوي جبار عكار (١٩٢٢- ٢٠٠٩) في أواخر شهر تموز من العام ١٩٩٨، سألته عن أسباب غيابه عن الظهور؟ فقال بنبرة فيها صوت ربابة حزينة: أنا جالس في البيت، إذ لا عمل لي...

ومع انطلاق كلمة لماذا من لساني، قال: فالفرقة القومية للفنون الشعبية التي أنا أحد أعضائها... متوقفة، وهي الآن بلا برنامج ولا مهرجان...

وكأنني سمعت منه آهة وهو يضيف: أما الأغاني التي سجلتها لشركة بابل عام ١٩٨٩، فهي لا حظَّ لها من الظهور في التليفزيون، وحتى البرنامج الإذاعي (ركن البادية) الذي أنا أول من غنى له عام ١٩٥٩ لم يرسل لي أي طلب للمشاركة فيه منذ سنوات، بحجة أن غنائي ليس بدويًا...

شعرت به كأنه يريد أن يمسك ربابته، ويئنُّ على وترها الوحيد، ثم قال: في الفن الآن... لا أحد لا أحد، ولا أحد يتأسف على غياب الفنان إلا بعد موته، أضرب لك مثلًا الفنان حضيري أبو عزيز...

* وماذا بعد؟

قال: أعتب على التليفزيون لعدم ظهور أغانيَّ فيه!

مجيد العلي... والسؤال الصعب

في عقد التسعينيات، منحني عملي في القطارات فرصة في لقاء رموز البصرة، من هؤلاء الملحن مجيد العلي (١٩٣٣-٢٠١٤)، التقيته في تموز من العام ١٩٩٨، كان متعبًا ومريضًا، ويبدو أن الشيخوخة زحفت إلى جسده، فلم يعد قادرًا على التلحين، وكان تلك التسعينيات بلا ألحان...

وأنا معه استذكرته ناظرًا إليه من خلف أبواب السنين، حيث تنساب ألحانه الماء الرقراق هاطلة على قلوب الناس، فيحملك على ظهر بلمه العشاري بموسيقى (كمانه) التي أججت ذات يوم (نيران السلف) الأوبريت التي حفظته المدينة، وراحت تتغنى به على مساحات الفن العراقي الواسعة تحيط بها (الهباشات) و(الملايات)، وهن يتماوجن عل إيقاع (السامري) ليقمن لوحات ناهضة زاخرة بفلكلور البصرة تحدو بهن (ألوجن... ألوجن... يمه يا يا يمه)...

انتبه إليَّ الرجل المبتسم، وكأنه التقط ما سرح به خيالي، فلم أجد إلا أن أسأله: أين أنت الآن؟

سؤال كان صعبًا... ربما، هو يعرف أنني معه في البصرة، وفهم سؤالي، فقال وشيء ما يتدحرج في ثنايا حنجرته: (تقاعدت...) وحين واجهته بنظرة مستفهمة عرف مغزاها، قال: (أقعدني المرض وكبر السن...)، لكن عمره

حينها كان ٦٥ عاما... ما الذي أريد أن أفهمه، لكنه أكمل: (وتركت كل شيء للشباب ليكملوا المسيرة، ففيهم الخير)!

وحين رفعت رأسي رأيت عيون الحاضرين قربي تحدثني بألم عن غيابه عن التلحين، ومن ثم غنوا له: (يا بو بلم... يا بو بلم عشاري)!

حافظ القباني... الإذاعي الذي غنى (هله يا أم عبد)

تعد أغنية (هله يا أم عبد) واحدة من الأغاني التراثية الشهيرة، انطلقت شهرتها من إذاعة بغداد أوائل عقد الخمسينيات من القرن العشرين، وحين لاقت الاستحسان والإعجاب غنتها فرقة الإنشاد العراقية، وغنتها المطربة أنطوانيت إسكندر (توفيت عام ١٩٩٧) مثلما عزفها الموسيقار منير بشير، وشقيقه الموسيقار جميل في عزفين منفردين، كما أن الأغنية بصوت فرقة الإنشاد العراقية نالت شهرة أخرى من خلال حضورها في الفيلم العراقي (ندم) إنتاج عام ١٩٥٦، للمخرج عبد الخالق السامرائي (١٩٢٧ - ٢٠٠٧) فضلًا عن العديد من المُغنيين، حتى إن البعض كان يظن أن الأغنية من ألحان منير بشير، ولكن الحقيقة أنها ليست له، وإن كانت تحسب على التراث، فأسرار هذه الأغنية تؤكد أن أول من أطلقها من الإذاعة هو الإذاعي المعروف حافظ القباني (١٩٢٧ - ٢٠٠٤)، ومن ثم اقترح أن تغنيها فرقة الإنشاد، فغنتها بالفعل، وطارت شهرتها. هذه الأغنية تقول كلماتها:

(هله يا أم عبد، يا أم عبد هاا، احاا)
أم عبد، هله يا أم عبد، أم عبد هاا، يا بويه
شفت الضوا من بعيد قلت احترقنا
ولمن وصلنا البيت لن ولفي عدنا

ياهو الذي وداك للماي تترسين
شيلي الزلف لفوق لا ينتلف بالطين
كود القلب بيه باب عينك تشوفه
ولو شفت غيرك بيه حقك تعوفه)

وقد أسرني الإذاعي الكبير بهذه المعلومة حينما زرته في بيته عام ٢٠٠٢، وقد كان الغناء حاضرًا في أحاديثنا، فسألته بشكل عفوي (ألم تغنِّ؟) فأجابني (غنيت... في الإذاعة مع مجموعة من المذيعين عام ١٩٥٣ حين قدمونا في برنامج منوع، غنيت فيه أغنية (هله يا أم عبد)، التقطتها من الغجر، وكنت أول من غناها، وكان يقود الفرقة آنذاك الفنان المرحوم منير بشير، وبعدها اقترحت على مدير الإذاعة أن تسجل من قبل فرقة الإنشاد، وسجلت، وهي نفسها الموجودة الآن، وأكد لي حافظ القباني أن (التسجيل الصوتي لغنائي موجود، وعرض ذات يوم في تليفزيون بغداد في مقابلة معي) حتى إنني إعجابًا بالأغنية سألته: لماذا لم يستمر مغنيًا، فقال: (لم أستمر بالغناء لعدم وجود طموح لدي فيه).

حكاية أغنية (مجرد كلام) من شاعرها طاهر سلمان

في صالة فندق المنصور التقيته، وتحركت ذاكرتي أن لديه قصصًا حقيقية نسج منها كلمات أغانيه، فجلسنا وتحدثنا، فحدثني عن تفاصيل أغنيتين هما (مجرد كلام) و(مرة ومرة) اللتين لحنهما جعفر الخفاف، وغناهما رياض أحمد.

إنه الشاعر الغنائي طاهر سلمان، وهنا سأنشر حكاية (مجرد كلام)، وقد ابتدأ كلامه بالقول: هذه الأغنية لها قصة حقيقية، وتاريخها يعود إلى العام ١٩٨٥...

يقول طاهر: في سنة من السنين كنت في البصرة أعمل على سجل الزواج والطلاق، موظف في محكمة الأحوال الشخصية الشرعية، كما يسمونها، وفي يوم من الأيام جاءتني فتاة شابة، فاستفزني المنظر: كيف هي مطلقة، وهي صغيرة وجميلة، وكيف تريد أن تحصل على النفقة الزوجية لابنتها، سألتها: أنت ما زلت صغيرة... لماذا مطلقة؟ سؤال شخصي ربما، فقالت: هل تسمح لي أن أجلس، فأحكي لك القصة؟ فقلت لها: تفضلي، فجلست على كرسي بالقرب مني، ثم قالت: أنا أحببت شابًا لمدة سبع سنوات، وتعلقت به، وتعلق بي، وأكثر من مرة طلبني من أهلي، لكنهم لم يوافقوا، وسألتهم عن السبب، فكانوا يقولون: لا نعطيك له وخلاص، لكنني تمسكت به، وقلت

لهم لا بد لي أن أتزوجه، شئتم أم أبيتم، لكن أهلها: أبوها وإخوانها، قالوا لها (على راحتك)، ولم نعمل لك شيئًا، ولكن بمجرد زواجك منه اعتبري نفسك (غصنًا مقطوعًا من شجرة)، ونحن لا نضربك ولا نقتلك، لكننا غير موافقين، وأنت بهذه الحالة (تضربيننا عرض الحائط)، اذهبي... وأنت تتحملين ما يحدث لك مستقبلًا.

وأضاف: تقول الفتاة: لا أعرف إذا ما أنهم عرفوا عنه شيئًا ما، لكنهم لم يخبروني سوى بعدم موافقتهم، وتزوجته... ومرت سنة ونحن (سمن على عسل)، فأنا أحبه وهو يحبني، وأنجبت منه هذه الطفلة، ولم يحدث بيننا أي شيء يعكر صفو علاقتنا، وأمورنا (ماشية) جدًا، وكيف لا وأنا التي تركت الدنيا كلها لأجله، ولكن... في أحد الأيام رجع من العمل، وإذا به يقول لي (يا فلانة... أنا وأنت انتهينا!) تقول: أنا ضحكت ثم قلت له: هل هذه تمثيلية أو فلم أو مسرحية... أنا لا أفهم معنى (إحنه أنتهينه) قال لي: أنا أقول لك بالمعقول... لا فيلم ولا نكتة، أنت لستِ لي، تقول: سألته عن الأسباب، لكنه لم يرد بغير: خلاص... وغدًا سيأتيك (خط) ورقة الطلاق بيدك، قلت له: أين أذهب أنا، وقد خرجت من بيت أهلي، أنا غصن مكسور.

يقول طاهر سلمان: أنا سألتها: هل هذا التصرف منه معقول؟ فلا دخان من غيرنار، لا بد من شيء حدث، فقالت لي: الفتاة التي تعوق أهلها كلهم وإخوانها وعشيرتها، وتختار واحدًا لتتزوجه... هل من الممكن أن تؤذيه أو تخونه؟

قلت لها: كلامك صحيح.

فقالت: أنا لا أمتلك جوابًا، فلا يوجد شيء عندي عملته ضده، وهو لم يخبرني عن السبب، لا خيانة ولا غيرها.

يقول طاهر: قالت لي والله العظيم... مجرد كلام قاله وراح: (أنت ما تصيرين لي بعد وهاي هي!)، وأنا لم أجد في حيرتي هذه إلا أن أذهب إلى بيت خالتي، وأنا الآن جئت إلى المحكمة؛ لكي أطالب بنفقة لهذه الطفلة، وهذه كل قصتي.

وأضاف: كانت الفتاة مؤدبة ومرتبة، وبصراحة ضربت هذه القصة في رأسي، لأنها حالة إنسانية، ومن هنا بدأت الأغنية (مجرد كلام... حجيته ونسيت) نسيت علاقتنا وتعبنا (حبيبي حرام على الحب جنيت، قلت لي انتهينا كلام ومشيت، عجيبة الليالي غريب الزمان يخلي الحبايب كل واحد مكان، يا ريتك تجيني وتردلي الحنان، قلت لي انتهينا كلام ومشيت، مكانك حبيبي ما بين العيون تغيب وتجيني، ومن طبعك حنون، خسارة يا غالي تظن بي الظنون، قلت لي انتهينا كلام ومشيت، مجرد كلام).

وتابع: الكلام على لسان امرأة، وكتبتها وأنا جالس، وقبل أن ينتهي الدوام، وأغادر الدائرة، قررت كتابة الكلمات فورًا، لأن تركها إلى غير وقت سيُحدث خللًا في الكتابة، وأنا من طبعي إذا بدأت في نص لا بد أن أكمله، وإن كان في الليل، فلا أنام إلا بعد أن أكمله؛ لأنني إن نمت واستيقظت يكون الكلام شكلًا آخر، وهذا حدث لي أكثر من مرة أنني حين أنام وأقعد، السائل الدماغي والإحساس وغيرهما

يتغيرون ويغيرون كل شيء، وأتحدى من يستطيع أن يكتب كما في البداية.

وأوضح: أكملت الكلمات كنص من نصوصي، وحدث أن قابلت الأستاذ الملحن جعفر الخفاف الذي أعجب بها كثيرًا، فاشتغلها لرياض أحمد.

حضيري أبو عزيز... أول سفير للأغنية العراقية

في حديث لي عام ٢٠٠١ مع الملحن محمد نوشي (١٩٣٥- ٢٠٠٤) استوقفتني جملة قالها وهي أن (المطرب حضيري أبو عزيز كان أول سفير للأغنية العراقية)! وحين أدهشني قوله أضاف: (سافر إلى بلاد الشام، وغنى على مسارحها، وربطته علاقات جيدة مع المطربين العرب، مثل فريد الأطرش، ووديع الصافي)، هذا الكلام لم يطرح على نطاق واسع، ولم يبحث فيه أحد مع الذكر المستمر لثلاثة مطربين، باعتبارهم السفراء للأغنية العراقية، وهم حسب التسلسل: ناظم الغزالي (١٩٢١ - ١٩٦٣)، سعدون جابر، ومن ثم كاظم الساهر، حينها قررت أن أتوخى الدقة والحذر في إعلان ذلك، وقد وضعت أمامي أن انطلاقة الغزالي خارج حدود العراق كانت في بداية الخمسينيات، فيما كانت شهرة ونجومية حضيري في الأربعينيات، ورحت أبحث في الأوراق القديمة للمطرب حضيري (١٩٠٩- ١٩٧٢)، فقد هالني عدد الأغنيات التي غناها والأسطوانات التي سجلها يوم كان نجمًا ريفيًا، ومن ثم صار نجمًا (أفنديًا) يرفل بالشهرة التي تترامى في أرجاء البلدان التي ميزته، واستمع إليه مواطنوها بكثير من الإعجاب بأغانيه، وصوته الجميل المميز، وقد وجدت أنه سافر إلى بلاد الشام نهاية الثلاثينيات، والتقى عددًا

من المطربين العرب، وأن هذه الزيارة فتحت أمامه آفاقًا جديدة، حيث تمت دعوته للغناء في بعض البلدان العربية وانتشار أغانيه، بل إنني قرأت للمطرب السوري ذياب مشهور أنه تأثر غنائيًا بحضيري أبو عزيز.

دفعني البحث إلى كتاب (من الذاكرة) للإذاعي الكبير الراحل سعاد الهرمزي الذي يشرح تهافت شركات تلك الأسطوانات على التسجيل لحضيري أبو عزيز، ومنها عام ١٩٣٧ حيث شركة سودا الوطنية التي كان مقرها حلب بسورية التي تعاقدت مع حضيري أبو عزيز، ويؤكد الهرمزي (يكاد يكون هذا التعاقد نقلة نوعية في حياة المطرب حضيري، حيث تمكن من خلاله من التعرف على المطربين والمطربات العرب الذين تعاقدت معهم الشركة في حلب، وكان هذا اللقاء إضافة رقم إلى قائمة شهرته على مستوى الوطن العربي، فقد تأثر به الكثيرون من المطربين والمطربات، وعلى رأسهم الموسيقار محمد عبد الوهاب ووديع الصافي، ومن هنا توطدت علاقته كثيرًا مع غالبية المطربين العرب، ولا مبالغة أن قلنا بأنهم استفادوا من تجاربه الخام، باعتبار جميع تجاربهم كانت مطروقة من قبل المطربين في بلدانهم، إلا أن هذا المطرب الفتى الناشئ صاحب الصوت العذب، والطلعة الجميلة، والخلق النبيل، أثر في هؤلاء تأثيرًا كليًا، فكان في هذا التسجيل نجمًا متألقًا بالفن والخلق والأخلاق، حيث كان في هذا التسجيل نجمًا متألقًا بالفن والخلق والأخلاق، حيث كان خير رسول فني ممثل للبلد والغناء الريفي).

كما يؤكد الهرمزي بشكل لافت على أن حضيري هو أول من نشر الأغنية العراقية في الوطن العربي، فيقول عن ذلك: (لقد برز المطرب حضيري أبو عزيز من خلال ما سجله لشركة سودا الوطنية بروزًا منقطع النظير على الساحة العربية مطربًا ريفيًا متميزًا، أثر في الأدب الغنائي تأثيرًا لم يؤثره مطرب من المطربين الكبار المشهورين... وقد ظهر ذلك من خلال الإقبال الشديد على تسجيلاته، وتزاحم الدعوات من البلدان العربية طالبين منه الحضور لأداء أغانيه العاطفية المشهورة... ولأن المطرب حضيري يعيش لفنه وإشباع رغبته في نشر هذا الفن على مستوى الوطن العربي، وليس للنفع المادي، فإن كل هذه الأمور جعلته يعزف عن شركات التسجيل التي تزاحمت عليه، واكتفى بأن يكون رسولًا مباشرًا للأدب الريفي العراقي من خلال أغانيه الجميلة... ولذلك؛ فهو بحق بلبل الريف الصداح، وهو بحق أول من قام بنشر الأغنية العراقية على مستوى الوطن العربي).

ولا بد من الإشارة إلى ما قاله الهرمزي نقلًا عن صديقه الفنان وديع خوندة الذي يؤكد اهتمام الموسيقار محمد عبد الوهاب بغناء حضيري والاستفادة منه، فقال: (حدثنا الفنان وديع خوندة بأنه تقابل مع الموسيقار محمد عبد الوهاب في بيروت عام ١٩٥١، وقد كان المطرب محمد عبد الوهاب قد استمع إلى صوت حضيري وأغانيه، فطلب من الفنان وديع خونده أن يسمعه لحنًا من ألحان حضيري، فأسمعه مقدمة (هلي يظلام)، وبعد فترة وجيزة، خرج

علينا المطرب عبد الوهاب بأغنيته المشهورة (أي سر فيك)، اقتبس لحنها ونغمها من أغنية (هلي يظلام)، كما استفاد الموسيقار محمد عبد الوهاب من الألحان العراقية الكثير، ومنها أخذ عن نغم اللامي أغنيته المشهورة (جبل التوباذ) والمُغناة على ذات النغم، وبها وصلات من أغنية حضيري المشهورة (يمه يايمه)، وظهرت في نفس الوقت أغنية (لاموش أنا ليكي) مقابلة لأغنية حضيري (ظنيت ما أحبك).

وعطفًا على حقيقة ما ذهبنا إليه من شهرة حضيري الواسعة جدًا، يقول الكاتب البحريني جاسم العطاوي: (في السنوات الخوالي، لا أتذكر أنني ذهبت في ليلة إلى ساحل من سواحل جنوب المحرق والحالة، حيث ولدت وعشت، وما زلت أعيش، أقول لا أتذكر أنني ذهبت مرة إلى هذه السواحل دون أن أسمع في ظلامها الحالك أغنية أو اثنتين أو حتى عشرين أغنية للفنان العراقي الكبير الراحل حضيري أبو عزيز، أغاني تنبعث من «أجهزة تسجيل» بأيدي شباب متناثرة على هذا الساحل أو ذاك.

ويضيف: كان الفنان الكبير حضيري أبو عزيز في السنوات الخوالي «أيام زمان» هو صاحب الشعبية الأكبر والأضخم بين أغلب الناس في البحرين، وهو يتفوق في هذه الشعبية هنا، وبفارق كبير، على كل الفنانين العرب الكبار أمثال السيدة أم كلثوم، والفنان فريد الأطرش، والفنان عبد الحليم حافظ، والفنان محمد عبد الوهاب، بالإضافة للفنانة فيروز.

ويتابع: ولأن الحضيري اسم كبير ولامع في عالم الغناء، أقول، وبالضبط كما يحدث بالنسبة لاسم أي فنان من هذا الوزن، ومن هذا النوع، أتذكر أنه سارع في إحدى السنوات أحد الباعة، باعة الأيسكريم الشعبي -من أبناء منطقتنا لاستغلال اسمه- اسم حضيري - لتسويق بضاعته (آيسكريمه)، هذا البائع علَّق على دكانه «لافتة» مكتوب عليها «كل الأيسكريم هنا، واستمع لأغاني أبو عزيز مجانًا».

أعتقد أن شهرة المطرب الكبير حضيري أبو عزيز هي الطاغية، عربيًا، في أزمنة ليس فيها من وسائل الاتصال والإعلام الحديثة ما يشيعها سوى الأسطوانات والإذاعات القليلة، ومن الإنصاف أن نؤكد أن حضيري هو أول سفراء الأغنية العراقية، بل وإنه أول من قام بنشر الأغنية العراقية على مستوى الوطن العربي.

رياض أحمد... هل تنبأ بموته؟!

كان شتاء العام ١٩٩٧ قارسًا، وذلك المساء منه كان جافًا قاسيًا جدًا ببرده، لكن المطرب الكبير رياض أحمد (١٩٥١- ١٩٩٧) جاء إلى (الصالحية) ملبيًا لدعوة من الصحفي الدكتور مجيد السامرائي لتسجيل حوار إذاعي معه لبرنامجه (حوار بلا أسوار) لصالح إذاعة بغداد، كان اللقاء الأول بينهما، والبرنامج حوار في السيرة الذاتية لحياة الفنانين العراقيين.

جاء رياض وهو يرتدي الجينز ومعطفًا أسود، ما إن دخل مبنى الإذاعة والتليفزيون حتى استقبله السامرائي مرحبًا به، لكن رياض أحمد قال بدهشة وإعجاب: (معقول أبو مقعد أمام الشاشة الصغيرة يعرفني؟) رد عليه مجيد مستفهمًا قائلًا: (أبو أحمد، هل تعرفني؟ أنا مندهش) فقال رياض بلهجته المحببة: (بويه... أتاني (أنتظر) يوم الأحد يوم يوم)! (كانت الزاوية تنشر يوم الأحد في مؤخرة صحيفة الجمهورية)، ثم أردف رياض: (وروح فرحه (امه) يوم كالولي فلان يريدك، كلت أجيك على راسي كبل أجدامي...!).

في الاستوديو قال رياض لمجيد بكثير من الألم والتعب واليأس أيضًا: (بويه هذه آخر حوار في حياتي؛ إنه مودع خويه هاي الدنيه...)!

فكان أن توفي حقًا بعد أيام، في السابع من آذار، كان حينها يشكو تصلبًا في الشرايين وتشمعًا في الكبد، ويبدو أن الحزن في داخله جعله يفرط في كل شيء، ثم انفطر قلبه!

يقول د. مجيد السامرائي: سجلت له ثلاث ساعات؛ ساعة ونصف منها بكاء مخمور مر... قرأ لي بصوت محمد رفعت، كان يشكو ويبكى، يشكو الغدر والخيانة، ويردد (دراميات)، ويغني (محمداوي) بهذا الصدد!

ويضيف السامرائي: لم يذكر أسماء الغادرين والخائنين، لكني أعرفهم، لكن ذكر الأمر محرج الآن، لكنه كان يبكي لأي ذكر للغدر والخيانة، أو حين يسمع أغنية عنهما، أو حين تقرأ له أي قصيدة يبكي.

ويوضح: سجلنا الحوار لمدة ٣ ساعات منها ساعة ونصف بكاء فقط، نقطع ثم يمسح دموعه، ونرجع مرة أخرى لنعيد التسجيل، وهكذا مر الوقت الطويل ما بين بكاء ومشاعر جياشة، ومحاولات تسجيل، وشعور طاغٍ باليأس. كان رياض يبكي داخل الاستديو، ويتحدث عنّ الموت، وعن اقتراب موعد رحيله من الدنيا.

يقول السامرائي: كان رياض يتحدث بذلك، وكأنه يعلم أنه سيموت!

ويؤكد: للأسف... فقدت التسجيل، ومن ثم حصلت عليه من عراقي مقيم في أوكرانيا؛ وأعتقد أنه قد سرق أو مسح من داخل مكتبة الإذاعة والتليفزيون، ذلك الشخص طلبت منه أن يرفعه على اليوتيوب، فعل ذلك، ثم طلب

اللجوء إلى الولايات المتحدة... بعد أن قال لي وهو يصف الحوار مع رياض: (صدك جذب بويه هذا مسودن!)

يؤكد السامرائي: في مساء ذلك اليوم، كان الجو باردًا جدًا جدًا، وبعد الحوار كان لا بد أن أذهب إلى سامراء، فقرر رياض أن أوصلني إلى كراج الشمال في العلاوي، وهناك أعطاني تفاحة خرافية الحجم، لم آكلها حتى، تعفنت، هناك، وأنا أودعه، قال لي (خوية راح أموتن، أنا مودع)، ثم قبَّلني وقال لي: (هذه بوسة مودع)!

ويستطرد: بعد أيام سمعت خبر رحيله عن الدنيا، لم أكترث كثيرًا، لكنني وقد أعيدت حلقته من برنامج (حوار بلا أسوار) بعد منتصف الليل، كنت أنا بسامراء؛ أجهشت بالبكاء في جوف الليل، فأيقظت أولادي، وأفزعت زوجتي.

سالم حسين... حُب لاهب مع المطربة راوية

يُعد الموسيقار سالم حسين (١٩٢٣ - ٢٠١٥) من أشهر العازفين العراقيين والعرب على آلة القانون، وله حضور مميز في الوسط الفني مرحلتي الأربعينيات والخمسينيات وما بعدهما، كانت له علاقة حب مع المطربة المصرية (راوية / ١٩٢٨ - ١٩٨٩) هي أول علاقة حب له مع مطربة عراقية أو عربية، كان ذلك في مطلع الخمسينيات حينما كانت الإذاعة العراقية تزخر بالكثير من المطربات العربيات اللواتي يسلبن عقول الناس بأصواتهن وجمالهن، لكنه ما كان ينظر إليهن بعاطفته الجياشة، بل كان عقله هو المتسيد، خاصة أنه كُلِّف مع بعض الفنانين للمشاركة في دعم الإذاعة بعد مغادرة الفنانين اليهود وخلو الإذاعة، إلا من عدد قليل من الفنانين والفنانات.

لكن رواية سلبت قلب سالم حسين بشكل غريب، كما لم تسلبه امرأة أخرى، حاول جاهدًا أن يكون لعقله الرأي الأخير، لكنه ما استطاع، ووجد نفسه مغرمًا بها، ويعيش هذا الحب بشغف كبير، وينشغل به انشغالًا سرق كل تفاصيل حياته الأخرى، وانصبَّ على الاهتمام بها كُليًا.

وراوية... هي مطربة مصرية دخلت الإذاعة العراقية عام ١٩٤٩، من أغنياتها الشهيرة «أدير العين ماعندي حبايب» التي لحنها الكبير رضا علي، قامت بينهما علاقة

حب كبيرة، واستمر هيامه بها لمدة (١٠٩٥) يومًا، أي ما يعادل ثلاث سنوات بالتمام والكمال، انصرف فيها عن أي اهتمام إلا بها، فعزف في حفلاتها أفضل ما يكون عليه العزف، وغنى لها وحدها أجمل ما يكون الغناء، وكتب لعينيها أحلى قصائده، لكنه إزاء هذا كله، وجد نفسه يهرب منها إلى خارج العراق من دون أن يخبرها، غادر العراق؛ كي تنتهي قصة الحب هذه، ولم تنفع معه رسائلها وبرقياتها وتوسلاتها التي تناشده فيها بالعودة إلى بغداد، لكنه لم يعد... وظل بعيدًا عنها، فكأنه انتبه إلى الواقع الذي يعيشه في قصة الحب هذه، فقد كان يرى أن هذا الحب... مجرد نزوات!

عبد الحليم حافظ... و(واقعة الفندق) في دمشق!

أينما يكون عبد الحليم حافظ (١٩٢٩- ١٩٧٧) لا بد من طرافة وجماليات، ورذاذ من مسرة يغمر المكان، وتأكيد على ثقافته ووعيه وتواضعه وحبه لجمهوره، فضلًا عن حبه للثقافة والمثقفين، هناك أسرار صغيرة، لكنها كبيرة بدلالاتها ومعانيها، ومنها حكاية ما أطلق عليها اصطلاحًا (واقعة الفندق) في العاصمة السورية دمشق عام ١٩٦٨، والتي روى لي تفاصيلها المخرج السينمائي الفنان فيصل الياسري، يوم كان مديرًا لتليفزيون دمشق! والذي قال لي أنه يرويها لأول مرة.

يقول الياسري: كانت تربطني مع عبد الحليم حافظ علاقة مودة، وعندما زار دمشق عام ١٩٦٨ ضيفًا على تليفزيون دمشق -وكنتُ مديره- رافقته عدة أيام، وكان يحب جلسات الحوار الخاصة مع بعض المثقفين، وكنت أوفرها له من خلال علاقاتي الطيبة، وقد ظهر كفنان مثقف يناقش في الأدب والفن والسينما المتميزة.

وأضاف: ومن الطرائف في تلك الأيام، أننا كنا ذات مساء مدعوين في بيت المخرج والناقد والكاتب الكبير د. رفيق الصبان، وذهبت إلى عبد الحليم في فندق سميراميس لأصطحبه إلى منزل الصبان، وكان الفندق محاطًا بالمعجبين والمعجبات الذين ينتظرون خروج العندليب،

فجاءني مدير الفندق ليعرض علينا الخروج من الباب الخلفي، من خلال المطبخ، وتجنب الحشد أمام الفندق! وإذا بعبد الحليم حافظ يندفع نحوي قائلًا: «فيصل، ماذا قال مدير الفندق...» قلت إنه يقترح الخروج من باب المطبخ لتجنب الناس في الخارج»، قال: «ومن هم الناس في الخارج»؟، قلت: «المعجبين والمعجبات بك، قال: يعني جمهوري»، قلت: أكيد، قال: «وهل تريدني أن أهرب من جمهوري؟ من حق هؤلاء أن أخرج إليهم، وأن أحبهم، وأن أوقع لمن يرغب منهم.

وتابع: وخرجنا من باب الفندق الرئيسي، وتجمع حول العندليب العشرات، وفتح معهم حوارات، وأجاب عن أسئلتهم، وتبادل معهم الطرائف، وحتى غنى لهم مطلع بعض أغانيه، ولم أستطع أن أسحبه منهم إلى السيارة إلا بعد عشرين دقيقة.

ويستطرد الياسري: وتوجهنا إلى بيت د. رفيق الصبان، حيث كان بانتظارنا أكثر من عشرة من أصدقائنا الفنانين، وهناك روى لهم عبد الحليم «واقعة الفندق» وجعل منها موضع الجلسة لمناقشة «علاقة الفنان بجمهوره».

الياسري بعث لي بصورة جاء في شرحها: عبد الحليم حافظ مع الأستاذ فيصل الياسري أثناء زيارته له عام ١٩٦٨ في مكتبه عندما كان مديرًا لتليفزيون دمشق.

عبد الحليم حافظ... يتحدى احتكار عبد الوهاب ويصوِّر فيلمه الأول!

لأنني أحب المطرب عبد الحليم حافظ، فأنا أتابع كل ما يخصه، وأحاول أن أجمع التفاصيل، وأربط ما بينها؛ لكي أصل إلى المعلومة والمتعة، فكان من ذلك ما كتبت.

بين الموسيقار محمد عبد الوهاب (١٩٠٢ - ١٩٩١) والعندليب الأسمر عبد الحليم حافظ (١٩٢٩ - ١٩٧٧) علاقة حميمة يعرفها الجميع، ولكنها تأثرت حينما حاول الموسيقار احتكار عبد الحليم، لا سيما في فيلمه الأول، حيث كان عبد الوهاب متوجسًا خيفة من الفشل، مما أدى إلى نشوب خلاف بينهما، فغاب الموسيقار، واختفى عن المشهد تمامًا، فيما كان عبد الحليم يبحث عنه من أجل أن ينفذ وعده له بالبدء بتصوير فيلم له، ومرَّ عام، والحال كما هي، وطارت شهرة عبد الحليم كثيرًا لا سيما بعد نجاح أغنيته (على قد الشوق)، وتعاظم الخلاف، وتدخل الكثيرون من أجل حل المشكلة التي يرفض عبد الوهاب حلها، ومنح عبد الحليم الفرصة لتمثيل فيلمه الأول، الذي تم التحضير له، وتجاوز عقبة توقيع العقد، عقد الاحتكار، عبر استثنائه من (شرط عدم العمل مع الغير)، فتأجل تصوير الفيلم، بسبب تعنت محمد عبد الوهاب، وقد قرر عبد الحليم فسخ عقد الاحتكار، باعتبار

أن عبد الوهاب لم ينفذ منه إلا بند (دفع العربون) فقط، وعندما شعر عبد الوهاب بأن عبد الحليم سيكسب القضية طلب مقابلته، ولكن تعالوا نقرأ بعض الأسرار التي تحكي قصة الصراع الذي دار بينهما حول أول فيلم لحليم.

فتح عبد الوهاب، المطرب الكبير الذي يتردد اسمه في الخافقين، النار على المطرب الناشئ عبد الحليم حافظ، وتدخل أولاد الحلال أكثر من مرة لإصلاح ما فسد بينهما، لكن عبد الوهاب ساءه أن يشق عبد الحليم عصا الطاعة عليه، وقرر أن (ينسفه)، ويجعل اسمه، الذي بدأ يتردد على ألسنة الناس نسيًا منسيًا، وكأنه لا وجود لمطرب ولد بهذا الاسم، لكن أصدقاء الطرفين استطاعوا، بعد جهد جهيد، أن ينجحوا في عقد اجتماع بين الموسيقار الكبير والمطرب الصاعد، وكان مع عبد الحليم لعض المحامين، أما عبد الحليم فقد جاء لوحده! كان يعرف أنه صاحب حق وصاحب حجة ومنطق! ولهذا لم يكن بحاجة لمن يتولى عنه الكلام.

قال عبد الوهاب موجهًا كلامه إلى الفتى الأسمر: أنت غلطان عبد الحليم، أنت لا تستطيع أن توقع أي عقد.

رد عليه عبد الحليم ببرود: ليه؟

قال عبد الوهاب: لأنك مرتبط معي!

فقال عبد الحليم: ولكنك لم تنفذ العقد؟

فرد عليه عبد الوهاب بحدة: (برضه أنت مرتبط)!

فأجابه المطرب الرقيق: وافرض ذلك، فماذا سيحدث؟

فرد عليه عبد الوهاب: سأقاضيك أمام المحاكم!

وهنا... انتفض الفتى الخجول الذي لا يعرف كيف يشاكس ويعاند، وقال: هل وصلت الحكاية إلى هذه الدرجة؟ إذن... فليكن، لن أخاف، بل سأذهب بنفسي إلى القضاء وأعلنها صريحة مدوية، وعلى العموم... أنا أتوسل إليك أن تفعل ذلك، أرجوك أن (تعملها)، فإن في وقوفي معك جنبًا إلى جنب في ساحة القضاء شهرة كبيرة لي، أتوق إليها!

ولم يكن عبد الوهاب ينتظر أن يسمع ما سمع من مطرب لا يزال في بداية الطريق، فابتسم، وقد لمس اتجاهًا مقصودًا لمعاكسته، فقال في لهجة تختلف عن لهجته السابقة: خلينا نتفاهم يا عبد الحليم!

لكن عبد الحليم ردَّ عليه بالقول: نتفاهم على إيه؟ أنت بصراحة تريد أن يقدم سواك على التجربة الأولى، لأنك تخاف أن تنتج لي فيلمًا، ويسقط الفيلم، فتخسر الفلوس التي صرفتها عليه.

فردّ الموسيقار: (فعلًا ده اللي مخوفني!).

فقال عبد الحليم: (عال... خلي غيرك يجرب أولًا، وبعدها تنفذ أنت فيلمك).

وبمنطق التاجر الخبير الذي يتحدث بلغة الأرقام، قال عبد الوهاب: وافرض أن فيلمك الأول كسب؟

أجاب عبد الحليم: طيب... اتفضل أنتجْ الفيلم الأول أنت، فأنا تحت تصرفك.

فقال عبد الوهاب: وافرض أن الفيلم الأول خسر؟

فرد عبد الحليم في ضيق: عال... بلاش تعمله!

وعلا الصراخ، وتوتر الموقف، وخلع عبد الوهاب نظارته أكثر من مرة، وثار عبد الحليم، وأعلن اليأس من التفاهم مع عبد الوهاب، لقد استعمل معه كل الطرق، ولكن بلا فائدة، وترك عبد الحليم الاجتماع، وصمم على خوض المعركة منفردًا، فلم يجد عبد الحليم إلا أن يضرب عقده مع عبد الوهاب عرض الحائط، وبعد ساعة كان الفتى الأسمر يقف أمام الكاميرا ليمثل فيلم (لحن الوفاء) أمام شادية، وإخراج إبراهيم عمارة، كان ذلك في نهايات عام ١٩٥٣، لكن عبد الوهاب أعطى عبد الحليم الموافقة على العمل في أفلام غيره، بشرط أن يكون تحت أمر شركة (صوت الفن) في أي وقت لتنفيذ العقد، وعرض الفيلم عام ١٩٥٥ وكان بداية الطريق لشهرة عبد الحليم، وقد استقبلته الجماهير بموجة من الحماس والإقبال.

عفيفة إسكندر... فلسفة غريبة عن التمثيل وعشقها للغناء!

على الرغم من أن المطربة الكبيرة الراحلة عفيفة إسكندر (١٩٢١ – ٢٠١٢)، نجمة الغناء في زمانها، إلا أنها في التمثيل لم تكن إلا ممثلة فاشلة!

فمثلما اشرأبت لها أعناق المعجبين، كانت عيون منتجي الأفلام السينمائية ترنو إليها، إلا أنها ما كانت على غير وئام معها، لأنها تجد نفسها في الغناء فقط، وتعطي كل مشاعرها وأحاسيسها للأغنية، مع أنها اشتركت في فيلمين سينمائيين في نهاية الأربعينيات، كان الأول «القاهرة بغداد»، الذي أخرجه المصري أحمد بدرخان، وفيلمها الثاني «ليلى في العراق» إخراج المصري أحمد كامل مرسي، وهو آخر عهد لها مع السينما، فقد فشلت في السينما، ونجحت في الغناء، والظريف أنها سعيدة بفشلها في السينما، وأؤكد أنها لا تحب السينما كمهنة.

لكن الأسرار وراء ذلك أكثر طرافة، حيث إن وجهة نظرها تعبر عن فلسفة خاصة بها، ظريفة، تنسف فكرة التمثيل تمامًا! فهي وإن ترَ (أن السينما مهنة متعبة جدًا) إلا أنها لا تعترف بأن تقوم بتجسيد دور الحبيبة أمام شخص لا تعرفه ليقوم بدور الحبيب، وترى فيها أمرًا غريبًا لا يمكنها أن ترتضيه، بل إنها تجد صعوبة في التأقلم على واقع قصة

الفلم، فهي تقول: (جابولي) أحد الأشخاص على أساس أنه البطل، ثم قالوا: تعالي يا عفيفة... حبيه! وتعال يا فلان... حبها! لم أكن أعرف عنه شيئًا، ولم يكن يعرف عني شيئًا، فكيف يمكن لشخص ما أن يحب شخصًا آخر، من دون أن تكون هناك بينهما علاقة أو معرفة سابقة؟)، لكنها عاشقة للغناء فقط، فإن فلسفتها عنه تختلف، بمعنى أن فلسفتها عن السينما لا تنطبق على الأغنيات التي غنتها، فهي تعترف أنها لا تغني إلا الأغاني التي تستحوذ عليها وتؤمن بها، فتضع قلبها وفكرها، وجميع قواها فيها، عندما تغنيها.

فؤاد سالم... كيف التقى ابنته (نغم) بعد فراق ٢٤ عامًا؟!

بين الفنان الراحل فؤاد سالم (١٩٤٥-٢٠١٣) وابنته الفنانة (نغم) علاقة تجسدت في ما غناه لها، وهو في عوالم الغربة، خاصة وهي كبرى أبنائه، فسمعنا منه شجنه وحنينه، وهو يزج اسمها في أغنية تراثية قديمة في أوائل غربته، فيخاطبها (بويه نغم يا بويه / الغربة طالت يا نغم يا بويه)، التي حفظها الناس، وشعروا بمقدار الألم الذي يعتمل في نفسه لفراق صغيرته التي تعيش في بغداد مع والدتها الفنانة الراحلة مي جمال.

أو تلك الأغنية الصريحة التي يبث ابنته فيها مشاعره وعذاباته (مبعد تراني يا نغم ويلي بويه)، وقوله: (غصبن علي تدرين / مبعد تراني يا البنت، مبعد تراني يا نغم ويلي بويه / ويلي يا ماخذة القلب مني ويل ويلي / والله ويمر ذكراج صبح ومسية يا نغم / ويلي شكثر حسبات يطرن عليه يا نغم ويلي بويه / يا بنيتي لا تعتبين / دهري رماني يا نغم ويلي ويلي / دمي ودموع العين ساجيت عودج يا نغم ويلي بويه / وشيب الطلع بالراس كله علمودج يا نغم ويلي بويه).

وهذه العلاقة بينهما قام عليها فراق امتد إلى أكثر من ٢٤ سنة، نغم تعيش مستقرة في بغداد، بينما فؤاد سالم

يعيش مشتتًا في المنافي، لكن هذا الفراق القسري المرير تكلل بلقاء في البصرة عام ٢٠٠٣، كان اللقاء تراجيديًا انتهى برفض فؤاد سالم أن يلبي طلب ابنته بغناء أغنية (ردي... ردي)!

في لقاء جمعني، حينها، بالفنانة نغم، حاولت أن أعرف منها أسرار اللقاء مع أبيها بعد سنوات الفراق، فأكدت أنها ذهبت إلى البصرة، وهي بين مصدقة ومكذبة، وحين وصلت إلى بيت عمها كان قلبها ينبض بشدة، وصلت أول الليل، وما إن دخلت حتى وجدت رجلًا يرتدي (دشداشة)، ويضع على رأسه (عقالًا)، ظهر مع الذين ظهروا لاستقبالها، وسرعان ما وقفت متسمرة في مكانها وجهًا لوجه أمامه، وقد عرفها وعرفته، وقبل أن تتكلم أو تفك عقدة لسانها، جاءتها منه كلمة (بابا)، لكن ردة فعلها على هذه الكلمة كانت ضحكة، ومن ثم أغمي عليها! لم تعرف أمد الإغماءة، لكنها حينما استفاقت وجدت نفسها في حالة هستيرية، وهي متعلقة بملابسه وحاضنة له بقوة، وتصرخ بكلمات لا تعيها، وحينما استفاقت، وكان الوقت بعد منتصف الليل، وجدته يبكي، فلم تفعل سوى أن تقبل أصابعه إصبعًا إصبعًا، فيما كان كل من في الدار تلك يبكي على تلك المشاهد التراجيدية بين الأب وابنته البكر! وتواصل اللقاء بينهما خمسة أيام بلياليها.

الطريف في اللقاء الذي كان ذروة في العاطفة، أنها طلبت منه عدة طلبات، وسألته عدة أسئلة، منها: أن يضربها! وهو ما أثار استغراب فؤاد سالم، فضحك لهذا الطلب،

وحين ألحَّت عليه نغم مرَّر يده على خدها، وحتى أنا حين استغربت الطلب هذا، قالت أنها تريد أن تعرف قسوته، وقد كان يغمرها بالحنان حتى في حديثهما عبر الهاتف، وكما طلبت منه أن يغني لها أغنية (ردي... ردي) لغاية في نفسها، لكنه رفض أن يغنها لها مشاكسة لها، كما قالت، أو ربما لأنها ستشعل في نفسه ذكريات قديمة، لا سيما أن كلمات الأغنية مفعمة بالمشاعر.

لكن نغم وجدت الكثير من الأسئلة تتفجر من قلبها، أسئلة مخبأة من سنوات، فأجاب عنها إلا واحدًا كاد ينفجر وسط الحضور، سألته إياه بعينيها، فكان جوابه بعينيه أيضًا، تحاورا بالعيون، وقد فهم فؤاد سالم السؤال مثلما فهمت نغم منه الجواب، كان السؤال شخصيًا جدًا، لذلك لم تذكره لي، لكن نغم أوضحت لي أن السؤال موجود في أغنية (لا تجيبنه)! التي كتب كلماتها الراحل عريان السيد خلف (١٩٤٠ – ٢٠١٨) ويقول مطلعها: (لا تجينه... لا تجينه... جان كَلت أبوجه الأبيض غير معشركم لكَينه جينه مشتاكَين... وبلهفة... أو تسد بابك علينه)!

لماذا لم تغنِ فيروز ألحان السنباطي؟

في الكثير من المناسبات... وعبر سنوات طويلة، يثير الفنان أحمد السنباطي ابن الموسيقار الكبير رياض السنباطي (١٩٠٦ – ١٩٨١) قضية الألحان التي لحنها والده للمطربة الكبيرة فيروز، ولم تغنها، ويقول:

(فيروز... تسجن ألحان أبي، وتتهرب) ويضيف موضحًا: تتلخص القصة في أن السنباطي لحن لفيروز ثلاث قصائد قام بتلحينها بناء على اتفاق، إذ ذهب إلى فيروز في لبنان، والجميع يعلم أن السنباطي لا ينتقل إلى أحد، المهم... جلس معها جلسات مطولة وأجريا (بروفات) ثلاثة تسجيلات هدية غير مدفوعة الأجر بصوت رياض السنباطي على العود، وأنا أمتلك تسجيلًا نادرًا لا يوجد عند السيدة فيروز نفسها بصوت فيروز والسنباطي، وهو يقوم بتحفيظها لحن قصيدة (بيني وبينك خمرة وأغاني)، وكان التسجيل كما لو كان بالاستوديو، وهذا الشريط عندي هو أكبر دليل على أن الأعمال بدأت تأخذ حيز التنفيذ بالفعل، وتجمد العمل، ولم ينفذ حتى الآن، والألحان موجودة لدى فيروز، ولا تبغي الإفراج عنها حتى الآن، وأنا أجري الاتصال بفيروز حتى نقوم بتنفيذ الألحان الثلاثة، ولكن دون جدوى، فكلما حاولت الاتصال لا أجد سوى (التهرب والمراوغة والإنكار). والسؤال هنا: لماذا كل

هذا؟ ويضيف أحمد السنباطي: (وإذا كانت فيروز ستغني من ألحان رياض السنباطي، فمن سيضيف للآخر في هذه الحالة؟ وإجابة السؤال الأول لدى فيروز، وإجابة السؤال الثاني بالطبع سيضيف إليها الكثير).

إلى هنا... انتهى كلام الفنان أحمد السنباطي، ولكن دعونا نعود إلى الوراء، إلى ذلك الوقت الذي بدأ فيه الموسيقار رياض السنباطي بتلحين الأغاني لفيروز، إذ عقد السنباطي عام ١٩٨٠ مؤتمرًا صحفيًا في فندق (بريستول) ببيروت، وقال فيه بالحرف الواحد: (اللحن الذي وضعته للسيدة فيروز، يعتبر مرحلة جديدة للمطربة مع احترامي وتقديري للأخوين رحباني والجمال (اللي) عملاه، وأعجبت به الجماهير كلها (مش أنا بس) مرحلة جديدة؛ لأن عند فيروز مقامات في صوتها لم تطرق سمعك أو سمع الجمهور بعد، طاقة صوتية، وأنا أبرزتها في اللحن، طلعت هذه الطاقات منها... بعدما قست صوتها بدقة)!

وطبعًا هذا الكلام وصل إلى فيروز التي كانت يومها على خلاف مع الرحابنة الذين منهم زوجها عاصي الرحباني، والذين بدأت معهم منذ عام ١٩٥٦، والجميع يعلم فضل الرحابنة على فيروز، هنا لا بد أن تتوقف فيروز طويلًا أمام الكلام الذي سمعته، فوجدت أنه (ينسف) كل ما فعله الرحابنة، على الرغم من الخلاف الحاد بينها وبينهم، هنا لا بد أن تكون وفية، وأن تكون مخلصة، ولا تسيء إلى تاريخ الرحابنة، إذ يقول السنباطي: (فيها طاقة صوتية وأنا أبرزتها في اللحن، طلعت هذه الطاقات منها بعدما قست

صوتها بدقة)، وكأنه يقول: (أن الرحابنة بكل ما عملوه لفيروز، لم يطلعوا الطاقات الصوتية الكامنة فيها، ولم يقيسوا صوتها بدقة)، فيروز وجدت أنها ستكون ناكرة للجميل الذي منحه لها الرحابنة إذا غنت للسنباطي، فآثرت الصمت، ولم تقل شيئًا الا أن صمتها فسره أهل الغناء وأشاروا إليه، إنها لم تغنِّ للسنباطي؛ حتى لا تسيء إلى الرحابنة!

محمد القبانجي... يغني لرئيس عصابة!

من الأسرار الطريفة التي تكتنفها حياة مطرب العراق الأول محمد القبانجي (١٩٠٤- ١٩٨٩)، أنه وجد نفسه أمام رئيس عصابة مدجج بالسلاح، لاحقته الشرطة بعد تراشق بالرصاص مع عناصرها، فدخل البيت الذي يقيم فيه في زيارته لمدينة البصرة، ومن ثم لا بد أن يغني له لوحده! غنى له: (إبهواك انجسم كَلبي إرباع وأنصاف، من أشوفك أندهش وأنذهل وأنصاف)! وكأنه بها يخاطبه.

والحكاية الظريفة تتمثل أن القبانجي أقام حفلًا غنائيًا في البصرة خلال عقد الأربعينيات، وقد كانت شهرة القبانجي سبقته، وبعد الانتهاء منه عاد ومعه خادمه الخاص، اسمه (صويلح)، وله أهل في البصرة، وبعد ذلك، وصلا إلى المكان الذي يقيمان فيه، استأذن صويلح من القبانجي في الذهاب لمدة ساعتين لزيارة أهله، وأوصاه القبانجي أن لا يتأخر، ويدعه وحده في هذا البيت، فأذن له وذهب، كان حينها الوقت بعد المغرب بساعتين.

وبعد وقت قصير من ذهاب صويلح حتى صار القبانجي يسمع صوت إطلاقات نارية قريبة جدًا منه، ومن ثم هدأ كل شيء، واطمأن القبانجي، وراح يتمشى على سطح الدار، فشاهد شخصًا قاعدًا في ما يسمى بـ (الطرار)، وهو المكان المظلل الجانبي في البيت، كان الشخص لابسًا العقال،

فصاح عليه القبانجي: (صويلح)، لكنه لم يرد، فتسرب الخوف إلى نفس القبانجي الذي اعتقد أن هذا الشخص مبعوثًا إليه لأمر ما، واحتار القبانجي في أمره، وراودته فكرة أن يذهب إلى الجيران من المكان الذي هو فيه (السطح)، لكنه تراجع عنها خشية أن يحسبه الجيران لصًا فيضربونه، فتمالك نفسه.

ثم صاح مرة ثانية (صويلح!)، فأجابه هذا الشخص من (الطرار): أنا خادمك... لكنني (مو صويلح)، فقال له القبانجي: إذن، من أنت؟ فطلب منه الشخص أن يأتي إليه، لكن القبانجي طلب منه الأمان، فرد عليه الشخص بكلمة: (روحي فداك!) وصعد له الشخص إلى السطح، وفوجئ القبانجي، وهو يرى أمامه شخصًا مدججًا بالسلاح ورائحة البارود تفوح منه، قال له: من أنت؟ قال: أنا شيروان... ثم أردف: ألم تسمع الرصاص الذي كنت أتبادله مع الشرطة؟! أجابه القبانجي بـ (نعم)، ولكنه سأله (شلون خشيت؟) فشرح له أنه رأى الباب مشرعًا، فدخل وأغلقه خلفه، وكان (صويلح) قد ترك الباب مفتوحًا؛ كي لا يزعج القبانجي حين عودته من زيارة أهله.

والأطرف أن القبانجي يعرف من شيروان هذا، إنه (رئيس عصابة!)، ولم يجد القبانجي بدًا إلا أن يسأل رئيس العصابة هذا عن الذي يريده، فقال له: سمعتك في الحفل، وأنا من المعجبين بك! ومن ثم طلب من القبانجي أن يغني له! فغنى له: (يا ظالم النفس لم تنصف أخا شغفٍ / عليك قد بات محرومًا من الوسن، لو كان عندك إنصافٌ ومرحمةٌ /

ما خنت صبًا فلم يغدر ولم يَخُـنْ)، (وأنصاف إبهواك انجسم كَلبي إرباع وأنصاف، من أشوفك أندهش وأنذهل وأنصاف، وأنصاف لون عندك مروة وعدل وإنصاف، ما چان إتخون العهد بيَّه).

وحين رجع (صويلح)، وشاهد هذا الإنسان الغريب، على حد وصف القبانجي له، خاف واندهش واختلى بالقبانجي، وقال له: (إنني خائف من هذا... إنه مرعب) لكنه طمأنه مؤكدًا له أنه ضيفه، ومن المعجبين له.

من الظريف أن رئيس العصابة هذا بقي ثلاث ساعات مع مطرب العراق الأول محمد القبانجي، وأعطاه بعض المال قائلًا له بأن أمه ستمر عليه يوم غد، فأعطه لها، وتم ذلك بالفعل.

محمد نوشي... مُلحن أول أغنية ريفية

حين أتأمل المشهد الغنائي العراقي، وأقف عند الملحن محمد نوشي (١٩٣٥ - ٢٠٠٤) أجد أنه لم يأخذ حقه من التكريم والحفاوة والاعتراف بالريادة المميزة له، بل أجده أحيانًا من المظلومين إعلاميًا، تمر ألحانه عبر الأثير، وتلتقطها آذاننا بإعجاب، من دون أن يذكر اسمه إزاءها، أو يجري اهتمام بما قدمه، ولا أعرف السر في ذلك، على الرغم من أن ألحانه غناها أغلب المطربين والمطربات.

ومحمد نوشي... على الرغم من أنه بغدادي الولادة (في حي الكرادة) إلا أنه نجح في الغناء الريفي، وترك بصماته الجميلة فيه، ويمكن هنا كشف أحد أسراره، وهو أنه أول ملحن محترف في مجال تلحين الأغنية الريفية، وأنه صاحب أول لحن قائم على البناء اللحني الحقيقي (استخدام النوتة)، أو كما قال لي حين التقيته في العام ٢٠٠١ أنها (أول هندسة شكلية للغناء الريفي).

وقد أسرني، رحمه الله، أنه في العام ١٩٥٦ قدم أول أغنية ريفية على هذا المستوى من الألحان، وأعطاها إلى المطربة زهور حسين (١٩١٨-١٩٦٤)، التي التقى بها سنة ١٩٥٣، وهي أول مطربة يلتقيها في مسيرته الفنية، كتب كلمات الأغنية الشاعر سيف الدين ولائي (١٩١٥ - ١٩٨٤) وعنوانها (ها ها بيش احلفت)، وحيث يؤكد محمد نوشي

أن المطربين الريفيين قبل هذه الأغنية كانوا يقدمون الأغاني الفلكلورية أو يلحنونها على السجية.

لكن محمد نوشي أوضح لي أن بسبب هذه الأغنية حدثت مشكلة تمثلت في كلماتها التي فيها رفض للعهد الملكي، وخاصة في جملة معينة من الكلام، وقد تم الانتباه إليها من قبل القائمين على الإذاعة خلال أداء (البروفة) عليها، فقبل البث المباشر للأغنية اعترضوا على الكلام الذي فيها، فطلبوا تغيير الكلمات من أجل السماح بغنائها وبثها، يذكر محمد نوشي: (أن الفنان الموسيقار غانم حداد كان رئيس الفرقة الموسيقية، وقال لي: هذه أول أغنية ريفية، فصلحوا الكلام وتعالوا)، وبالفعل تم تغيير الكلمات المعترض عليها، ومن ثم غنتها زهور حسين على الهواء مباشرة.

هذه الأغنية... كما يقول محمد نوشي، غناها أكثر من مطرب فيما بعد مثل مجموعة الريف، كما غناها المطرب الريفي عبد محمد، وكان محمد نوشي يعتقد أنها موجودة في مكتبة الإذاعة، كما أخبرني، حيث أهدى شريط كاسيت بصوت المطربة زهور حسين فيه هذه الأغنية من ضمن الأغاني، ولكن للأسف هي غير موجودة، كما يبدو، لا بصوت زهور، ولا بأصوات الآخرين، فقد بحثت عنها وسألت، ولم أجد لها أثرًا.

لماذا منع (عُدي) المطربين الكبار من الغناء... بعد أن اعتقلهم وطبان؟!

كان لانطلاق تليفزيون الشباب الذي كان يديره (عُدي) النجل الأكبر لرئيس النظام السابق صدام حسين، في تموز من العام ١٩٩٣ السبب الأكبر في انطلاق الموجة الغنائية التي هبطت بالذوق إلى مستوى غير مسبوق من الإسفاف، وعملت على تدمير الأغنية العراقية، فقد تم فتح التليفزيون أبوابه جميعها لكل من يريد أن يغني، فكانت تلك الموجة الصاخبة المرعبة التي كانت إحدى أهم تبعاتها منع المطربين الكبار من الغناء، ومنع بث أغانيهم من التليفزيون، وبقدر ما كان ذلك المنع مؤلمًا وغريبًا، إلا أن الموجة التي طغت على كل ساعات البث والانشغال بها جعل أغلب الناس لا ينتبهون إلى غياب الكبار الذين اكتفوا بتنفيذ الأوامر!

ولطالما... ظلت قضية المطربين العراقيين الكبار الذين منعت أغانيهم من البث من الأسرار التي لا يعرفها الكثيرون، لأنها أحيطت بالغموض والسرية والخوف، إذ لا يمكن لأحد ممن يعرفون الأسباب البوح بها علنًا، لأنها قطعًا ستؤدي إلى (قطع) رقبة من باح بالسر، ومعناه كشف طبع وجهل وعنجهية (الأستاذ)، لكن الناس، وقد علموا بذلك، كانت على يقين أن عدي هو الذي كان

وراء منعها، وخاصة أنه هو الذي اشترط أن يستهل المغني مشواره الفني بأغنية عن والده (صدام)، وبعد ذلك ليغني ما يشاء.

وحسب أقوال النقاد والملحنين والمطربين الكبار التي كانت تقال (همسا) في المجالس الخاصة جدًا: (أن (عدي) يفعل ذلك من أجل إفساد الذوق العام، وخدش الحياء، وتدمير الأغنية العراقية)، وقد كان يلهو بصبيانيته وحماقاته، إذ لم تعد هناك رقابة، لا على كلمات الأغاني، ولا على الألحان، ولا على الأداء للمغنين، وتبخرت كل اللجان التي كانت تضم نخبة من أهل الموسيقى والغناء، فصار من (حق) أي شخص أن يغني، ويأتي بأغنيته ليبثها له، وإن كانت في أسفل درجات السوء مقابل مبلغ مالي محدد، وحين يُسأل المطربون الكبار عن سبب الغياب يحاولون التغاضي عن الجواب، والذهاب إلى جواب جاهز، وهو (أن الحصار هو السبب أو ارتفاع أسعار التسجيل والتصوير)، ولم يكن ذلك حقيقة ١٠٠٪ طبعًا، وهو ما لم يقنع أحدًا؛ لأن هؤلاء المطربين صاروا بعيدين عن الناس والحفلات التي تدرُّ عليهم بعض المال الذي يساعدهم في في تسجيل الأغنيات وتصويرها.

لكن المطرب سعدون جابر، وفي لقاء جمعني به في شهر حزيران من العام ٢٠٠١، وبعد إلحاح كبير مني قال: (نحن ممنوعون من الغناء) وإزاء علامة الاستغراب التي أبديتها له عاد ليقول: (نحن ممنوعون من قبل (عدي)، وأن العديد من المطربين وأهل الغناء يعرفون ذلك)، وأضاف:

(أن مطربي السبعينيات معتم عليهم)، ولم يبح سعدون بأكثر من ذلك.

لكن لقاء لي مع المطرب الكبير حميد منصور في شهر آذار من العام ٢٠٠٢، باح لي خلاله بالسر، ودفع عن نفسه تهمة الغياب الطوعي والانحسار وشيخوخة الصوت، كان اللقاء على الرصيف، خارج وزارة الثقافة والإعلام السابقة، كنت تواقًا إلى أن أعرف سبب الغياب، فأجابني قائلًا: (بعد تأسيس تليفزيون الشباب، تم إبلاغنا، نحن المطربون من الأجيال السابقة لمقابلة (وطبان إبراهيم)، الذي كان حينها وزيرًا للداخلية، وجددت لنا ساعة ويوم اللقاء، وذهبنا أنا وياس خضر وسعدون جابر وفاضل عواد ورياض أحمد وحسين نعمة وآخرون إلى المكان المحدد (غربي بغداد) وأنتظرنا ساعات طويلة ولكنه لم يأت، فقيل لنا أن الموعد تأجل إلى اليوم نفسه، والساعة ذاتها من الأسبوع المقبل، وذهبنا في الموعد المحدد في المكان نفسه، وانتظرنا ساعات طويلة، ولكنه لم يأتِ أيضًا، وقيل لنا أن الموعد قد تأجل أيضًا إلى الأسبوع المقبل، وبالموعد والمكان نفسيهما، لكننا... لم نذهب !، ففوجئنا بمن يلقي القبض علينا، ومن ثم أودعنا التوقيف، وإلى هذا المكان... جاء عدي، وبعد كلام قال: أنتم ممنوعون من الغناء! ولا أريد أن أسمع أن أحدًا منكم يغني في حفل، أو ما شابه ذلك، ومنذ ذلك الوقت صدر أمر المنع، فلم تعرض أغانينا على شاشة التليفزيون، ولم نقم بأية حفلة، و لم نسجل أغنية للتليفزيون).

على إثر هذا القرار تفرق المطربون الكبار، فاضل عواد ترك الغناء، وهاجر إلى ليبيا ليمارس التدريس هناك، وعاد حسين نعمة إلى بلدته (الشطرة) فيما اتجه سعدون جابر إلى خارج العراق لتقديم أغنياته، أما رياض أحمد، فقد وجد نفسه مغلوبًا على أمره، ثم قتله الحزن، وتوقف الآخرون حتى أجل غير مسمى!

(يا جلمة أنت)... الأغنية التي رفضها سعدون جابر لولا كوكب حمزة!

تعد أغنية (يا جلمة أنت) للمطرب سعدون جابر، واحدة من الأغاني الرائعة والمميزة التي أثارت انتباهي بكلماتها وألحانها فضلًا عن الأداء المميز، وطالما كنت أتهجى حروف كلماتها وكلماتها؛ لكي أمسك بخيوطها التي تحاول الطيران بعيدًا، كنت أجد أن كلمات الأغنية مغرقة باللهجة الصعبة التي لا يمكن تلفظها بسهولة، كما أن اللحن ليس سهلًا، فهو ليس ما تعودناه، لكن ذياب خليل الملحن الواعد استطاع أن يمنح الكلمات السلاسة، وللأمانة... فضلًا عن المساعدة التي أبداها صديقه وزميله الملحن نجم مشاري الذي كانت له لمسة في اللحن، ففي جلسة في بيت الملحن نجم مشاري، وقد كان ذياب يستعرض ما لحنه لهذه الأغنية، أخذ نجم مشاري العود من ذياب، وقام بتلحين الكوبليه الأخير.

كانت الأغنية تشكل عندي لغزًا غريبًا، حتى إذا ما التقيت سنة ٢٠٠٢ بالشاعر الغنائي جبار النجدي، صاحب الأغنية، حتى وجدتني أشعر بالانشراح، وأبتسم فرحًا، وأنا أقول: (وجدته الضاع مني).

يرجع تاريخ الأغنية إلى العام ١٩٧٠، وحكايتها تتمثل في مصادفة لطيفة، يقول جبار النجدي: في العام ١٩٧٠، كان

عمري ١٧ سنة، وكنت أعمل في استعلامات تليفزيون البصرة، وكنت أكتب الشعر الغنائي، لكنني لم أكن قد تعرفت على أي ملحن، وذات ليلة طلعت إلى خارج البناية، فوجدت الجنود من أفراد الحرس المكلف بحماية البناية غير موجودين، فسألت واحدًا منهم بقي في المكان، فأجاب: هناك واحد من الجنود عنده (عود)، ويعزف لهم في إحدى الغرف، وهم مستأنسون به، فأتيت إلى الغرفة وفعلًا... وجدت أحد الجنود يحضن العود ويعزف للجنود، وبعد أن انتهى سألته: من أنت؟ فقال: أنا مطرب وملحن، اسمي نجم مشاري، وقال إن صديقه الملحن ذياب خليل، وقال أيضًا: (تعال... أعرفك عليه)، فرحبت بالفكرة، وذهبنا إلى مقهى (الشناشيل) في البصرة، فوجدنا الملحن ذياب خليل، فتعرفت عليه، وهناك قال: أنا لم ألحن سوى أغنية واحدة، لم أقتنع بها للشاعر نائل الشمري صاحب قصيدة (زغيرة وما تعرف تحب)، ثم قال لي ذياب: اكتب لي أغنية، وبعد أيام كتبت المذهب الذي هو (يا جلمة أنت... وعلى شفافي أضم حرفك / يا في أنت... الشمس رضيتها تزفك)، وأتيت به إليه، فلحنه ذياب، وأسمعني إياه، ونحن نمشي في الشارع، وبلا عود! ثم قال لي أكمله... وأكملت نص الأغنية وأعطيته له، وكانت الكلمات الأخرى هي:

(ضميتك عذاب الليل من يبعد عليه صبحه...
وحمليتك وجع مصيوب ريحة عشك يم جرحه...
حدرتك ادموع العيد من تختنكك بالفرحة...
ضميت بليل عيون لا تحلم ولا تصحه

وضكت تالي بدفو الكطرة طعم جرحك...)

* * *

(خلكي أوياك حد الشاف بس باجر بكه بعمره...
أوصبري أوياك حد الآخ، يمجمل الألم حسرة...
يا فيض أنت... بحضن كاعي لكه العشرة...
ويمد أنت بوسط روحي شمر جزرة...
وكلك شوف بشفافي شكبر حرفك...)

وأضاف النجدي: وسرعان ما قام ذياب بإكمال اللحن، ومن ثم اتصل بسعدون جابر، وأخبره أن هناك لحنًا جميلًا، وكان سعدون قد غنى أغنيتين فقط هما (أفيش) و(يا طيور الطايرة)، فسمع سعدون الأغنية، فسجلها للإذاعة بعد أن تم اختبار ذياب خليل كملحن من قبل لجنة تضم عمالقة الموسيقى آنذاك، وهم: طارق حسون فريد، باسم حنا بطرس، أحمد الخليل، خضر إلياس، محمد جواد أموري بالإضافة إلى عازف كمان، وكان الاختبار صعبًا، بعد ذلك فحصوا لحن الأغنية، فوافقوا على تسجيله في استديو الموسيقى القديم، بعدها سجلت الأغنية للتليفزيون بالأبيض والأسود.

واشتهرت الأغنية.

أما الملحن نجم مشاري فيقول: كنا نجلس دائمًا في كازينو الشناشيل، فنانون وأدباء، فقلت للجماعة، ومنهم ذياب، بعد قليل سيأتي إلينا شاعر شاب، لكنه كبير بشعره، ويكتب صورًا شعرية رائعة، وقد تم التعارف بيننا قبل

يوم أو يومين في تليفزيون البصرة، أنا كنت جندي حراسة بباب استعلامات تليفزيون البصرة، وكان الأخ جبار موظف في الاستعلامات.

وأضاف: وجاء الأخ جبار، وتعارف مع الجميع، وأسمعنا جبار بعض القصائد الغنائية، فتم اختيار كلمات الأغنية الرائعة والمفعمة بالصور الشعرية العميقة والجميلة، كما أعطاه كلمات (تيهني تيه الحمام) التي لحنها ذياب، وسجلتها المطربة غادة سالم شقيقة المطربة لميعة توفيق.

وتابع: ومن ثم... تم التعارف بين ذياب (رحمة الله عليه) وسعدون بواسطة الملحن الكبير كوكب حمزة وبحضوري.

وأوضح: كان حينها الملحن كوكب حمزة مشرفًا فنيًا في جامعة البصرة، وذياب خليل هو أحد تلاميذه الذين يحبهم كثيرًا، وعندما سمع اللحن اختار له سعدون جابر الذي رفض في بداية الأمر بحجة أن اللحن بصراوي، وسعدون كان يغني أقرب إلى الريفي أو البغدادي، لكن كوكب أصر على أن يغنيها سعدون، فلم يجد سعدون إلا أن يقبلها ويغنيها.

وتابع: أذكر أننا سافرنا معا أنا وكوكب وذياب بالقطار إلى بغداد، كان سعدون بانتظارنا بالمحطة، وأتذكر أن الجو كان باردًا جدًا، وأن كوكب هو من أدخل ذياب على لجنة فحص الأصوات والألحان، فاختبر ذياب كملحن ونجح بالاختبار، ومن ثم سجلت الأغنية، وقد نوَّتَها له الموسيقي كمال السيد، وأطلقت من الإذاعة، وكان نجاحها مشهودًا.

نجاة الصغيرة... والخوف من الوسواس!

اسمها نجاة حسني، ولدت في الحادي عشر من آب عام ١٩٤١، اشتهرت باسم نجاة الصغيرة، لأنها كانت صغيرة عندما بدأت الغناء، ولأن مطربة معروفة اسمها (نجاة) كانت تغني في ذلك الوقت، من أسرار صاحبة (صوت الحرير) الناعم الدافئ، تعالوا نقرأ شيئًا:

عاشت نجاة الصغيرة بائسة، وتحملت مسؤولية الإنفاق على أسرتها منذ أن كانت في الخامسة من عمرها، عندما كان والدها يصطحبها للغناء في الأفراح بصوتها الجميل محققًا من ورائها أرباحًا كثيرة، أعانته على تربية نجاة وأشقائها الثمانية، وكان والدها يسقيها (الخل)، ويحرمها من تناول الطعام بكميات كافية حتى تظل نحيلة الجسد لتستعطف كل من يسمع صوتها.

وعندما كبرت نجاة، وأصبحت نجمة ظلت متأثرة بما تعرضت له في الطفولة، فأصبحت منعزلة، أنطوائية، تحب الهدوء وتكره الاجتماعيات، وكانت لا ترحب بأية زيارة بغير موعد، وتنظر بنفسها من (العين السحرية) الموجودة في باب شقتها، وإذا وجدت شخصًا لا ترغب في لقائه لا تفتح الباب، كما أنها ترد على التليفونات بنفسها، ولكن تنكر وجودها باستمرار. ويقال في وصفها من باب المبالغة: (أنها لا تفتح نافذة في شقتها) حتى لا يراها أحد، لأنها لا تحب أن تمتد إليها عيون الآخرين!

تلك السرية التي فرضتها نجاة على نفسها دائمًا امتدت إلى أعمالها الفنية التي كانت لا تتحدث عنها مع أقرب المقربين إليها، إلا بعد اكتمالها، لأنها كانت تعدل في اللحن أو الأداء، ربما في اللحظات الأخيرة قبل الغناء، كما كانت تحب أن تسمع أولًا بعد الانتهاء من تسجيل الأغاني أكثر من مرة قبل أن يسمعها الآخرون، وإذا حدث ما يزعجها في أية حفلة غنائية تقوم بإحيائها تنسحب فورًا، وهذا ما حدث بالفعل عندما دعتها جمعية كتاب ونقاد السينما بالإسكندرية لإحياء إحدى الحفلات، فغنت (الوصلة) الأولى، لكن نظام (المايكروفونات) لم يعجبها، وكذلك طريقة التصوير، فظنت أن هناك مؤامرة عليها، فانسحبت من الحفل، ولم تكمله، وأغضبت مخرج الحفل آنذاك نور الدمرداش والمسؤولين بالجمعية.

فيما كانت الوسوسة الفنية تجبر نجاة على محاسبة نفسها ألف مرة قبل أن يحاسبها الناس مرة واحدة، لأنها كانت تبحث باستمرار عن الصدق الفني، وتقول: (الجمهور هو الرصيد العظيم الذي أعيش به وله، ومن شدة حرصي على الإتقان والإجادة في أعمالي الفنية يفهم البعض ذلك خطأ ونوعًا من الوسوسة)، وكان الوسواس القهري يسيطر على نجاة في تعاملاتها مع الآخرين خاصة الصحفيين، لذلك؛ كانت ترفض باستمرار اللقاءات الصحفية والتليفزيونية؛ لأنها كانت (موسوسة) من أن يستدرجها الصحفي أو مقدم البرنامج التليفزيوني لتقول تصريحات ربما تغضب منها الآخرين مما كان يدفعها إلى الصمت التام.

الناصرية...
الأغنية التي صارت حدث الموسم في مصر

لم يكن الموسيقار سالم حسين (١٩٢٣ - ٢٠١٥) ليكتب ويلحن أغنية (الناصرية) إلا حنينًا وحُبًا وشوقًا إلى مدينته الأم التي تركها منذ سنوات طوال مرغمًا طبقًا للظروف الحياتية المتناقضة التي عاشها هناك، وراح يجول في عدد من البلدان عازفًا على آلة القانون وملحنًا.

واستطاع بعد أن استقر في العاصمة المصرية (القاهرة) في العام ١٩٥٩ التي زارها تلبية لدعوة من المطرب الكبير فريد الأطرش (١٩١٠ - ١٩٧٤)، أن يقيم العديد من علاقات الصداقة والاحترام مع الكثير من الفنانين المصريين والعرب هناك، وراح يشاركهم جلساتهم ومجالسهم، لا سيما مجلس أم كلثوم، ويشترك معهم في حواراتهم.

وكان ثمرة البعاد عن العراق ومدينته ذلك الشوق الذي كتبه على شكل كلمات بسيطة عن (الناصرية)، كتبها ثم قام بتلحينها لتعبِّر عن خلجاته، ويؤكد فيها موهبته التلحينية، ويبدو أن سالم حسين باح بالأغنية لأصدقائه في جلسة ما، وسرعان ما كانت كلمة (الناصرية) هي الأكثر إثارة في الموضوع، فتلقفتها الأسماع لوحدها، وبثتها الألسن على أنها تتغنى بالرئيس المصري جمال عبد الناصر (١٩١٨ - ١٩٧٠) حيث إن لكلمة الناصرية وقعها المميز في

الأسماع حينذلك، وما إن تناهت كلمة الكلمة والأغنية إلى سمع الفنان إسماعيل شبانة (١٩١٩ – ١٩٨٥) وهو الشقيق الأكبر للمطرب عبد الحليم حافظ (١٩٢٩ – ١٩٧٧)، وكان حينها عميد معهد الموسيقى العربية ومعتزلًا للغناء، حتى بادر إلى طلب الأغنية من سالم حسين من أجل تسجيلها لإذاعة صوت العرب، وما كان على سالم حسين إلا أن يلبي طلب إسماعيل الذي سارع إلى تسجيل الأغنية، ومن ثم بثت عبر الإذاعة، فكانت أغنية الموسم.

أخبرني الراحل سالم حسين أن إسماعيل شبانة سعى إلى الأغنية لاعتقاده أن لها علاقة بالرئيس جمال عبد الناصر، وفي الحقيقة، هي لا علاقة لها بعبد الناصر، وإنما هي عن مدينة الناصرية.

ومن طريف ما ذكره له الموسيقار سليم حسين أن المطرب عبد الحليم حافظ طلب منه أن يسجل الأغنية بصوته لشركة أسطوانات (كايروفون)، لكن سالم قال له: (إنها لأخيك... وعليك أن تأخذ موافقته لتغنيها)، وأضاف سالم عن عبد الحليم: (لم أتابع وقتها لماذا لم يغنها).

تقول كلمات الأغنية:

(ويلاه... ويل... ويلاه
يمه هنا. يمه هنا... يمنه يمنه
ودوني... ودوني... لحبيب القلب ودوني
دلوني عليه وين صار دلوني
بالناصرية يا يمه بالناصرية

كالوا حبيب الروح بالناصرية
حلوة وزهية يا يمه... حلوة وزهية
والشطرة والغراف... حلوة وزهية
آه... شوقوا شلون حلوة عيونه
عيونه اثنينهن يفدونه
عيني يبو الماطوريللا أخذونه
يمه هنا. يمه هنا... يمنه يمنه
ودوني... ودوني... لحبيب القلب ودوني
دلوني عليه وين صار دلوني
بالناصرية يا يمه بالناصرية
وعلى الفرات ارتاح للناصرية
من عذب ميه يا يمه من عذب ميه
اروي غليل الروح من عذب ميه)

ويبدو أن الموسيقار سالم حسين كان في حالتي استغراب وعدم استغراب، الاستغراب كون كل ما في كلمات الأغنية يتحدث عن مدينة الناصرية، وفيها العديد من الكلمات التي لا يفهمها المواطن المصري العادي، وعدم الاستغراب يتمثل في أن البعض ربما اعتقد أن للرئيس عبد الناصر علاقة بتسمية المدينة مثلًا، أو أن الأغنية فعلًا تتغنى به.

وهكذا دوت الأغنية هناك، ونالت حظًا مميزًا من الانتشار.

أشهر مطرب ريفي عراقي يعلن اعتزاله

يُعد المطرب الريفي العراقي فرج وهاب آخر حلقة في سلسلة المطربين الريفيين المميزين في العراق، وقد اكتسب شهرة واسعة منذ أن ظهر في ثمانينيات القرن الماضي، وسافر بأغنياته وصوته إلى العديد من الدول العربية والأجنبية، له جمهوره الذي يضاهي أي مطرب عربي آخر، لكنه غاب عن المشهد الغنائي في السنوات الأخيرة، ولم يعد له حضور، لا في الداخل ولا في الخارج.

لكنني التقيته في مهرجان للأغنية الريفية الذي نظمته دائرة الفنون الموسيقية في الشهر الخامس من العام ٢٠٠٨ في قاعة الشعب، وكان ضيفًا على المهرجان، وليس مشاركًا، كان يجلس مع زملاء له هم أيضًا حضروا ضيوفًا، كان هادئًا وساكنًا في مكانه، حتى أخاله لا يسمع، أو أنه يسمع، ويتمنى أن يقفز ليكون على خشبة المسرح، لكن الصورة الحاضرة هي أنه (متجهم)، وتحينت الفرصة للقائه والحصول منه على تصريح، وكان لي ذلك، فسألته: أين أنت؟ قال (تركت الغناء)، وأكد أنه اعتزل الغناء، وأن اعتزاله لا رجعة فيه!

وحين استغربت قوله رفع عينيه إليَّ، ثم أبعدهما عني، وقال: (اعتزلت... منذ سنوات!) قالها بصوت أحسست يقطر ندمًا، وحين عدت أسأله: كيف؟ واستفزه استغرابي،

قال مضيفًا: (... أشعر أن صوتي (خرب) يعني (مو ذاك الصوت الأول) قالها باللهجة الريفية، وبعد لحظات من الصمت، قال مستطردًا: ولا أفكر بالعودة إلى الغناء بعد أن أصبحت الأجواء غير ملائمة، وصرت حتى بيني وبين نفسي... لا أغني).

(أنا وجدت أن كلامه متناقض ما بين (صوته الذي خرب) وبين (الأجواء غير المناسبة)، ورجحت السبب الثاني، لأن فرج وهاب ليس كبيرًا بالسن، كي يشيخ صوته).

وحين شعرت أن ما يقوله قابل للتريث والتراجع، طلبت منه أن يعطيني نسبة لفرصة العودة إلى محبيه، قال: (جعلتها بترة سواعد)! وهذا كما يبدو مثل، أي أنني قلت: لا أغني يعني لا أغني، (والسواعد عشيرة عراقية كبيرة، يضرب فيها المثل في عدم التراجع عن شيء تعمله).

وتركته يسترخي قليلًا، وقد وجدت أن إلحاحي عليه لن ينفع في الحوار معه، وبعد وقت ليس بالطويل عدت إليه، وحادثته بلا ورقة ولا قلم عن الأغنية الريفية، وبدايته التي صعد فيها، فقال: كنا في السابق نغني في حفلات الأعراس والمهرجانات والإذاعة والتليفزيون، الآن لا، فالأعراس مجرد زفة و(صفكة)، الناس أصبحت لا تقيم حفلات لأعراس أبنائها، (الوكت اتغير)، وحين سألته عن واقع الأغنية الريفية قال: (ركست) أي (هبطت)، ليس لها وجود، ليس هناك من دعم لها، ولا اهتمام بها، ولا بالمطربين الريفيين، كيف يعرفها الناس والتليفزيون لا يظهرها، الأغنية الريفية غابت عن التليفزيون الآن، على

الرغم من كثرة الفضائيات، نحن كنا نطلع نغني في حفلات التليفزيون، وأية أغنية نسجلها تظهر، والناس عرفتنا من خلال ذلك، وهي الآن غائبة، ولا أحد له (شغلة بيها)، وحين سألته متى برأيه تعود؟ قال: العلم عند الله، ترجع الأغنية الريفية أو لا!

فرج وهاب حكى لي كيف أنه ذات مرة في دولة الإمارات واستمع إلى غنائه طيار روسي، وكيف أن هذا الروسي أبدى إعجابه بطريقة الغناء المختلفة عما يسمعه من الآخرين، وشبهها بنوع من الغناء لديهم، وكان فرج وهو يتحدث عن هذه الذكريات التي ربما لم تكن بعيدة مستمتعًا بحلاوتها، وفي الأخير قلت له: إن الناس تحبك، وتحب أن تسمع أغانيك، وأعتقد أنك مِلكهم، ولستَ مِلك نفسك، التفت إليَّ وهو يقول بهدوء: (بطلت... بعد ما أغني).

بليغ حمدي...
مطرب ومؤلف كلمات الأغاني وملحن لا ينام!

عشق بليغ حمدي (١٩٣١- ١٩٩٣) التلحين، وعمره لم يتجاوز العشر سنوات، وكان يخجل من إخوانه ووالديه، ويسمعهم ألحانه على أنها أنها ألحان ملحنين مشهورين.

وفي عام ١٩٥٥ تقدم لأحد امتحانات الإذاعة لاختيار أصوات جديدة، وغنى أمام اللجنة أغنية بعنوان (ليه لا)، فاعتمدته اللجنة مطربًا، ولحن لنفسه، وغنى في الحفلات العامة أكثر من عشر أغانٍ، قبل أن يصبح ملحنًا، هذه الفكرة التي ظلت تراوده دائمًا، ونصحه بعضهم بأن يترك فكرة التلحين، ويتفرغ للغناء بحجة أنه لا يصلح للتلحين، لكنه لم يستجب لهذه النصيحة، واستمر في محاولاته حتى قدم ألحانه لعدد من المطربين، ونجحت هذه الألحان، وبعدها توالت الألحان لكبار الفنانين.

لا يعلم بعضهم أن الفنان بليغ حمدي كتب الكثير من كلمات الأغاني التي لحنها، واختار لنفسه اسمًا مستعارًا، هو (ابن النيل)، وتم تسجيل هذا الاسم في جمعية المؤلفين والملحنين في باريس.

ومن أسراره أيضًا... أنه كان يفرح بكل جملة لحنية جديدة، ويُسعَد باكتشاف صوت جديد، ويطير فرحًا بلحن تردده

الملايين من المحيط إلى الخليج، كان ينام في اليوم أربع ساعات فقط، وكان يفاجئ الأصدقاء، وهو جالس معهم، بأن يطلب عودًا أو ورقة ليكتب عليها خاطرة موسيقية ألحت عليه بقوة، ولا يريد أن يتركها، كان يفعل ذلك وهو في الطائرة، ويسطرها كنوتة موسيقية، ويكتب فيها جُملًا لحنية.

والمقربون منه يعرفون أنه أحب الموسيقى وعشق الغناء، ويتميز بقدرة جبارة على العمل تصل إلى ٢٤ ساعة متصلة في بعض الأحيان، كان يعمل في كل الأوقات وهو نصف نائم، وهو يأكل، وهو يمشي، وفي أصعب الظروف، كان دائمًا في حالة عمل مستمر، وقلق لا ينتهي، وبحث دائم.

ويؤكد المقربون أنه الملحن الوحيد الذي كان يعمل في ألحان عديدة في وقت واحد، وهذا شيء نادر جدًا، كان يأتيه الخاطر اللحني، فيسجله الفور على شريط، وفي الوقت نفسه يكتب النوتة في لحن آخر، ويترك كل هذا، ويمسك عوده، ويسمع الأصدقاء صياغات لحنية عديدة لكلمات مختلفة.

تزوج بليغ حمدي الفنانة وردة الجزائرية في شهر آذار من عام ١٩٧٣، عندما عقد قرانه عليها في منزل والدته التي كانت تلازم الفراش، وحضر عقد القران عبد الحليم حافظ ومحمد رشدي.

الساهر يرفض أغنيات الهلالي بسبب النشر

في يوم ٧ / ١١ / ٢٠٠٧ نشرتُ في جريدة (إيلاف) الإلكترونية خبرًا عن تعاون بين الشاعر صباح الهلالي (١٩٦٩ - ٢٧ يوليو ٢٠٢٠) والمطرب كاظم الساهر تحت عنوان: (كاظم الساهر يغني من كلمات الشاعر صباح الهلالي)، وفيه نقلت ما أخبرني به الهلالي (أنه قام بالاتفاق مع منذر كريم، مدير أعمال الفنان كاظم الساهر، الذي أبلغته هاتفيًا رغبة الساهر بالتعامل معه، بكتابة عدة أغنيات خاصة بالساهر مع مجموعة مواويل، وأرسلها له عن طريق البريد الإلكتروني، علمًا أنه لم يقابل كاظم، معربًا عن فخره بالعمل معه).

الهلالي أرسل للساهر ثلاث أغنيات باللهجة العراقية، كتبها خصيصًا له وهي تحمل عناوين اللوحة، وشيب القلب والمراية، بالإضافة إلى ستة مواويل كتبتها حديثًا، ونشرت في الخبر مطالع الأغنيات الثلاث.

بعد أيام... التقيت الشاعر الهلالي، كان متجهمًا... ليخبرني أن الساهر صرف النظر عن هذه الأغنيات، والسبب هو الخبر الذي تم نشره، فالساهر لا يريد لأخبار أغانيه أن تنشر قبل أن يكملها.

تأسفت للهلالي، لأنني ربما كنت السبب، ولكنني لم أعرف أن الساهر (صارم) إلى هذا الحد، ومن ثم قرر عدم التعامل

مع صباح نهائيًا.

ترك الساهر الأغاني، وانقطع التواصل بينهما تمامًا، لأن الساهر يريد لأغانيه السرية حتى الانتهاء من إنجازها.

(فيما يأتي الخبر الذي نشرته عن التعاون بين الهلالي والساهر)...

عبد الجبار العتابي من بغداد: يستعد المطرب كاظم الساهر لأداء ثلاث أغنيات جديدة في أول تعامل له مع الشاعر الغنائي العراقي صباح الهلالي، الذي سبق أن غنى له العديد من المطربين العراقيين، الهلالي قال في حديث خاص لإيلاف، أنه قام بالاتفاق مع منذر كريم، مدير أعمال الفنان كاظم الساهر، الذي أبلغته هاتفيًا رغبة الساهر بالتعامل معه، بكتابة عدة أغنيات خاصة بالساهر مع مجموعة مواويل، وأرسلها له عن طريق البريد الإلكتروني، علمًا أنه لم يقابل كاظم، معربًا عن فخره بالعمل معه.

وأضاف الهلالي: كتبت هذه الأغنيات بشكل خاص، وهي باللهجة العراقية خصيصًا لكاظم، وهي تحمل عناوين اللوحة وشيب القلب والمراية، بالإضافة إلى ستة مواويل كتبتها حديثًا، الأولى تتناول المبالغة في وصف الحبيب، وتقول كلماتها: (من كد ما حلو بعيني وأريده، أظن اختار لون عيونه بإيده، وجمع فوك خده عطر مليون وردة، واحد رسم روحه شلون يرسمها، أكيد اللي رسم لوحة بإيد يختار، لون الشفايف مثله ما صار، الشمس يختار لونه والكمر دورة عيونه، ويطش بالنجوم يكيفه ويلمها).

أما الثانية، فتتحدث عن حب ما فوق الخمسين، ولماذا

يعتبره الآخرون مثلبة على المحب، تقول كلماتها: (الشيب شيب القلب حبينا يعني اشصار، سنين عمري الممضن مو آخر المشوار، والابيض البلراس، ما يعني عمر الناس، ظهر النخل ينحني بس القلب جمار). أما الثالثة، فتتحدث عن الجرأة في المصارحة بين العشاق، وتقول كلماتها: (ها يقلبي شو نسينا / كبال المراية اشحجينا / مو قلنا راح انصارحه / ها شتفقنا البارحة / ضاع اللسان كبال عينه). وأكد الهلالي أنه سعيد بالتعامل مع كاظم الساهر، وتمنى أن تكون هذه التجربة ناجحة من أجل التواصل خدمة للغناء العراقي والعربي.

ومن الطريف... أن صباح الهلالي في الجلسات الخاصة واللقاءات التليفزيونية، يشير إلى أنني أستدرجته لإعطائي مطالع الأغاني، وأنني السبب الرئيسي في عدم إكمال التعاون مع الساهر.

ع اليادي اليادي...

واحدة من روائع نجاة (الكبيرة)، ومن روائع الغناء العربي التي مرَّ عليها أكثر من نصف قرن، وما زالت حاضرة حضور مطربتها الجميلة.

كثيرة هي الأشياء التي تشدني في أغنية (ع اليادي اليادي اليادي) للمطربة نجاة الصغيرة (مواليد القاهرة ١٩٣٨)، وأحيانا لا أستطيع أن أحدد أولويات ما يشدني ويمتعني، سواء الكلمات التي كتبها الشاعر حسين السيد، أو الألحان التي نسجها محمد عبد الوهاب، أو الأداء الذي صدحت به نجاة بصوتها الدافئ وصولًا إلى تصوير الأغنية الجميل والمعبر الذي هو ضمن فيلم «شاطئ المرح»، إنتاج العام ١٩٦٧ للمخرج حسام الدين مصطفى.

أسمعها كثيرًا، وأراني ما بين ابتهاج وحنين وحزن، إلى حد أن شيئًا ما يترقرق في أعماق العيون، لا أعرف لماذا ينطلقون في روحي لمجرد أن تبدأ الموسيقى قبل الدخول إلى الكوبليه، حين أتمعن بالكلمات أجدها بسيطة، لا تفتح جراحًا، ولا ترسم تشاؤمًا، ولا تبعث يأسًا، حيث مطلعها (عاليادي اليادي اليادي / يا قلوب متدارية / يا ما جرح الورد ايادي / حتى الجناينية / يا ما شفنا في عيون حلوين / حكايات القلب المسكين).

لكنني أذهب إلى اللحن، وأجده المحرك الأول لمشاعر

الشجن، كأنه يأتي من عالم بعيد، ويسكب أنغامه بهدوء لتتلقفها حنجرة نجاة، لترسم الكلمات الهائمة على عاطفة اللحن، فتنتج هذه الأغنية.

من الطريف أنني وجدت أن مطلع الأغنية (ع اليادي اليادي اليادي) يقوم على العديد من الألحان القريبة الشبه بلحن عبد الوهاب لعدد من البلدان العربية، حيث يؤكد الباحثون أن هذه الأغنية غناها تسعة من المطربين الكبار العرب، منهم فريد الأطرش، وفيروز، ونور الهدى، بكلمات استفاد الشعراء فيها من كلمة (ع اليادي) ليكتبوا أغنياتهم، ومنها العراق حيث يورد الباحث مروان أبو نصر الدين في كتابه «الشعر اللبناني والغناء الفولكلوري» نص كلمات الأغنية بأصلها العراقي، وتقول: (عاليادي اليادي اليادي/ يا بو العبيدية/ يا جوخ منو فصلك / للحلوة دارية).

وأعتقد أن كلمات هذه الأغنية هي أفضل، وقد خرجت من عباءة النسخة الأصلية، أما اللحن، فهو الآخر تحرر أكثر من رتابة الموروث).

ولأنني لم أفهم معنى كلمة (اليادي)، فقد بحثت عنها، فوجدت الباحثة مريم نجمة تقول: (عاليادي اليادي: أعتقد أيضًا أن هذه الردة كانت تقال عندما كان الناس يتنادون لعمل جماعي، أو مساعدة جماعية، أو فرح جماعي بتشابك الأيدي: هات الأيادي، أي أعطني يدك لنعمل أو نفرح معًا).

طيب... ما الذي يشدني إلى هذه الأغنية لأسمعها كثيرًا، فتطربني وتشجيني، وتقفز بي نحو ما لا أدري، أحيانًا أجد أن اللحن عبارة عن كتلة من الشجن يضرب، أو ينتشر في الأحاسيس ليمنحها شعورًا غامضًا، فيما أرى أن صوت نجاة الهادئ الدافئ الهامس كان يوزع لوحات فنية بألوان متعددة، تمنح النغمات دفقًا جميلًا من عذوبة الصوت، أو ربما صوت الكومبارس الهارع إلى البعيد، وخاصة الرجالي منه الغاطسة أصواتهم بقارورة من الشجن المكثف.

قد لا يؤثر بي (لا العاشق مرتاح ولا الخالي مرتاح)، ولكن أعتقد أن ما تلاه هو المؤثر بي (خلينا من السكة دي، على البر مراكبية) فهو يوحي بالكثير، للانطلاق إلى الأمام، وعدم مراجعة ما حدث أمس أو في الماضي، مثلما أتعاطف مع (لا يا قلبي، كله إلا دي ما تستحملش آسيَّة)، لأن نجاة ترسمهما بعاطفة جياشة.

ربما التصوير... حيث سيارة تنطلق في الطرقات عابرة للمسافات على وقع الموسيقى، حاملة في بطنها بنات جميلات حالمات كأنهن (ورد وياسمين) ذاهبات بأحلامهن إلى ما يسرهن، متناغمات مع صوت نجاة، ربما الأبيض والأسود له فعل السحر، رسم ملامح الجمال حتى على حركاتهن العفوية، وهن ما بين المرح والأسى ربما، لكن التوهج الذي يأتي من عذوبة الأغنية يهزهن شغفًا.

هلا بيك هلا...
الأغنية التي اغتصبها الرئيس من فلاح حسن!

أثناء الاستعدادات التي كانت جارية لاستضافة بطولة كأس الخليج العربي الخامسة بكرة القدم في بغداد في شهر آذار من العام ١٩٧٩، كان التحضير أن تكون المناسبة استثنائية وفيها غناء رياضي، وإذ كان اللاعب فلاح حسن هو الأكثر جماهيرية، ارتأى المطرب سعدون جابر، الذي تربطه علاقة صداقة ومحبة مع فلاح حسن، أن يغني له أعنية رياضية مميزة يهزجُ بها الجمهور، وتكون من علامات تلك البطولة التي حظيت باهتمام إعلامي وجماهيري كبيرين.

وبالفعل، ظهرت أغنية (يابو رجل الذهب)، التي هي من كلمات الشاعر كريم العراقي، (١٨ شباط / فبراير ١٩٥٥ – ١ أيلول / سبتمبر ٢٠٢٣)، وألحان خزعل مهدي (١٩٢٨ ـ ٢٠١٢)، وهي في مجملها تحية للاعبي الخليج، وبالخصوص لفلاح، ويقول مطلعها: (يابو رجل الذهب يا محبوب الشعب/ يا فنان العرب مية هلا بيك/ هلا بيك هلا وبجيتك هلا/ إلنا يبه الكاس وإسمنا يلوك إله).

وصدح بها سعدون في الحفل الافتتاحي للبطولة الذي كان يوم ٢٣ من شهر آذار/ مارس، والذي جرى على ملعب الشعب الدولي، وصدحت معه الجماهير، وعمد سعدون

جابر إلى تغيير بعض المفردات ليشير فيها بوضوح إلى فلاح حسن، كما فعل بعد انتهاء البطولة والاحتفال بفوز العراق في برنامج (الرياضة في أسبوع)، وكان يردد بشكل واضح: (العب يا فلاح، سجلنه هدف، جمهورك اليوم ملا الدنيا وهتف)، ومن ثم أضاف أسماء بعض اللاعبين، مثل: (العب أو حاول لحسين ناول)، وذكر عددًا من اللاعبين، وعرف الناس أن الأغنية مخصصة لفلاح فقط! حتى إن سعدون جابر سئل عمن يستحق لقب (أبو رجل الذهب) من اللاعبين حسب رأيه، فقال: (لو كان هنالك لاعب يستحق أن نقول له: أبو رجل الذهب، لكان اللاعب فلاح حسن).

وسرعان ما سرت الأغنية على ألسنة الناس الذين راحوا يتغنون بها بفرح غامر أيام البطولة على المدرجات، وفي الأمكنة المختلفة، حتى إنها صارت بمثابة نشيد وطني رياضي حتى بعد البطولة، وأذكر أن مجلة (الرياضي) الأردنية امتدحت فلاح والأغنية، وكتبت عنه قائلة: (يابو رجل الذهب يا فنان العرب، مقطع من أغنية عراقية صدح بها أبناء دجلة والفرات في كل ساعات النهار).

وهكذا طار صيت الأغنية (الفلاحية) في الأرجاء، وصارت أغنية الموسم حينها، خاصة مع فوز المنتخب العراقي بالبطولة.

ولكن، كما يبدو أن رئيس النظام السابق صدام حسين (بعد تنصيبه رئيسًا في تموز / يوليو ١٩٧٩) لم يعجبه ذلك، أن يتغنى الناس بلاعب كرة قدم أو أي شخص

آخر غيره، فأصدر أوامره بتغيير بعض المفردات وتسجيل الأغنية من جديد لمصلحته كإهزوجة تتغنى به وحده، فمنع تلك الأغنية التي تتغنى بحب وتألق اللاعب فلاح حسن، وذكر لي أحد الثقات أن (صدام خابر مدير التليفزيون سامي مهدي بوقتها وقال له: (إذا لاعب كرة قدم تغنون إله يبو رجل الذهب... يمحبوب الشعب... لعد رئيس الجمهورية شراح تغنون إله؟!) ثم أغلق التليفون بوجه سامي مهدي، حينها دخلت مؤسسة الإذاعة والتليفزيون في حالة الإنذار، ويقال في اليوم التالي كانت الأغنية الجديدة كاملة).

الأغنية الجديدة كتب كلماتها الراحل خزعل مهدي، وطبعًا لم يسجل سعدون جابر الأغنية الجديدة، بل كانت فرقة المجاميع هي من أدتها على أنها أغنية جماهيرية، فتم منع أغنية سعدون جابر من البث تمامًا، وقيل أنها أتلفت، فلم يعد لها وجودًا في رفوف مكتبة الإذاعة والتليفزيون، فيما صارت الأغنية الجديدة إهزوجة خاصة بالرئيس.

وأكد الشاعر رحيم العراقي أن الأغنية الرياضية، كلمات كريم العراقي، ألحان المرحوم خزعل مهدي... أما الأغنية السياسية، فهي كلمات وألحان خزعل مهدي... حيث حوَّلها إلى أنشودة تمدح صدام... موضحًا أن هذه المعلومة موجودة في (تايتل) الأغنية، مشيرًا إلى أن الأغنية السياسية كانت مجرد مبادرة من الراحل خزعل مهدي... ولم يحصل على تكريم من صدام أو من يمثله، والأدهى من ذلك أن الأغنية الرياضية منعت بعد أن تحولت إلى

أنشودة... كما أسرني رحيم العراقي، قائلًا: أتذكر حوارًا جرى في بيت المطرب قحطان العطار حول الموضوع، حيث قال الصديق قحطان العطار لسعدون جابر: أستاذنا خزعل مهدي ضيع المشيتين... خسر الأغنية الرياضية، وما حصل تكريم على الأنشودة...!

وهكذا اغتصب صدام هذه الأغنية، ليكون أول رئيس في التاريخ يغتصب أغنية ليست له!

السنين ياما دوبت من عمرنا كتير السنين

هذا المقطع من أغنية للمطربة وردة الجزائرية، له وقع في قلب السامع، كأنه جرس إنذار ينبه إلى سنوات حياته التي مرت من بين يديه، ولا يدري كيف مرت... وربما إن أعاد سماعها وتأمل... سيرى قطرات من دمع تنزل على زجاج فضاءات روحه، فلا يستطيع أن يمسحها، لأنها تشير إلى ما ذهب منه هباء في بلد متخم بالتفاهات!

(السنين ياما دوبت من عمرنا كتير السنين...)...

وهو مقطع للمطربة الراحلة وردة الجزائرية (٢٢ تموز/ يوليو ١٩٣٩ – ١٧ مايس / مايو ٢٠١٢)، من أغنية (خليك هنا...) الصادرة في العام ١٩٧٣، وهي كلمات: محمد حمزة، وألحان: بليغ حمدي، التي مطلعها (الوداع/ ما بقيتش أخاف في الدنيا دي غير من الوداع والضياع / بحس لما تكون بعيد معنى الضياع، معنى الضياع والوداع).

في زمان بعيد كنت أحفظ وأردد من هذه الأغنية فقط كلمات (خليك هنا خليك، بلاش تفارق، بتقول يومين وتغيب سنة، بلاش تفارق)، إعجابًا بحلاوة ما يصدر من حنجرة وردة، وشعورًا بالكلام والأداء الباذخ لوردة، وهي تهزُّ حنجرتها لتتقافز الحروف بكثير من العاطفة والانسجام، ولم أنتبه على مستوى التأكيد على باقي كلمات الأغنية التي تمر مني بجمالها الذي يطربني، ولكن

فيما بعد وقد عبرت الخمسين عاما، كانت تلك الكلمات أكثر تأثيرًا بمرافقة اللحن الجميل والغناء العذب الذي تصدح به وردة، وتتناغم به حتى مع الآه التي تطلقها مع الموسيقى مع الكلمات:

(آه... السنين ياما ذوبت من عمرنا كثير السنين

والسنين خلتني أشوف من قد إيه متفرقين

فرقتنا آه غربتنا تعبتنا)!

فوردة تفعل فعلها بصوتها، وهي تمدُّ (ياء) السنين، ومن ثم تنهمر بالشجن الذي يغمر القلب، صوت وردة العذب الفصيح يعطي الكلمات واللحن انشدادًا.

لكن الشاعر محمد حمزة لم يكن موفقًا حينما أردف كل هذا الشجن والكلام المعبر الذي يرسم عناء الوداع والخوف بـ (لكن شوف، أدينا رجعنا ثاني، وحبنا غلب السنين/ صبرنا ع الآلام، ورجعنا بالأماني، آه للهوى متشوقين)، أضاع كل ما في الأغنية من إبداع وروعة بهذه الإضافة التي كأنها خارج المتن، وربما أراد أن يعطي الأغنية إطالة لا تستحقها بهذه الكلمات، أنا هكذا أرى، لأن كل ما في نص الأغنية ترجيعات قلب عن الفراق والوداع...

لذلك؛ أجد في هذا المقطع المفعم بالإحساس خلاصة كل الجمال الذي في الأغنية.

اسمع وتأمل: كيف السنين ذوبت من عمرنا الكثير... عبر تفاهات تجار الحروب والحصارات والطيش، حيث غامر بنا المتسلطون، ففرقونا وغربونا، سواء داخل بلادنا أو بلاد

أخرى، وأتعبونا على مدى العمر الذي حين ننظر سنواته نشعر بالبؤس والأسى!

إبراهيم العبد الله... وليلة لا تُنسى

في لحظة ما، تذكرت عفو الخاطر المطرب إبراهيم العبد الله، الذي غاب عن المشهد الغنائي منذ سنوات، ولا أعرف (أين صفا به الدهر)، ذكرته بالخير، وذهبت إلى السيد (غوغل) أبحث عنه، فلم أجد له سوى القديم من الأغنيات، ولا أي خبر.

وعرفت أنه من أهالي مدينة الثورة بكركوك، وأنه الشقيق الأكبر للمطرب رضا العبد الله، الذي انقطعت أخباره هو الآخر منذ زمن ليس بالقصير.

وتذكرت... أيام التسعينيات!

يحكي إبراهيم العبد الله عن أيام الخير التي يبدو أنه ترك الغناء بسببها قائلًا: في أحد الأيام دعاني قصي ابن الرئيس القائد، حفظه الله ورعاه، إلى مزرعته، أخذتنا سيارات إليها، كانت الأجواء شتائية باردة.

كانت وصلتي الغنائية بعد منتصف الليل، كان قصي مع مجموعة من أصدقائه فقط، غنيت وخلفي فرقة موسيقية صغيرة، كانوا يضحكون، ويتحدثون مع بعضهم البعض، وأنا أغني ومتواصل في الغناء.

وأضاف: كنت حينها أرتدي الدشداشة البيضاء التي كانت تسمى بـ (الزبدة).

بعد قليل، جلبوا لقصي وجماعته صندوق طماطة وطبقة بيض... ووضعوهما أمامهم... وأنا مستمر في الغناء...

قال لي: عليك أن تستمر بالغناء، ولا تتوقف...

وتواصلت بالغناء...!

وإذا بهم... يرمونني بالطماطة والبيض... وأنا أغني بإشارة من قصي أن أستمر.

صارت دشداشتي الزبدة طماطة على بيض...

وحين انتهوا من مما لديهم، خلع قصي حذاءه، وضربني بها، فأتت على أحد أعضاء الفرقة.

ثم طلب مني الخروج من هذا المكان إلى شارع في المزرعة... خرجت، وجاء هو وجماعته راكبين سيارة، وقال لي وهو في السيارة: امش... ثم ابرك... ثم انهض، وأنا أؤدي كل هذه الحركات، ولا أعرف هل إنني أرتجف من الخوف أم من البرد.

مضى وقت وأنا على هذه الحالة (قف، ابرك، انهض، امش) وهو وجماعته يضحكون عليّ...

في الأخير قال لي أنه سيهدُّ الكلاب عليَّ، ولإنقاذ نفسي عليَّ أن أركض إلى خارج المزرعة... بأقصى سرعة!

يقول إبراهيم: مع التعب والبرد والخوف... سمعت صوت الكلاب، وهي تتجه نحوي، وإذا بي أركض بأقصى سرعة، رفعت دشداشتي وانطلقت، والكلاب تركض ورائي، لكنني، والحمد لله، وصلت قبلها إلى الباب الخارجي،

فتوقفت الكلاب هناك، وانطلقت أنا أبحث عن طريق العودة إلى البيت!

أخبرني بعض الأصدقاء معلومات عنه مثل الصديق الفنان ستار السعداوي الذي قال (إبراهيم منذ الستينيات، وهو جارنا في قطاع ١٩ مدينة الثورة (الصدر حاليًا) وشقيقه إسماعيل معي في نفس الصف، ولم نسمع عنهم من أهل كركوك، وكان يغني في الحفلات قبل أن ينتمي إلى فرقة منير بشير، ويشكل ثنائي مع رياض أحمد... ربما يكون أصله من كركوك).

أما الكاتب والصحفي عبد الستار البيضاني فقال: (معلوماتي... هذا المطرب من سكنة مدينة الثورة، وتحديدًا منطقة حي الأكراد، وينتمي إلى عشيرة جنوبية، ولا أدري لماذا كان يخفي هذه التفاصيل...).

أما الناقد الموسيقي محمد موسى، فقال: (يدعي أنه جبوري من الحويجة بكركوك ليتقرب إلى السلطة آنذاك، لكن الحقيقة هو بهادلي، وكان بيتهم بالثورة قطاع ١٩ تحديدًا، ثم تحولوا إلى منطقة الوشاش، واسمه الحقيقي (إبراهيم إرحيِّم عبد الله البهادلي) كما ذكر معلومة ظريفة (إبراهيم العبد الله عنده ٤ أخوة، وهم: رضا (المطرب رضا العبد الله) + إسماعيل + علي + عبد الزهرة، وأخوه إسماعيل أبو عيون الزرگ چان أفشل مطرب يغني في أعراس مدينة الثورة، ويرمونه بقشور الرقي صيفًا، وبالحجارة شتاءً، حتى ترك الغناء نهائيًا).

وقال عنه منير العبيدي: (سمعت من إذاعة جمهورية العراق أن الفنان إبراهيم العبد الله من محافظة كركوك من عشيرة الجبور مواليد ١٩٤٩، من أغنياته: أخ مشعل، وگوم درجني وسمره).

وذكر الصحفي هاشم البدري (أصله من كركوك، وكان إبراهيم جارنا في حي الإعلام في منطقة الأمين الثانية ببغداد الجديدة، هو ومجموعة كبيرة من الفنانين، من أمثال قائد النعماني، وعبد الجبار الدراجي، ونسيم عودة وعبد الزهرة مناتي وغيرهم)، وذكرت الشاعرة كلالة نوري معلومة: (شفته بأمريكا قبل أربع سنوات (٢٠١٩)، وغنى في المطعم أغنية أحيا وأموت على البصرة. وكان في لجنة أجمل صوت، مسابقة صغيرة تقيمها الجالية العربية في مدينة سانديبگو/كاليفورنيا)!

أما الشاعر حميد قاسم، فذكر هذه المعلومة الطريفة قائلًا: (مرة أرغمه عدي على شرب قنينة وسكي كاملة دفعة واحدة، فسقط مغشيًا عليه، ولما آفاق بعد بضعة أيام وجد نفسه في المستشفى، هذا ما رواه لي حين وصل هاربًا إلى دبي).

أحمد المظفر... مطربًا!

أسرني المذيع الراحل أحمد المظفر (توفي ٢٠١٤) أنه بدأ حياته مطربًا متأثرًا بابن خالته (فالح حسن جاسم آل بريج) الذي كبر واشتهر، وواكبه المظفر حتى بعد أن حمل اسم فؤاد سالم (١٩٤٥ - ٢٠١٣)، وكبرت لديه هذه الرغبة التي ما إن غادر فؤاد العراق هربًا من النظام السابق في العام ١٩٨٢ حتى تبددت تلك الرغبة في نفسه!

وأوضح المظفر: بدأت الغناء في البصرة من خلال فرقة الميناء الموسيقية التي يرأسها مجيد العلي، وهو ملحن بصري معروف، وكنت أحضر تمارين الفرقة لوجود فؤاد سالم فيها، وكان عمري آنذاك تسع سنوات.

وأضاف: وعلى ذلك سرت، وصرت عازفًا للناي، وشاركت في تمثيل العديد من الأوبريتات على مسارح البصرة، ويشهد بذلك الفنان قصي البصري الذي كان هو مخرج هذه الأعمال، كما شاركت بالغناء الانفرادي في مهرجان أقيم للأغنية الوطنية في منتصف السبعينيات، وحصلت فيه على الجائزة الأولى.

كما أسرني أحمد المظفر أن علاقة القربى بينه وابن خالته فؤاد بقيت سرًا لم يعرفه أحد خوفًا من اضطهاد النظام السابق، ومن ملاحقته له، لأنه كان يعاقب الأقرباء إلى أبعد من الدرجة.

المحبة... چلبية!

في لقاء صحفي أجريته في العام ٢٠٠٥ مع مغنية المقام العراقي سميرة غازي، ذكرت لي حادثة طريفة تتعلق بالأغنية التراثية التي يقول مطلعها: (يا بنت عينج عليه * والله المحبة چلبية).

قالت لي سميرة: قبل أن تقع حرب ٢٠٠٣ بأيام كنت مدعوة من قبل مقدم برنامج (أنغام الرافدين) الذي تبثه الفضائية العراقية، وحدث أن غنيت هذه الأغنية ضمن البرنامج، وهي كما تعرف أغنية تراثية قديمة.

وأضافت: صادف أثناء المونتاج لهذه الحلقة من البرنامج أن كان وزير الإعلام السابق محمد سعيد الصحاف متواجدًا في الفضائية، وسمع هذه الأغنية، فما كان منه إلا أن يغضب لوجود كلمة (المحبة چلبية)، ويطلب تغييرها، لأنها تشير إلى (المعارض) أحمد الجلبي، وقد استفزه أن تكون المحبة چلبية!

وتابعت: وقد طلب الصحاف أن أحضر لإعادة غناء الأغنية التراثية، وتغيير مفردة (چلبية) بأية مفردة أخرى بديلة.

وبالفعل، تم استبدال المفردة (چلبية) بمفردة أخرى هي (عراقية)!

ورحت أبحث... ووجدت أن:

هذه الأغنية بالمفردة الجديدة غنتها فرقة اسمها (فرقة العراق للأغاني التراثية) (والله المحبة عراقية)، (وهي موجودة على الإنترنت).

هذه الأغنية يبدو أنها أثارت النظام السابق وليس الصحاف فقط، لاعتقاده أن هذه المفردة تشير إلى أحمد الچلبي (١٩٤٤ – ٢٠١٥) الذي يعد أبرز المعارضين له، وكأنه يرتجف عندما يذكر الاسم الذي يراه متجسدًا في الكلمة.

سألت إذا ما كانت فرقة الإنشاد العراقية غنتها، سواء بالمفردة القديمة أو الجديدة، فجاءني النفي من عضو في الفرقة، من أن فرقة الإنشاد لم تغنها، لا بشكلها القديم ولا الجديد!

للتاريخ:

وذهبت للبحث عن هذه الأغنية، فوجدت:

الأغنية التي غناها ناظم الغزالي (١٩٢١ – ١٩٦٣)، هي من كلمات: جبوري النجار (١٩١٧–١٩٧٦)، وموسيقى: خضر إلياس (١٩٢٨– ١٩٩٨)، ويقال أن الكلمات في الأصل للملا عثمان الموصلي، وتنزيلًا اسمها (صلاة ربيع)، بكلمات أخرى في ما بعد المطلع، حيث يقال بأن كلمات الأغنية شامية، وكانت تغنى في الموصل وحلب وبلهجاتها المحلية: (يابنت عينج عليه، والله المحبة چلبية)، وفيها (يابنت عينك عنيه/ والله المحبة بليَّة/ من باح بالسر يُقتل/ شرعًا وماله دِيَّـة).

وغنتها منيرة المهدية (١٨٨٤-١٩٦٥) والملقبة بـ (سلطانة الطرب) التي زارت بغداد في العام ١٩١٩، وغنت هذه الأغنية، البستة في الحفلات التي أحيتها على صالة سينما سنترال (الرافدين الشتوي) في شارع الرشيد (السينما احترقت في ١٩٤٦، ومكانها الحالي بناية التأمين)، ويقال أن الأغنية مسجلة على أسطوانة بيضافون.

كما غنتها العديد من الأصوات منها: مائدة نزهت في العام ١٩٧٦، وغناها يوسف عمر، كما غنتها فرقة بابل / بقيادة سعد الأعظمي، وغنتها فرقة العراق للأغاني التراثية غنتها (والله المحبة عراقية).

وللمعنى: بحثت عن معنى الكلمة لزيادة في المعلومات:

يقول عبد الرزاق الچلبي: الچلبية كلمة عثمانية، كما هي كلمة باشا وبيك، والچلبية تطلق على أعيان البلد من شخصيات ثرية، وأصحاب النفوذ والأملاك، كان للچلبية فيما مضى في بغداد، حكام الكاظمية والمقربون للملك، ويوجد أيضًا چلبية في الموصل من شخصيات الموصل المثقفة، ولهم مكانة مرموقة في المجتمع العراقي.

وأوضح عن المفردة: وهنا يقصد الشاعر المحبة چلبية معني المحبة راقية مهذبة، وهو مديح للحب العذري النقي، وهكذا يتعالى ويرفع من شأن حبه لحبيبته.

رابح درياسة و سلوى الجزائرية

عندما تريد أن يكتظ الحنين في نفسك، وتتقاطر الدموع من عينيك، عليك أن تصغي إلى هذه الأغنية، فهي عبارة عن خلايا من الإحساس، ما إن توخزها الكلمات واللحن حتى يثقل رأسك بسحابات تحلق فيك، و(تسحن) روحك (سحن)!

هذه الأغنية التي تحمل اسم (يا شمس)، وغناها المطربان الجزائريان رابح درياسة (١٩٣٤ – ٢٠٢١)، وسلوى الجزائرية (١٩٣٥ – ٢٠٢١)، واحدة من الأغاني العربية الخالدة التي كانت لها حصة كبيرة من السماع والإعجاب في العراق خلال عقد السبعينيات، وإلى الآن، حيث ظهرت لأول مرة في العام ١٩٧٥، حيث الكلمات واللحن لرابح درياسة.

الأغنية حواربين حبيبين، حوار مفعم بالأحاسيس النابعة من أعماق الروح، الحبيب يصف حبيبته بالشمس، وهو يحادثها على هذا الأساس بكل ما تمتلك الشمس من طقوس، ولكنه لا يريدها حيث الشروق، ومن ثم الغروب المؤلم الذي هو الفراق، وحبيبته / الشمس تردُّ عليه بما يحب، وبما يختلج في نفسه لها، وبقدر ما في قلبيهما من حب يكون اللوم والعتاب الشفيف، وهي تدرك ما لديه من مشاعر نحوها.

فمنذ تباشير الموسيقى الأولى للأغنية، تشعر أنك أمام

شعور يرتجف في نفسك، قد لا تعرفه مع النغمات وهي تتلو عليك ما تحمله، سيأخذك بعيدًا، وهو يسري تحت جلدك ببكائية غامضة، لا تفهم منها سوى أن مشاعرك تنفث سحرها، وهي تحتاج إلى استقرار من نوع ما، لكنها لا تستقر، بل تجدها مستفزة للهيام في عوالم بعيدة، ثم تجعلك تحلق في الاستهلال للدخول نحو ليل لا تعرف ما يُخبئه.

فالحبيب مثلًا يخاطب حبيبته بكل صفات الشمس، بكثير من الألم والعَتَبِ حدَّ الأسى، فيقول لها:

(يا الشَّمس دخيلك بالله يا اللَّماعة / وخبريني وعلاش لقاك ما يــدوم

كل يوم عليَّ عشا وصباح طلَّاعة / وفي لقاك نفاجي الأحزان والهموم

كي الذهب خيوطك على الأكوان سطَّاعة / مزوَّقة كل الكائنات بالرسـوم

الغواني وبدور الزيني تركَّاعة / وكيف تطلِّي تدرك الأقمار والنجوم

يا خسارة فيما وقت الغروب خدَّاعة / تفارقيني من غير وداع كل يوم)

فيما الحبيبة ترد عليه مبررة بشكل وادع، ولسان طيب يلهج بالاعتذار، تطالبه ألا يلومها، وترجوه أن ينظر إلى حالها حينما تغرب، وتشرح له ما ينتابها من مشاعر... فتقول:

(يا حبيبي نهديلك ذالجواب بالطَّاعة / دخيل عنك من بعد اليوم لا تلوم
شوف حالي في ساعة الوداع شفَّاعة / وفي العوايد وقت الفرقة يجي نشـوم
قولِّي لنرجى وقت الشروق بالسَّاعة / ساهرة وعياني مشتاقة لـوم
في كبادي تشعل نار الفراق ولَّاعة / والفراق مشرَّبني كاس السموم
يا حبيبي رد المكتوب لازم الطَّاعة / وكل واحد في بحر غرامو يعــوم)

قد تكون بعض الكلمات صعبة الفهم أو غير مفهومة لغير الجزائريين بلهجتهم، إلا أن هذه اللهجة هي التي أضفت على الأغنية الجمال والعذوبة، كما أن اللحن يثير في النفس الشغف والهيام، ويرسم للسامع مقاربات في المعنى والفهم، بل إنه يفتح للاستمتاع آفاقًا، بل إنه يدفعك إلى أن الشعور بالانتهاء، ثم يفاجئك بسحر يجعلك ترفع رأس انتباهك بشيء كثير من التأوهات.

الصوتان مترعان بالأحاسيس التي سرعان ما تجوب مساحات النفس بحثًا عن خلايا الإحساس، لتحضنها، وتجعل ما فيها يسيل أشواقا وتِحنانًا إلى حد البكاء، ربما هي تفقأ عيون الذكريات، الصوتان مفعمان بالتناغم، حيث النبرات تترامى طولًا وعرضًا، من دون أن تخدش أذن السامع، بل إنهما ينتجان حنينًا لم يألفه السامع...

فيشعر أن قطرات تسهو لتبلل الروح!

وتستمر المحاورة بين الحبيبين مشتعلة بكثير من الحميمية والجمال والعتاب، والغيرة أيضًا، تتناهبهما المشاعر التي يمنحها الغناء بهاء ولا أجمل...

(يا الحبيبة يا كو أوقات الفراح سراعة / والفراق يجيب مكتوب العذاب سلوم
يا الحبيبة وأنتي يا أهل الغيار متاعة / قاصدة غيري كل مساء ولا لزوم
مشوقة محبوبك في كل يوم وداعة / ورايحة لمراسم من غيري كل يوم
يوم تظهريلي بعد الفراق سطاعة / ويوم يا محبوبة تخفيك الغيوم
ويمتى نبقى والأمر صوت تباعة / ويمتى نتهنى بالصد والهموم)

و --

(هكذا مكتوب مقسوم يا الحبيب / في الصباح نجي بين الليل والنهار
في الصباح نجيكم وقت المساء نغيب / رايحة للمكتوب وفي القلب نار
شاغلة قلبي بين الحب والنصيب / يا حبيبي كيفها شؤون وأقدار
شوف حالي حلم القاسيني عجيب / وفي المسا عند الفرقا لوني صفار)

ثم...

(هكذا يا الأحباب نعيش باللهيب/ هكذا نبقى بين الليل والنهار

يا دار ببرج يزهى القديم/ بالمحبة نسعد ويزول الغيار)

حتى تخوم الجمال التي يلتقي فيها الحبيبان على الأمل الجميل... ولا تجد إلا أن تبتسم وأنت تسمع الصوتين يندمجان معًا للحديث عن الحب، حيث يقولان:

(إن شاء الله يارب تجمع شملنا/ نخبر الكل على غصن الياسمين

يـــاالله تجمعنا بالعز والهنا/ تصونا وتخلينا متحابين...).

عليا... وعاللي جرى من مراسيلك

ع اللي جرى... هذه الأغنية من الأغاني التي أحبها، ولا أتجاوزها إن مرَّت عليَّ، بل إنها تستوقفني بلحنها الجميل، وكلماتها المعبرة، وصوت المطربة المختلف الذي يمتلك قدرة كبيرة على التعبير والتأثير، خاصة وهي تفتتح الأغنية بتلك النبرات التي تحول كلمة (الآ...) إلى شجن، وهي تمدها، وتمنحها من صوتها قدرًا من العاطفة الجياشة التي تتردد كأنها ذكريات.

إنها من أجمل أغاني المطربة عليا التونسية (١٩٣٦-١٩٩٠)، كلمات محسن الخياط، تلحين المصري حلمي بكر (زوجها السري حينها)، أدتها سنة ١٩٨١، جاءتنا في أيام الحرب العراقية الإيرانية وسط الأناشيد الحماسية والعنف، لكنها وجدت لنفسها مكانًا في الذائقة العراقية التي استحسنتها، ورفعتها إلى مصاف الأغاني الخالدة، ليس للصوت الفريد الذي تتميز به عليَّة، فحسب بل لأن الأغنية فريدة. ومطلعها:

(عاللي جرى من مراسيلك عاللي جرى
بس أما تيجي وأنا واحكيلك عاللي جرى)

كأنها تخاطب شخصًا بعيدًا عنها بشكوى وتهجد ومعاناة، كأن هناك صدى يحمله صوتها في المخاطبة التي تشعرها هادئة، ولكنها تنزف منها مشاعرها التي ليس فيها عتاب

بقدر ما تحمل مكنونًا في داخلها، تريد أن توضحه، ليست بكائية، بل مشحونة بالعاطفة التي كان لصوت عليَّة دور في جعْلها مفعمة بالشجن، وكأنها تهدهد الكلمات في موضع، وترفع مستوى صوتها معلنة عناءها بانتهاء لحظات اللقاء والحديث عما جرى، وحتى في المقطع الثاني:

(متغربين إحنا متغربين
تجري السنين وإحنا
جرح السنين
ماحد قال عنا خبر يفرحنا
ولا حد جاب منك كلمه تريحنا)

وصولًا إلى المقطع الأخير الجميل حين تصدح بالآه، وتعيد إلينا شجن الصوت بجماله:

(يا ليلي آه، يا جرحي آه، يا حبي آه
الحب دوبنا تهنا وتوهنا
وتاهت المراسيل بين النهار والليل
ما فضلش غير دمعة مرسومة بالمناديل)

ومن الطرائف التي لي مع هذه الأغنية...

كنت وقتها أحبُّ!، كان ذلك في العام ١٩٨٥، وكنت جنديًا على تلة عالية في منطقة (القائم) على الحدود السورية... جاءنا وقت الفجر ضابط كبير أمر اللواء ١٤٨، لم نشعر به إلا وهو وجماعته واقفين عند رؤوسنا ونحن نيام، أنا أول من استيقظ لأتناول البندقية بسرعة، والقفز بأداء التحية،

فكنت الضحية، فسجنني ١٥ يومًا في سجن اللواء في مكان بعيد، ربما في (h3)، وراحت عليَّ الأجازة...

السجن غرفة صغيرة من الجينكو، فيها ألف فأرة تتقافز فوقنا، أخذت معي كتاب (جذور)، وهو رواية للكاتب أليكس هيلي، بغلاف أحمر.

ومن مذياع لا أعرف مصدره تهادت إلى أذني أغنية (ع اللي جرى)، تأثرت بها، وكأنني أخاطب التي أحبها بكلمات الأغنية، وتوضيح سبب تأخري.

ومن الطريف أنني كتبت كلمات الأغنية على الغلاف الأخير للكتاب، وكنت أدندن بها طوال أيام السجن!

عادل الهاشمي... وكأنه لم يرحل

منذ أعوام مضت، رحل الناقد الموسيقي العراقي، عادل الهاشمي، وهو رجل لديه ذاكرة الكمبيوتر، تختزن أجمل الأغنيات التي قدمها العرب، من الأغنية الأولى إلى الأخيرة، ولديه من المعلومات ما لا يمكن أن يكون له مثيل، وبإمكانه أن يغني أية أغنية، أو يقرأ كلماتها، أو يحكي عن تفاصيلها.

في اللحظة الأولى تعتقده يمزح معك، إذ يسكب المعلومات دفعة واحدة، وهي النائمة في أعماقه، ولا يقولها بمحاولات استرجاع أو تلكؤ أو استحضار أبدًا، كما أنه يفهم في الألحان والمقامات.

تشعره أنه يجامل في بعض الأحيان، مثلما تجده لا يجامل أبدًا، لذلك؛ كانت معاركه كثيرة، وأعداؤه كثر، ولكن الغريب أنه لم يأبه بكل الهجمات وبكل السيوف، وكان لا يفعل سوى أن يشهر قلمه، فيهرب الجميع، وتتهاوى السيوف على الأرض، ويضطر أصحابها للرضوخ لأمره الواقع.

العديد من المُغنيين كانوا يتمنون كلمة منه، يتمنون أن يذمهم الذم العنيف، ويقسو عليهم في نقده، ولأنني كنت قريبًا منه لسنوات طويلة، كان البعض يتوسطني، لكي أجعله يذمه أو حتى يشتمه، ولكنه كان يبتسم، ويقول: معاذ الله.

عادل الهاشمي الذي أكمل دراسته في القاهرة عام ١٩٦٤، عاش مفارقات حتى في رحيله، فقد مات في يوم الجمعة الذي كان يحبه، وفي فندق أم كلثوم المطربة التي يعشق صوتها، وفي طابق يعلو عن الأرض كثيرًا، توقف قلب عادل الهاشمي، القلب الذي عانى من أزمة قبل أيام من هذا الرحيل، واستلقى على سرير العناية في مستشفى ابن البيطار، لكنه حين اسيقظ، وجد القاهرة التي فارقها قبل نحو ٤٠ عامًا تلتفت إليه كأنها تغزله، وهو الذي عشق موسيقاها ومطربيها، فوجد نفسه مدفوعًا ومنجذبًا إليها، وحين فكر في الاستراحة من عناءاته، استلقى على سرير الراحة، لكن قلبه لم يمهله، فانكمش، ومن ثم توقف، ولكنه قبل هذا كله صلى في مسجد جمال عبد الناصر، وزار مرقده، وزار شقة محمد عبد الوهاب وعمارة فريد الأطرش.

في فندق أم كلثوم، وفي غرفة حملت اسم أغنية يحبها (حاقابله بكرا)، كان هناك صمت، كل ما في المكان وحوله توقف للحظة، حتى الموسيقى صمتت، بينما الأنغام أحنت رؤوسها، والممرات المؤدية إلى غرفته تحوَّلت إلى أجنحة سود، الصمت كان ينسج خيوطه إعلانا عن رحيل الرجل الغارق في الموسيقى، والوامق لها.

ثمة مفارقات في رحيل عادل الهاشمي، وهي أنه مات في يوم ١١ / ١١ / ٢٠١١، هذا الرقم المميز في الحياة، ومن الغريب أنه توفي والقمر بدر، أي أنه مات منتصف شهر ذي الحجة بعد أيام من العيد، والمفارقة الأخرى أن اسمه عادل الهاشمي،

يتكوَّن من أحد عشر حرفًا، وأن تاريخ ولادته (١٩٤٦) لو جمعنا أرقامه لكانت (٢٠)، وحين نضع جمع حروف اسمه يتكوَّن لنا الرقم (٢٠١١) وهي سنة وفاته، والمفارقة الأخرى أن الفندق الذي مات فيه هو (فندق أم كلثوم) الذي يتكوَّن من (١١) حرفًا، وعدد حروف اسم الغرفة (حاقابله بكرا) ١١ حرفًا.

سلامًا لروحه، سلامًا لقلبه، سلامًا لوجهه، سلامًا لأستاذنا ومعلمنا الذي مات في مصر التي عاش مشغوفًا بكبار فنانيها، سلامًا يا أبا محمد، فلي معك ذكريات تحولت إلى دمع، ولم أستطع أن أكتب خبر رحيلك، إلا وكان الوجع يضرب قلبي، ويهزم الضوء في عيني، سلامًا، ولست أنساك أيها الكبير، لقد رحلت نعم، هذا مؤكد، لكن حضورك مهيب، وكأنك لم ترحل.

مني... مني، يبويه... موكلها مني

كان ذلك أوسط السبعينيات، حين كان الشاعر كريم راضي العماري يمشي على قدميه متجهًا نحو دكان الخياط الخاص بالملحن محمد نوشي في شارع الرشيد، بالقرب من دائرة الاتصالات القريبة حاليًا من جسر السنك، ولأنه شاعر غنائي، فقد كان يترنم عفويًا بكلمات تخطر على باله، ويطلقها لسانه، هذا الترنم بالإيقاع الذي نسج عليه الكلمات، كان يؤنس به خطواته، انطلقت على لسانه عفو الخاطر أولًا كلمة (مني... مني) ثم (يبويه... موكلها مني)، وانسابت الكلمات منه على وقع خطواته مضاءة بالقافية التي منحت الكلمات آفاقًا للغزل والعتب:

(مني مني، يبويه موكلها مني / إنه الحفظت الشوك مو كلها مني
ظني ظني... يبويه يأوسفه ظني / تالي طلع بهواج يأوسفه ظني
حني حني يا بويه للعشرة حني / ريت الله لاخلاه عمر التمني
جا شرد أكل للناس من غبتي عني
تالي طلع بهواج... يأوسفه ظني
ياعيني يأوسفه ظني
غني غني... يبويه ياشفه غني، محبوبي هسه يعود/

ياشفه غني
مرن على حلوات بي ذكرني، تالي طلع بهواج يأوسفه ظني
يابويه... يأوسفه ظني
ذني ذني... يبويه آآه اجفوفي ذني
بيهن حجايه هواج... اجفوفي ذني
ماسولفت للناس... موكلها مني
تالي طلع بهواج... يأوسفه ظني
يأوسفه ظني يبويه... يأوسفه ظني)!

كريم راضي العماري... حفظ النص الغنائي، وهو يردد كلماته على الطريق، وما إن وصل إلى دكان محمد نوشي حتى أخبره بفرح أنه وهو على الطريق إليه ألف أغنية، فما كان من نوشي إلا أن يستغرب ما سمعه، لذلك؛ طلب منه أن يسمعها، فقرأها له عن ظهر قلب، لكن نوشي باعتباره ملحنًا متمكنًا، فقد سأل العماري إذا ما كان قد حفظ الكلمات على تردد لحن معين، فأسمعه ما كان يترنم به طول الطريق على موسيقى الشعر.

وسرعان ما تحول النص إلى الورق، فأخذها محمد نوشي الذي يعرف أي الأصوات تناسبها، فأعطاها للمطرب الريفي عبد الزهرة مناتي الذي غناها بسحره الخاص لتتخلد الأغنية، وتكون واحدة من أجمل أغاني هذا الثلاثي.

يؤكد كريم راضي العماري أن الملحن محمد نوشى أعطاها لعبد الزهرة مناتي، لأن عبد الزهرة سبق أن غنى لى أكثر من أغنية قبلها، منها (خلينى أبات أويا الرمش).

وأسرني العماري أنه من أقارب المطرب عبد الزهرة مناتي، وهو قريب منه شخصيًا، لذلك؛ طلبت منه أن يجيبني عن سؤال تردد كثيرًا، وهو: (هل فعلًا أن الفنان راسم الجميلي لحن له أغنياته الأولى؟) فأجاب: راسم لم يلحن لعبد الزهرة!

الريل وحمد... قصيدة على لسان امرأة فلماذا لم تُغنها مغنية؟!

يعتقد الكثيرون أن أغنية (الريل وحمد) التي غناها المطرب ياس خضر (ولد: ١٩٣٨)، وهي من كلمات الشاعر مظفر النواب (ولد: ١٩٣٤) وألحان محمد جواد أموري (١٩٣٥ - ٢٠١٤)، هي على لسان (رجل)، لاعتبارات، منها: عنوانها الذي فيه اسم (حمد) فضلًا عن أن شاعرها رجل، ومغنيها رجل أيضًا، وفي الحقيقة أنها على لسان (امرأة)، خاصة أن الأغنية معروف عنها أنها تمثل (حالة عشق)، بدلالة مقطعها الأول الذي يقول: (مرِّينه بيكم حمد، واحنه ابقطار الليل واسمعنه، دك اكهوه... وشمينة ريحة هيل)، وكذلك قول المرأة في القصيدة (إنه أرد الوك الحمد... ما لوكن لغيره/ يجفّلني برد الصبح...وتلجلج الليره)، وأيضًا قولها متغزلة: (جن حمد... فضة عرس/ جن حمد نركيله/ مدكك بي الشذر/ ومشلَّه اشليله).

فضلًا عن مقاطع أخرى تؤكد أن القصيدة على لسان امرأة عاشقة، وإن كانت بعض مفرداتها توحي أن قائلها رجل، وهذا ليس غريبًا كون من كتبها رجل!

قد يكون ما ذكرته مهمًا، لكن الطريف في الأمر أن أغلب من غنى الأغنية هم من الرجال، واشتهرت بهم، مثلما اشتهر البعض بها، وكان من المفروض أن تغنيها مطربة،

أي في الأصل كان من الممكن أن تكون أغنية لمطربة، فتنطلق بها خاصة في ذلك الوقت الذي يزخر بالعديد من المطربات، لا سيما أن القصيدة انطلقت بشهرتها منذ أواخر الخمسينيات، ونالت في الستينيات حظوة جيدة من الاستحسان والشهرة قبل أن يلحنها أموري، ويقدمها إلى ياس خضر ليغنيها عام ١٩٧١، وإن كان هنالك سؤال لا يمكن الإجابة عنه حاليًا هو: لماذا لم يختر أموري مغنية لتغني الأغنية؟ إلا أن الجواب المؤكد أن أموري اختار ياس خضر مع سبق الإصرار، لأنه هو الذي اكتشفته عام ١٩٦٧، وقدم له أولى أغانيه، ومن ثم تمسك به، لأنه وجده صاحب موهبة كبيرة.

علمًا أن القصيدة كُتبت بين عامي ١٩٥٦ - ١٩٥٨، ونشرت في الستينيات في مجلة المثقف العراقية، وهي أول قصيدة بالعامية نشرها النواب، مع تأكيدات أن المطرب جعفر حسن (ولد: ١٩٤٤) هو أول من لحن القصيدة ومن ثم غناها، وعلى لسانه يقول: (أنا ملحنها الأصلي)، ويضيف موضحًا: (أنا لحَّنتها أول واحد في سنة ١٩٦٥، وكنت ما أزال طالبًا في المعهد. لحَّنتها في عام ١٩٦٥، وأخذت اللحن، وذهبت إلى الإذاعة. اللجنة وافقت على اللحن على طول، وقالوا بأن هذا اللحن فيه نفس جديد من الغناء العراقي، لكنَّهم رفضوا تسجيله؛ بسبب وضعي في نيسان ١٩٦٥، وكنت مفصولًا، وكان عندي صبغة سياسيَّة).

الأغنية غنتها فيما بعد، أصوات عديدة، رجالية ونسائية، وهذا ليس مهمًا، لأن نجاحها دفع الآخرين والأخريات

إلى ترديدها بحثًا عن الشهرة، ربما أو لكسب الإعجاب، مثل الكثير من الأغاني الناجحة، وهناك من قام بتلحين القصيدة على غير ما لحنها محمد جواد أموري، مثل حميد البصري وكوكب حمزة، لكننا سنتوقف أمام لحن حميد البصري الذي غنته المطربة شوقية العطار بصوتها العذب، ومن ثم نتساءل: هل كان لحن أموري صعبًا، لكي لا تغنيه مغنية آنذاك، أم هناك أسباب أخرى؟

تقول المطربة شوقية العطار: لم أجد أية صعوبة في غناء (الريل وحمد)، بل على العكس من ذلك، شعرت بأن الشاعر الكبير مظفر قد كتب تلك السطور عن لساني معبرًا عن أعماق شعوري، وهذا واضح من خلال أدائي.

فيما أجابت ابنتهما المطربة بيدر البصري عن سؤالي عن الفيديو الذي نشره والدها على صفحته في الفيس بوك، قائلة: هو مزيج بين الريل وحمد، وتضمين أضافه الشاعر عبد الرضا الأسدي، فهو صورة للواقع الحالي لمنطقة الأهوار.

أما الملحن الجميل كوكب حمزة، فقد لحن الأغنية أيضًا ليغنيها المطرب الشاب علي رشيد، مؤكدًا أنها كانت مصدر فرح لشاعرنا (مظفر النواب) عندما سمعها.

وقال: أعتقد بأني سمعت مغنية قد غنتها بلحن المرحوم محمد جواد أموري، والتي أعطاها إلى ياس خضر في حينها، وآنذاك كانت المغنية المبدعة الراحلة مائدة نزهت.

وأضاف: أعتقد سبب عدم محاولتها (مائدة نزهت) غناء

هذه الأغنية أو لبعض مغنياتنا هو قيمة أخلاقية، لأنها آنذاك تعتبر سطوًا.

وحين سألته: هل تعتقد أن الأغنية صعبة على صوت المرأة، سواء بألحانك أو محمد جواد أموري؟ أجاب قائلًا: لحن الراحل أموري سهل جدًا، وتستطيع أي مغنية أن تؤديه ببساطة، ولا أظنه فكر بغير ياس... أما عن أغنيتي، فصوت (علي رشيد) قوي وجميل، ثم إنه ضليع بالمقامات، وعندما لحنتها وسجلتها، كنت في سورية، ولم تكن هناك مغنية عراقية آنذاك.

من جانبه أكد المطرب جمعة العربي: كثير من الأغاني تخضع لعامل المزاج، ثم قال موضحًا: أحيانًا شكل الأغنية لا يوحي أن يغنيها رجل أو امرأة، خاصة أن الأغنية لم تكن مشهورة بعد، أي أنها لم تكن معروضة ومسموعة، فيكون شكل الأغنية مثل المقام العراقي الذي لم تغنه الأصوات النسائية، لأن فيه تفاصيل، وفيه شكل القالب الغنائي، وهذا يكون قريبًا من الرجل إلى المرأة، على الرغم من أن الكلام نسائي، وهذا لا يمنع أن لا يكون محببًا عند المطربات اللواتي يسمعن مثل هذا العمل.

وقال المطرب الدكتور جواد محسن: ربما لأن طبيعة اللحن لا تنسجم مع حنجرة المرأة الرقيقة.

وأضاف: كل أغنية تخضع لعدة معايير فنية وذوقية في حالة الرغبة في إعادتها من مطرب آخر، وأول هذه المعايير انسجامها مع طبيعة صوته، فلكل مطرب مساحة صوتية، وقوة دفع، ولون يختلف به عن الآخرين، ويختلف المطربون

كذلك باللون الغنائي الذي ينسجم مع شخصياتهم.

وتابع: أعتقد أن أغنية (مرِّينه بيكم حمد)، وهي أغنية كان ينبغي أن تؤدى بصوت نسائي... لكن غناء ياس خضر المميز لها جعل التفكير بها من قبل الأصوات النسائية مستبعدًا حتى لا يضعن أنفسهن في مقارنة صوت ياس خضر الذي أداها بإبهار وإتقان.

أما الشاعر الغنائي كاظم غيلان، فقال: أعتقد أن هذا الأمر يتعلق بالملحن الراحل أموري، وهو مبدع كبير، وموهوب قبل كل شيء، ولحسابات هو أعرف بها، فلربما لم يجد مساحة صوتية ملائمة للحن الأغنية إذا ما عرفنا بأنها ليست من الأغاني التي توصف بالخفيفة، وهذا لا يعني انتقاصًا من الطاقات النسائية في حقل الغناء، كمائدة نزهت، وأحلام وهبي، وأمل خضير... إلخ.

وأضاف: الأغنية هذه لم يوفق بلحنها سوى أموري، إذا ما عرفنا كيف شوهت حين قام إلهام المدفعي بأدائها ولحنها، وبعكس ما حققه كوكب حمزة لاحقًا حين أعاد لحنها، وقام بأدائها أحد الشباب، إلا أن السبق الأول يظل لأموري، وكم تمنيت أن يكون حيًا للإجابة عن دقة هذا السؤال.

نهاوند التي تبغددت، وظلت أغنياتها خالدة

في يوم رحيلها (الخميس ٢٧ تشرين ٢ نوفمبر ٢٠١٤)... تبارى العديد من العراقيين في استذكار المطربة اللبنانية نهاوند، استذكروا أغانيها، وحلاوة صوتها، وانطلاقتها نحو الشهرة التي كانت منصتها بغداد.

على الرغم من أن المعلومات شحيحة عن المطربة نهاوند، خاصة أنها اختفت لزمن طويل، إلا أن أغنياتها ما زالت عالقة في ذاكرة العراقيين، ويتغنون بها، لا سيما من الجيل الذي يمكن أن نصفه بـ (القديم)، والذي يصفها بأنها (عراقية بغدادية)، كونها أجادت الغناء البغدادي، ونجحت واشتهرت في أرجاء الوطن العربي به، فقد رحلت الفنانة اللبنانية نهاوند عن عمر ٨١ عاما، ومن الغريب أن موتها تزامن مع رحيل المطربة الكبيرة صباح، حيث تألقت المطربتان فنيًا في زمن واحد، وكانتا صديقتين.

وعبر عدد من الفنانين والنقاد الموسيقيين والإعلاميين عن حنينهم العارم لصوت نهاوند، ورسموا أشواقهم عبر أغنياتها الجميلة، مستذكرين تلك الأيام بالمعلومات التي يحتفظون بها.

فقال الناقد الموسيقي علي عبد الأمير: لارا كيروز التي «تبغددت»، فصارت «نهاوند»... وداعًا للنغم المهذب الرقيق... وداعًا لآخر الأصوات العربية التي داعبتها الروح

المدنية البغدادية بالجمال والعذوبة...

وقال جبار ثابت: حين أرى كل هذا الفن والجمال يموت، ألعن الحياة، ما جدوى أن نعيش إن كان الموت يتربصنا دائمًا؟

وقالت الكاتبة راهبة الخميسي: الله يرحمها صاحبة الصوت الرائع، والأغنيات التي لا تنسى، وللمعلومة: لقد كانت الرائعة نهاوند مناضلة في صفوف اليسار، وأعتقد أنها تعرضت للسجن في سورية.

وقال أمير العاني: هذه الفنانة المبدعة تذكرنا بأننا كنا في يوم ننشد للحب والحياة.

وقال زهير صالح: أسهمت بإثراء الحياة الإنسانية بالجمال والعذوبة والرقة، وتهذيب الذائقة الفنية... نهاوند صوت رائع لم يحالفه الحظ...

وقال الفنان مقداد عبد الرضا: إلى رحمة الله، لدي لقاء تليفزيوني لها، لكن لا أذكر أين حفظته، وليس متوفرًا على اليوتيوب، سريعة الحياة، يبدو أنها أسرع من أنفاسنا.

وقال فاروق البصري: عشقت صوتها كثيرًا، واحتفظت لها بثلاثة أشرطة في مكتبتي، وما زلت أسمعها بين فترة وأخرى، معها أصوات عذبة أخرى مثل: (نور الهدى) و(نرجس شوقي) و(زكية جورج) و(سهام رفقي) و(راوية)، للأسف لم يَعدن مشهورات كزميلاتهن البقية.

أما الصحفي زيد الحلي، فقال: تسجيلاتها مع نرجس شوقي تتصدر مكتبتي، وتذكرني بأحلى سِنيِّ عمري التي

تلاشت مثل الدخان...

وقال وليد عمر العلي: كلمات أغنيتها (يابه يابه شلون عيون). هي لأمير ربيعة. رحمها الله.

وقال عبد الرحمن أطيمش: نهاوند لا يشبه جمال صوتها إلا صوتها، ما كانت صوتًا يطرب، كانت عطر صوت أريج بهيج، غنت (أين ياليل)، وهي من شعر مظهر أطيمش، المعروف باسم مزهر عام ١٩٥٣، وكان مزهر يعبدها حبًا وولهًا، وغنتها بألحانها، وهي مسجلة عند مزهر، وبعد رحيله لم نعثر عليها. الأغنية بدون موسيقى، وجميلة جدًا، ومازلت أسعى لاقتناصها.

فيما قال الصحفي رضا الأعرجي: رحلت صاحبة أغنية السمار والندامى وعشاق السهر «أين يا ليل صباباتي وأحلامي وكأسي»، رحلت نهاوند المطربة اللبنانية التي أحبت العراق، وعاشت فيه لسنوات أواسط خمسينات القرن الماضي، أدت خلالها ألحانًا عراقية، ما زالت تتردد على الألسن... ومن ينسى أغنية: «يا با يا با شلون عيون عندك يابا» التي لحنها رضا علي؟ غيَّبها الموت بعد رحلة مع الحياة دامت ٨١ عاما، فهي من مواليد ١٩٣٣، واسمها الأصلي لارا كيروز، وأطلق عليها الاسم الفني نهاوند لعذوبة صوتها، ذلك الصوت الهادئ المغلف بالحزن والشجن والعاطفة، صباح الطرب حزين بعد رحيل الشحرورة صباح، وليل الطرب أكثر حزنًا برحيل من ناجته بأعذب الألحان، وأضاف: قصيدة (أين ياليل) لمظهر أطيمش رحمه الله... وهذه مقاطع منها:

(أينَ ياليلُ صباباتي وأحلامي وكأسي
أينَ يا سُمارُ أشواقي وآمالي وعرسي
ذهب السُّمَّارُ والكأسُ وآمالي ونفسي
وتأسيتُ فلم يرضَ فؤادي بالتأسي
أسأل اللَّيلَ عن الماضي وحلّوِ الذكرياتِ
أسأل النجمَ عن النادي وعذبِ النغماتِ
أسأل الأحلامَ عن تللكَ الليالي الحالماتِ
أينَ يا ليلُ نداماىَ ومجلى صبواتي
أين مني الطيفُ كالموحي إذا ما الليلُ أمسى
وسقاني الشوقُ آلامَ الهوى كأسًا فكأسًا
قد كرهتُ الليلَ والأحلام والأشواق يأسًا
ليتني أنسى هواكم، ثم أنسى).

وعنها كتبت الفنانة الراحلة سحر طه: من ذكرياتها في العراق تتحدث نهاوند إلى مجلة «فن» عام ١٩٩٦، تقول: «... الفن في بغداد عظمة وإكبار... سجلت في إذاعتها عشرات الأغنيات، مثل: «يا وردة أهواك» لحن سامي الصيداوي، و«بحب كتير السهرية» لحن مصطفى كريدية، وبكل أسف، لا أملك نسخة عنهما. وتتابع، في الحديث نفسه: «في إحدى الليالي، كنت أنقل إبرة الراديو من محطة لأخرى، توقفت عند إذاعة بغداد لأسمع أغنية: «أين ياليل صباباتي»، وكانت بناء على طلب المستمعين، دمعت عيناي فرحًا، فتلك أغنية سجلتها في بغداد، ومن يومها راحت أصابعي تبحث عن تلك الإذاعة، لأنها تقدم الأغنيات القديمة الأصيلة. ومرة أخرى فوجئت من

الإذاعة نفسها بأغنية «الليالي»، فصرخت: رحمة الله عليك يا علية التونسية، الله على الصوت الدافئ، وعندما حاولت تكرارها خانتني أوتاري الصوتية. أجهشت بالبكاء، خصوصًا أني لم أسمع الأغنية منذ زمن طويل جدًا، ولا أملك تسجيلًا لها.

وأضافت: في العراق غنت نهاوند في القصر الملكي، وتقول بأنها كانت الفنانة الوحيدة التي جلست إلى طاولة الغداء مع الملك فيصل، على شرف ضيفه الرئيس اللبناني آنذاك كميل شمعون، والذي كان يشجعها بدوره، ويقدر فنها، وتقول نهاوند: «... أذكر جيدًا ما قاله (شمعون) عني للملك على المائدة، قال: هذه ابنة أحسن عائلة في لبنان».

ويمكن قراءة السيرة الذاتية لنهاوند: رحلت... هذه المطربة التي (تبغددت)، فتوهجت داخل البيئة البغدادية، فنجحت لتميز صوتها وروعة أدائها وإحساسها، فحفظ لها العراقيون أغنياتها، وتباهوا بها بعد أن احتضنوها، وشجعوها، وصفقوا لها، لا سيما أن أغنياتها من الروائع.

في السيرة الذاتية للمطربة، نقرأ أنها ولدت في عام ١٩٣٣، اسمها الأصلي لارا كيروز، وعرفت بالاسم الفني «نهاوند» لعذوبة صوتها، حيث بدأت حياتها الفنية مع فرقة الإذاعة الموسيقية في بيروت، قبل أن تسافر إلى العراق مطلع الخمسينيات، وفيه قدمت أغانيَ لبنانية تميزت بلون العتابا والميجانا والموال، بالإضافة لألحان عراقية، بالتعاون مع أشهر الملحنين في العراق وقتها، وقد لحن لها الفنان رضا علي مجموعة من الأغاني اتسمت بطابع

الأغنية العراقية، فطبقت شهرتها الآفاق، وخاصة بعد أن غنت أغنية (يابا يابا شلون عيون عندك يابا، وأهل البلد ما يدرون عنك يابا) التي أحدثت قفزة كبيرة في الأغنية البغدادية حينما غنتها في إذاعة بغداد عام ١٩٥٤، فنالت شهرة واسعة بسببها، والأغنية كتب كلماتها الشاعر الغنائي الكبير (سيف الدين ولائي)، ولحنها الملحن والفنان الكبير (رضا علي).

وانطلقت من بغداد لتسمو في فضاءات الفن العربي، فتنقلت بين مسارح بيروت ودمشق وعمان، وسجلت لإذاعات هذه العواصم مجموعة من أغانيها الملحنة خصيصًا لها، كما تعاقدت معها إذاعة الشرق الأدنى، واعتبرتها من بين الصفوة المختارة من المطربات اللاتي تعاقدت معهن، وسجلت لها شركة بيضا فون عددًا من الأسطوانات.

اختفت عن الساحة الفنية، وهي في الثلاثينات من عمرها، وتؤكد الأخبار العديدة أنها أحبت شابًا برازيليًا، فتزوجته وباعت كل أملاكها في لبنان، ووضعتها في رصيد زوجها، وسافرت معه إلى البرازيل، وهناك ظهر وجهه الآخر ومعاملته القاسية لها، فحجز جواز سفرها، وسيطر على أموالها، ولم تعد إلى لبنان إلا بعد وفاته في أواخر القرن العشرين، وأنها في عام ٢٠٠٢ منحتها عقيلة رئيس الجمهورية اللبنانية السيدة أندريه لحود باسم رئيس الجمهورية العماد إميل لحود، وسام الاستحقاق اللبناني تعبيرًا عن تكريم الرئيس لحود لكبار المبدعين اللبنانيين

الذين ساهموا في إطلاق الفن اللبناني، وتحديدًا الأغنية اللبنانية لتصل إلى المراتب العالمية.

وقبل سنوات قليلة، أطلت على جمهورها ومحبيها، في (مهرجان جبيل)، وأعادت أغانيها القديمة بتوزيع جديد، كما أنها في السنوات الأخيرة أصبحت مقيمة في إحدى الكنائس مرتلة في الجوقة الموسيقية.

للراحلة تجربة سينمائية، حيث شاركت في الغناء في فيلم «كأس العذاب» مع فاتن حمامة، وإخراج حسن الإمام.

أطلق عليها اسم (نهاوند) تيمنًا بأحد أجمل المقامات الموسيقية، وهو مقام (النهاوند)، لأنه كانت (ذات صوت شجي، يمتاز ببحة خفيفة، لكنه صوت غني بالشجن، يندر أن نعثر عليه عند غيرها من الفنانات)، كما أنها (تمتاز بصوت هادئ مغلف بالحزن والشجن والعاطفة)، وأنها تأثرت بالمطربة السورية ماري جبران، وأصبحت مغنية على هدى موهبتها وفطرتها.

ومن أشهر الأغاني للراحلة «يابا يابا شلون عيون عندك يابا» و(أدلل عليَّ أدلل) للمطرب والملحن العراقي رضا علي، حيث لاقت هذه الأغاني شهرة واسعة، حيث أدتها نهاوند بلون الغناء العراقي الأصيل، وأغنيات أخرى قدمتها للإذاعة العراقية مثل «دخلك يا حسين» و(ياغزيل يا أبو الهيبة) ومواويل ميجانا وعتابًا. و(أين يا ليل)، وهذه الأغنية كانت من ألحانها، وشاركت أيضًا المطربة نهاوند في حفلات غنائية على مسارح دمشق وعمان وبيروت.

وغنت: (تعال الورد بينادي والفل عليك، تعال واشترِي وهادِي واقطف بإيديك، حبيبك المش راضي حيحن عليك، تعال تعال تعال دا أنا قلبي عليك).

وكذلك غنت قصيدة (أين يا ليل صباباتي وأحلامي وكأسي)، ويذكر البعض من أبناء ذلك الزمان أنه سمع المذيع، وهو يعلن أن الأغنية من كلمات وألحان المطربة (نهاوند)، لكن الأستاذ فاضل الخالد، والحافظ للكثير من الذاكرة الفنية العراقية، يقول (أن المذيع في إذاعة بغداد... قال بأنها من ألحان المطربة نهاوند... في العام ١٩٥٤)، فيما يؤكد البعض أن القصيدة للشاعر والفنان الراحل (مظهر أطيمش)، طيب الله ثراه، العراقي الذي عاش سنوات طويلة في مدينة كربلاء مدرسًا لمادة الرسم في ثانوية كربلاء للبنين.

فيما يقول العراقي رازن الشبو: أن قصيدة (أين ياليل) هي للشاعر والأستاذ البشبيشي من مصر، ودرس اللغة العربية في العراق في الخمسينيات، وأنا متأكد مائة بالمائة، وقد قال لي أحد تلاميذه، الله يرحمه، وقد أرسلت له نهاوند شكرًا وتقديرًا، وكان قد عرضه على طلابه بتوقيعها وصورتها.

وكذلك أغنية (شنهو السبب يازين)، وأغنية (زينة الزينة)، و(يا الله سوق يا طيار)، و(يا ميجنة)، و(أدلل علي أدلل) كلمات سيف الدين ولائي، وألحان الفنان رضا علي، وغنت كذلك (يا فجر لما تطل... ملون بلون الفل)، و(يا حسين دخلك يا حسين وينك رايح كَلي وين)،

وأغنية (سلامات... سلامات يا زين)، وأغنية (وين القى الحبِّيب وأغنية قمر الحبايب).

كما سجلت أغنية لرمضان بصوتها في إذاعة بغداد بعنوان: (يا شهر مبارك يا رمضان).

صباح الخير يا لولة

أغنية صباحية، كانت دائمة البث في الصباحات البغدادية من إذاعة بغداد، وكان الناس يجدون فيها متعة، فضلًا عن السرور الذي تبثه كلمات الأغنية، وصوت المطربة الأخاذ.

ذكّرني صديق بهذه الأغنية، أغنية (صباح الخير يا لولة)، وما إن سمعتها مجددًا... حتى لا أعرف ما الذي استجد في صفحات الحنين في خبايا النفس، وجدتني أغني، ومعي راحت تغني كل السنوات التي كانت مترعة بموسيقى وكلمات هذه الأغنية، فضلًا عن الصوت المميز للمغنية، السنوات البعيدة جدًا عادت تركض حافية مسرعة لتهز مثل عاصفة... أغصان شجرة تكاد تذبل.

هذه الأغنية التي كنا صباح كل يوم نسمعها من الإذاعة العراقية، سواء إذاعة بغداد أو صوت الجماهير، يوم كان الصباح يتسيده الراديو فقط، والناس تحرص أن يكون صباحها الهادئ الجميل مقرونًا بالراديو، فتتناول الأصابع عتلته الدائرية الصغيرة بحثًا عن موجات تتغنى بالصباح، وما أجملها من صباحات رائقة مؤثثة بقيام الأمهات بتحضير الفطور للآباء العمال والموظفين، وللأبناء طلاب المدارس، كأن الأغنية تخاطب كل سيدة باسم (لولة) كاسم دلع، ولأن الأغنية مميزة في كل شيء، فإنها كانت محببة جدًا من الجميع، مميزة ومعبرة، وتفتح أبواب

الأمل لسامعها بتميز الصوت وكبريائه، وبمعنى الكلمات التي تتبارك باسم الله، وتستذكر الخير، كانت هذه الأغنية هي أغنية الصباح الأولى للعراقيين، يترنمون معها، ويحفظونها، ويتفاءلون بها، إنها أغنية أصبحت لازمة في أيامهم، لا بد أن تتفتح صباحاتهم على سماعها.

قلت لصاحبي: (يا سلام... كيف استطاعت جوانحك أن تستعيد هذه الأغنية، فتطلق لها العنان)، فقال: محض مصادفة، حين رحت أقلب صفحات كتب الأيام المخبأة في طيات الذاكرة، فوجدت شريط الأغنية، وقد استباحته الأتربة، وغطاه النسيان، فتحركت نتوءات في قلبي، وهامت خلاياي الحسية).

قلت: تلك أغنية استوطنت الذاكرة، وحفرت لها حكايات، لكن الأزمنة الغارقة في الانشغالات والسرعة والهموم، أسدلت ستائر النسيان على جماليات عديدة، لا يمكن طبعًا من يسمعها الآن، ولا تشرئب أعناق حنينه وأشواقه وتخيلاته إلى الأوقات التي كانت الأغنية تملأها، ولا أخاله لا يستبيح مشاعره، ويطلق زفيرًا، إنها أغنية صباحية يومية ضاربة في السنوات، غنتها المطربة المصرية (ملك محمد)، فظل صوتها ولحن الأغنية، وكلماتها هائمة في عوالم الخلود، على الرغم من غيابها التام على الأثير، إذ إن الإذاعات ما عادت تتعامل مع أغنيات الصباح الجميلة، وصارت تفاجئ الناس بأصوات الصخب، وأغاني الاسفاف، وإيقاعاتها المبتذلة، فيما نحن نتساءل الآن: أين أغنية الصباح؟ وتأتي الإجابة: لا أغنية للصباح، وحتى

الراديو أكلته الفضائيات الدائمة البث، والتي لا تعرف الليل من النهار، وقد اختلط نابل برامجها بحابلها، تلاشت أغنية الصباح، ولم يعد الناس يستمعون إليها، لأنها مثلما أصبح الراديو في خانة الذكريات.

تقول كلمات أغنية (صباح الخيريا لولة):

(صباح الخيريا لولة... صباح الخيريا لولة
يا قاصدين باب الله... على الله كل متعسر
ومن يقصد جناب الله... يعيش العمر متيسر
ولا ينظام يا لولة... ولا ينلام يا لولة
صباح الخيريا لولة... صباح الخيريا لولة
صباح الخيريا لولة... صباح الخيريا لولة
بحمدك ساحة الدكّلة... تروي أرضنا السودة
وتسكّي الخوخ أوعوده بروحتها وفي العودة
وتسكّي الورد يا لولة... وأنتِ الورد يا لولة
صباح الخيريا لولة... صباح الخيريا لولة
صباح الخيريا لولة... صباح الخيريا لولة
يعزّ من يبات قانع... من الرحمن يتطلب
يذلُّ من يبات طامع... يبات الليل يتكّلب
على الجنبين يا لولة... ولا يرتاح يا لولة
صباح الخيريا لولة... صباح الخيريا لولة
صباح الخيريا لولة... صباح الخيريا لولة).

بقي أن نعرف أن هذه المطربة من مواليد ١٩٠٢، وتاريخ وفاتها تحديدًا ٢٨-٣-١٩٨٣، أطلق عليها محمد التابعي لقبها الذى اشتهرت به، وهو (مطربة العواطف)، أما اسمها الفني، فاختاره لها محمد حسني، والد الفنانتين سعاد حسني ونجاة الصغيرة، وقد بدأت الغناء طفلة، وهي فى عمر العاشرة، ومن ثم عملت فى تقديم فقرات فى الأفراح، وكانت تقلد منيرة المهدية.

المطربة ملك محمد، هي من جمهورية مصر العربية، سكنت العراق لفترة ما، وكانت لها أعمال فنية، أبرزها أغنية (صباح الخير يا لولة). اسمها الحقيقي زينب محمد الجندي، بدأت كمغنية عام ١٩٢٥ عندما كانت تغني الطقاطيق والأدوار بين فصول مسرحيات فرقة عكاشة، وفي كانون الأول / ديسمبر ١٩٢٥ اشتركت بالغناء فى مسرحيات فرقة الجزايرلي وفوزى منيب بمسرح البسفور، وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٢٦ انضمت كمطربة وممثلة إلى فرقة أمين صدقي، ثم عادت إلى تختها لتغني الطقاطيق بكازينو البوسفور، ولتحيي حفلات الجمعيات الخيرية، كونت بعد ذلك فرقة خاصة بها، للغناء والتمثيل المسرحي، وكانت تقدم أعمالها على مسرح البوسفور عام ١٩٣٠، ومن هذه المسرحيات: الطابور الأول، طرزان يجد أم أحمد، مايسة، مدام بترفلاي. وبعد ذلك، استأجرت قطعة أرض كانت مملوكة للأميرة شويكار، وأقامت عليها مسرحًا، أطلقت عليها (مسرح أوبرا ملك)، وافتتحته يوم ١٠-١-١٩٤١ بأوبريت (عروس النيل).

وظلت ملك تعمل فى المجال الفني، حتى توقفت نهائيًا عام ١٩٥٢ بعد حريق القاهرة الذى دمَّر مسرحها تدميرًا كاملًا، وانتقلت إلى رحمة الله.

مطربات العراق ومطربوه...
في شهادة للشاعر المصري صالح جودت

بين بغداد والغناء علاقة، لا يمكن لأي أحد مهما كان بليغًا أن يصل إلى وصفها، فهي علاقة مثلى تتمدد مثل كلمات الغزل الشغوف بنفسه، ومثل الألحان الشجية من قلب عاشق حين تصبح نبضاته أوتارًا، هذه العلاقة ليس من السهل ترجمتها، لأنها نابعة من قرارة الوجد، ومضافة مع الطين الحريِّ للأرض الخصبة، وحين يتألق التاريخ العراقي، يبزغ منه قمر الغناء مشعًا، مضيئًا مساحات الروح، ومتشابكًا مع ذاكرة الناس، يرسم أوجاعهم بألحانه، ويمتص همومهم، ويتنفس معهم طموحاتهم، ولم يكن الغناء العراقي إلا ملتزمًا بالصدق، ساميًا بأضواء شجنه، وصادرًا من معنى خالد، وإذ يكتب العراقي عن أهله، فقد يوصف بالمبالغة والغلو، ولكن حين يكتب غيره، فلا نقول إلا أن ما يكتبه شهادة.

وهذه أوراق قديمة... لكنها خالدة، وتبقى كلماتها تهب على الذاكرة لترطب أراضي الحنين إلى غناء عراقي يصدح في الآفاق، ويؤكد أشياء عديدة عن بغداد المدينة التي كانت دوحة الفن ووجهة الفنانين، هذه الأوراق كتبها الشاعر المصري المعروف صالح جودت بعد زيارته بغداد مطلع عام ١٩٦٨، ونشرها في مجلة (الكواكب) المصرية

في ١٦/٤/١٩٦٨، وفيها يتحدث عن المطربات العراقيات اللواتي كان لهن حضور مميز على الساحة الفنية العربية، ويرسم انطباعاته عن عشق العراقيين للغناء وللمطربة أم كلثوم.

يقول صالح جودت: عرفت من أهل الغناء في بغداد ثلاثة أجيال لامعة، أولها: جيل المطربة الكبيرة سليمة باشا، كما كانوا يسمونها في العهد الماضي، لأن أحد رؤساء الحكومات في ذلك العهد افتتن بصوتها، فخلع عليها رتبة الباشوية، وقد اعتزلت سليمة مراد الغناء، ولكننا (أحمد رامي وأنا) حينما كنا في مؤتمر الأدباء ببغداد منذ بضع سنوات، تمنينا على صديقنا الأديب الأستاذ إبراهيم الحاج رزوقي أن نسمع هذا الصوت الذي طالما سمعنا عنه، ولم نسمعه، فسمعناها ورأيناها وحدثناها، فإذا هي روح ومرح وتاريخ، وصوت لا يزال يثير الشجن في أعماق النفوس. وثانيها: جيل الفنانة ذات الجاذبية العاطفية عفيفة إسكندر، وقد قضت عفيفة إسكندر عاما أو عامين من زهرة عمرها في القاهرة، وغنت في إذاعتها، وعلى مسارحها، ولا يزال الكثير من أغانيها عالقًا في أذهان الذين عاصروا الثلاثينات والأربعينات من (هذا القرن). وثالثها: جيل جديد على رأسه أحلام وهبي ومائدة نزهت، ومائدة تميل إلى غناء الشعر، وقد سمعناها في سهرة من سهرات مهرجان الشعر في بغداد تغني (أن العيون التي في طرفها حور/ قتلننا ثم لم يحببن قتلانا، يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به/ وهن أضعف خلف الله إنسانًا). أما أحلام وهبي... فهي خير

من يغني الأغنية الشعبية العراقية، ولها صوت يتميز بالدفء، و(البحة) التي يصفها أحمد رامي بأنها مثل (شق القمر) في عود القصب الحلو، وأحلام تعيش نصف أيامها في القاهرة، وقد قدمتها إذاعة القاهرة عند مجيئها لأول مرة في بعض حفلات أضواء المدينة، ولقيت أغانيها نجاحًا شعبيًا كبيرًا، ثم ركنتها لسبب لا أعلمه، فليتها تعود...!

ويستطرد الشاعر صالح جودت في حديثه ليتحدث عن مطربي العراق قائلًا: هؤلاء مطربات العراق، أما مطربوه، فعلى قمة هذا العصر، منهم الفنان الكبير محمد القبانجي، عبده الحامولي هذا العصر في أكثر صفاته، في عظمة الصوت ومرونته، في ارتفاعاته وانخفاضاته، في عاطفته الساحرة الأخاذة، في علمه الموسيقي الواسع، في إحساسه لأدوات الغناء الثلاث: النظم واللحن والأداء، فهو ينظم يلحن معظم أغانيه، وفوق هذا... في كرامته، فمحمد القبانجي يجل الغناء عن أن يكون موردًا للكسب، ويرى أن الذي يحب الغناء من قلبه لا يجوز له أن يحترفه، بل يجب أن يجعله هواية طول العمر، ولهذا فإن القبانجي مع أنه مُغنٍّ في تاريخ الغناء العراقي، لا يعيش من الغناء، بل من تجارة الملابس، كما كان يعيش عبده الحامولي.

وأهل العراق يعشقون الغناء، وبغداد لا تنام في ليالي أم كلثوم، وأم كلثوم حبيبة كل بلد عربي، ولكني لا أعتقد أن أحدًا في الدنيا يسمعها كما يسمعها أهل العراق، وأذكر ليلة أننا دعينا، أحمد رامي وأنا، في بيت من البيوت الكريمة في بغداد، وأدارت ربة المنزل جهاز التسجيل على أغنيات أم

كلثوم، فلما أخذها الشجن، جلست على البساط، تحت جهاز التسجيل، تقبل الأرض التي تحمل صوت أم كلثوم وعيناها تفيضان بالدموع، رويت هذه القصة لأم كلثوم، وقلت لها: هكذا يحبك أهل بغداد، وقد غنيت في لبنان وباريس والمغرب، وستغنين في تونس والسودان، فلماذا لا تغنين في بغداد؟ فقالت من قلبها: يسعدني أن أغني في بغداد... ولكن أحدًا من المسؤولين في بغداد لم يوجه لي مثل هذه الدعوة، وأنا على استعداد لتلبيتها.

تلك هي كلمات الشاعر صالح جودت قبل نحو أربعين عاما، وهي ليست بعيدة، وبقدر ما تحمل من كلمات صادقة، فهي ترسم صورة لبغداد، وألوان الغناء البهيجة، ورموزه الخالدة من المطربات والمطربات، وما علينا ونحن نقرأ شهادة صالح جودت إلا أن نتأمل، ونستلهم، ونبتسم لوجه بغداد الحبيب.

برنامج (ساعة وغنية)... أيام الحرب اللبنانية!

يُعد برنامج (ساعة وغنية) من أشهر البرامج التي استحوذت على متابعة كبيرة من مشاهدي التليفزيون، فضلًا عن أنه قدم أصواتًا غنائية، وأغنيات وشمت في الذاكرة، وصارت من الذخائر التي يستمتع بها المستمع لها.

كان البرنامج يعرض عندنا في تليفزيون بغداد كل سهرة يوم السبت من عام ١٩٨٣، هذا البرنامج التليفزيوني المنوع عدد حلقاته ١٣ حلقة، من إنتاج عام ١٩٧٩، وهو فكرة وإشراف إلياس الرحباني، وتضمن أكثر من ١٣٠ أغنية، تم تسجيل الأغاني صوتًا في استوديو بعلبك في بيروت، وحصل كل ملحن على مقابل ١٠٠٠ ليرة لبنانية في اللحن الواحد، وتضمن العديد من الأغاني من تلحين الأخوين الرحباني وزياد رحباني، الذي رفض أن يكتب اسمه على ألحانه، وكذلك العديد من الأغاني التي تم تجديدها بمشاركة العديد من الفنانين، ومن بينهم نصري شمس الدين، صباح، إحسان صادق، ملحم بركات، رونزي، فاديا طنب الحاج، عايدة شلهوب، جوزيف ناصيف، رجا بدر، منى مرعشلي، وغيرهم، حتى قيل أن هذه الأصوات اللبنانية امتازت بروعتها، وأنها لن تتكرر.

البرنامج من تقديم الإعلامي الراحل رياض شرارة (١٩٤٠ - ١٩٩٤)، والفنانة هدى حداد، شقيقة الفنانة فيروز،

وإخراج أنطوان. س. ريمي، ويتضمن إلى جانب الأغاني استضافة العديد من الفنانين المشاركين في البرنامج، وما زال المطلع الغنائي لمقدمته ماثلًا في الذاكرة (موعدنا معكم ساعة وغنية)، بذللك الإيقاع الجميل والأصوات العذبة، والمتأمل لواقع البرنامج سيجد أن الديكور بسيط ومساحة الاستديو صغيرة، والأزياء التي ترتديها المغنيات عادية، وربما تتكرر أيضًا.

لكن البرنامج تكتنفه الأسرار العديدة التي منها أنه أُنتج عام ١٩٧٩، وأول مرة عرض على تليفزيون لبنان في أوائل الثمانينات، وقام بإنتاجه تليفزيون الأردن وقت الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥- ١٩٩٠)، التي جعلت من لبنان خرابًا ورعبًا وموتًا، كان البرنامج ينتج حياة تقف بوجه الحرب والدمار، كان كل قذيفة مدفع تقابلها أغنية مفعمة بالعذوبة والجمال، كل موت ينتج حبًا للحياة، كل غروب لشمس لبنان يقابلها سطوع لقمر الأغاني الجميل الذي يضيء بالأمل ليالي الحالمين بوطن يرفرف السلام على ربوعه، هذا البرنامج كان يتحدى الموت والدمار، وكل روائح الكراهية، فأنتج أطيب العطور التي تضوعت روائحها لتظل إلى الآن مفعمة بذلك الخلود لتلك الأغاني التي تحمل تاريخ الحرب الأهلية المدمرة.

سعدي الحلي... صار النصر محبوبنا

في وقفة لطيفة في صالة الاستقبال بفندق المنصور ميليا أيام مهرجان بغداد السينمائي الأول في شهر شباط / فبراير ٢٠٢٤، التقينا بشكل عفوي: المخرج فلاح زكي، المنتج سمير ذنون، والصحفي قحطان جاسم جواد وأنا، وتجاذبنا الحديث، فجاء ذكر المطرب الكبير الراحل سعدي الحلي، وهنا قال فلاح زكي: أنا السبب في ظهور أغانيه في التليفزيون والإذاعة، بعد أن كانت لا تظهر ولا تبث.

وسرد فلاح القصة التي قال أنه يحكيها لأول مرة.

قال: أثناء الحرب العراقية الإيرانية في السنة الأولى، عام ١٩٨١، وكانت الحرب مشتعلة، جاءني مساعد إنتاج اسمه (علي حاتم)، وقدم لي قداحة ماركة (رونسون) الفرنسية، وكانت غالية ومشهورة آنذاك، فقلت له (هاي شنو)، فقال: أرسلها لك واحد يحبك، قلت له: ولكن هذه رشوة، وأنا لا أقبل الرشوة.

يقول فلاح: (كنت حينها معاون رئيس وحدة، ومخرجًا).

فطلبت منه أن يخبرني عن الشخص الذي بعثها لي، فقال لي: أبو خالد، فقلت له مستفهمًا: من أبو خالد؟ فقال: سعدي الحلي، قلت: وماذا يريد؟ وأين هو الآن؟ قال لي: جالس في مقهى أبو جواد بالصالحية، فأخذت القداحة، وذهبت إليه، وجلست بالقرب منه، وهو لا يعرفني:

- السلام عليكم؟

- وعليكم السلام...

نظرت إلى سعدي، وقلت له: هذه قداحتك، لكنه فزَّ (اخترع)، وقال: أستاذ فلاح؟

قلت له: نحن لا نأخذ رشاوى، وأنت فنان كبير...

فردَّ عليَّ قائلًا: أنا فنان كبير، وممنوع أطلع لا بالإذاعة ولا بالتليفزيون.

فقلت له: هل تريد أن تطلع؟ طيب... اعمل أغنية على الحرب، قال (صار من باجر)، وبالفعل جاء في اليوم التالي ومعه الأغنية: كلمات سعدي الحلي، ألحان سعدي الحلي، وغناء سعدي الحلي، فأعطيتها لعماد بهجت، قلت لعماد: لبَّسه ملابس عسكرية، وسجل له في استوديو خمسة، وبعد ذلك نزل صور من أرشيف صور من المعركة.

(الأغنية كانت (صار النصر محبوبنا / يمشي بجميع دروبنا / يا جيشنا الغالي أنت البطل...).

وسجلت الأغنية، وصورت وظهرت في التليفزيون، فضربت في الشارع ضربة قوية، في وقتها وزير الدفاع قال: عندما تطلع هذه الأغنية، الجبهة تحمى ٥٠٪ زيادة، فالجنود كلهم يحبون سعدي الحلي.

وبعد أيام... خابرني حميد سعيد، قال لي: أين سعدي الحلي؟ فقلت له: لا أدري، قال: أرسلوا في طلبه، فالرئيس يريد يشوفه!!

ثم جاءت سيارة، وأخذت سعدي، قلت له: سأبقى في الدائرة أنتظرك إلى أن تجيء، وتخبرني الموقف، وما حدث.

راح سعدي ورجع، وأنا أنتظره، فحدثني عما جرى قائلًا: أول ما دخلت كان الريس يضحك، فقال لي: (كلشي ما عندي وياك... تعال اكعد) كعدت، قال لي: (احكي لي هاي السالفة مالتك صدق أم كذب؟)، فقلت له: والله سيدي الفنانون الآخرون حتى لا أنافسهم يسقطون بي بهذه الطريقة، سيدي... حرام (ولا عندي هيج شي) دعاية وانتشرت، وكل العراق صاريعرفها.

يقول فلاح زكي: من هنا... صارت أغاني سعدي الحلي تظهر في الإذاعة والتليفزيون، العاطفية منها وغير العاطفية.

فلاح زكي يعلق: في ذلك الوقت الإذاعة والتليفزيون لا يصرفان شيئًا، وعيشة الفنانين على الحفلات والأعراس، لذلك؛ تجد المنافسة بينهم والتسقيط!

دلال شمالي

حين رأيت صفحتها على (الفيس بوك) قررت مراسلتها ومحادثتها، قررت أن أتحدث معها، مع المطربة اللبنانية (دلال شمالي) مواليد (١٩٤٠-).

شيء استجمع الماضي بصوتها الجميل الذي يمتلك تفردها وشكلها المميز، في أيام السبعينيات التي حطت رحالها في بغداد لتغني وتتميز بغنائها... وطارت شهرتها، خاصة بسبب الأغاني المميزة التي أحبها الناس.

قلت لها: أنت عراقية الروح والقلب، فقالت: طبعًا، وشكرتني.

وقالت وقد ذكَّرتها بأيامها في بغداد: حضرتك عراقي... وتعرف أمجادي عندكم.

وأشارت إلى يوم غنت في بغداد والموصل، وقالت: وقامت الدنيا حينها.

وقالت، وكأنها تستذكر تلك الأيام: كل يوم من عمري جميل.

كان الحديث رحلة استذكارية بسيطة مع عدد من أغنياتها العراقية التي ما زالت مسموعة...

دلال شمالي... مطربة لبنانية كان لها في بغداد حضور مميز، وغنت العديد من الأغاني العراقية، والتي أنا شخصيًا

كنت قد حفظت أغنيتها الشهيرة (لهجر قصرج واسكن بيت الشعر/ واعود لهلي بعد ما شفت القهر)، مثلما أعجبت بأغنيتها مع فاضل عواد (لا خبر) التي ردت عليه بلحن طالب القره غولي في دويتو بحوار (سنتين أوديلك خبر وماعينك النه التفت / وأنوبه جفية مهر وتطلبها مني وشربت)... ولا يمكن أن ننسى أغنيتها (من قاسيون أطل يا وطني، فأرى بغداد تعانق السحبا) للشاعر خليل خوري، وألحان سهيل عرفة.

كنت أعتقد كما يعتقد الكثيرون أنها متزوجة من الشخصية العراقية المعروفة إبراهيم الزبيدي، لذلك؛ كنت خجلًا من من طلب صداقتها على الفيس بوك، ثم استحييت؛ لأنني لم أستأذنه لأنه صديقي، لكنني فوجئت أنها ليست زوجته، فيما أغلب العراقيين يقولون أنها زوجته.

وحين سألتها لم تجب، لكنني بالحدس وعدم الإجابة خمنت أنها ليست زوجته، وللتأكد، قررت أن أوجه السؤال مباشرة إلى الأستاذ الزبيدي، فردَّ عليَّ قائلًا: (يا أخي العزيز، ما قالته هو الحقيقة، كنا شريكين في الإنتاج التليفزيوني، وسافرنا معًا وأقمنا معًا فترة، ومسألة الزواج وما لفق حولها من اختراع مخابرات برزان، وختم حديثه بالقول: صدقني، هذه هي الحقيقة، مع كل احترامي الشديد للسيدة دلال).

هذه المعلومة هي المهمة، وإن كان الناس مُحقين في تصوراتهم للعلاقة الجيدة بين الاثنين.

أغنية مُحيِّرة!

هذه الأغنية التي حيرتني كلماتها بالفعل اسمها (ردي بينا)، وهي مشهورة من زمن بعيد، غناها المطرب كمال محمد، من كلمات عباس جيجان، حيث يقول في مطلعها:

(ردي بينا تونه يا دنيا كبرنا

تونه يا دنيا صدگ ورد عمرنا

توهن دموع الفرح فاضن بدينا)...

طيب... لماذا تريد الدنيا أن ترد بك؟ وأنت تعترف أنك كبرت، وتجاوزت صغرك، وأن عمرك للتوِّ أينعت وروده، إذن... ما أنت تعترف أنك حاليًا تغيرت أحوالك نحو الأفضل، خاصة أن معنى (ردي بينا) هو الرجوع إلى ما قبل هذا الذي هو جميل وطيب وسعيد! إنه يطلب من الدنيا أن ترده إلى الماضي الذي لم يكن جيدًا بالنسبة له.

أعتقد أن الشاعر رمى كلمات العنوان (ردي بينا) على عواهنها، وأعجبه الإيقاع، ثم مشت كأغنية، خاصة أن لحنها جميل!

الموسيقار منير بشير... هناك من لا يحبون عزفه!

من غرائب الأسرار التي يمكن سماعها أن هناك الكثيرين من متذوقي الموسيقى، لا يحبون عزف الموسيقار منير بشير (١٩٢٨ - ١٩٩٧) على العود! ولا يجدون في عزفه ذلك الرقي والإبداع الذي يحتفي به، وهو صاحب المكانة المميزة، والعلاقة الرائعة مع العود، والشهرة الواسعة، بدأ الإجهار بهذا، وشهدت سنوات أواسط الثمانينيات من القرن الماضي، مثل هذا الكلام الذي وصل إلى مسامع الموسيقار منير بشير.

لكنه لا يتأثر به، حيث كان الكثيرون يعلنون ويجاهرون أنهم لا يفهمون شيئًا من عزفه، أو أنهم لا يحبون عزفه، ولا يطربون له، بالمقارنة مع عزف شقيقه جميل بشير (١٩٢٠ - ١٩٧٧)، بل إنهم يزيدون على ذلك بقولهم أن عزف منير بشير لا ينسجم مع رغباتهم، ولا يتعاطف مع حاجاتهم! حتى إن الأمر وصل إلى حد اتهامه بـ (الضلالة وشق الطاعة!) حتى بات الأمر مزعجًا للكثير من عشاق منير الذين يجدون فيه عازفًا بارعًا، ويمتلك عقلية عبقرية.

وقد انبرى الناقد الموسيقى الراحل سعاد الهرمزي (١٩٢٧ - ١٩٩٨) للدفاع عنه قائلًا: (عازف خطير، إن لم يكن من أخطر العازفين على الإطلاق).

موضحًا: (إن فن منير بشير في أصابعه وفي عقله أيضًا)،

وقال أيضًا عن الذين يجاهرون بالقول ضد عزفه إنه (كلام صريح وصحيح، وقد يكون صادقًا أيضًا، ومنير بشير نفسه لا تركبه الدهشة، ولا يمتلكه العجب، فكل إنسان حر في أن يسمعه أو لا يسمعه).

ودافع الهرمزي عنه بشكل كبير ومثير، رادًا الاتهامات عنه: (الخلاف... في العقل المدبر الذي يملكه منير بشير، ولا يملكه البعض... هوة سحيقة، وتنافر في الفهم، وتقاطع في الرؤية، الكثيرون لا يحبون عزف منير بشير لهذا السبب، يمكن أن يكون حاجزًا بين من يملك العقل المدبر، وبين من لا يملكه، أو بين من يملك ذلك العقل وبين من لا يملك إلا نصفه).

لذلك؛ استأنسنا برأي الباحث والناقد الموسيقي علي عبد الأمير عجام لتوضيح ذلك. فقال: القضية ليست قضية حب أم لا. بل قضية أسلوب ومفهوم، فالراحل الكبير كان يؤكد على أسلوب الارتجال، دون غيره، بوصفه أصل الموسيقى العربية والشرقية ليس في العزف وحسب، بل في رفضه التدوين الموسيقي للأشكال التقليدية والتراثية، حتى إنه كان يرفض أسلوب الدراسة الموسيقية الحديثة، فضلًا عن كراهيته غير المعلنة بوضوح للأشكال الموسيقية المعاصرة وفكرة التأليف الذي يمزج بين موسيقى الشرق والغرب.

وأضاف: عزف منير بشير قوي ومؤثر، لا أحد ينكر هذا، لكنه يظل محدود التأثير وفق قالب شبه ثابت، بدا مخالفًا لروح العصر الاتصالية ما بين الفنون والثقافات. وتابع:

اليوم صارت الموسيقى العربية المعاصرة في الغرب جزءًا من ثقافة موسيقية اتصالية، وهو ما كان الراحل يرفضه بقوة، ورأيه محترم، ومقدر في هذا الجانب.

أغنية (يا الماشية بليل لهلج)!

حكاية هذه الأغنية... ظريفة وطريفة في الوقت نفسه، لأن محاولة (صناعتها) غريبة بعض الشيء، وهي تنم عن أشياء كثيرة، عن معاناة المطرب بالدرجة الأولى من أجل الحصول على كلمات جيدة يغنيها، كان ذلك في العام ١٩٤٨.

حين زرت المطرب حمدان الساحر (١٩٣٠ -٢٠٠٧) في بيته عام ٢٠٠٠، حدثني عن ظروف وتفاصيل حصوله على كلمات أغنية (يا الماشية بليل لهلج).

قال: كنت أعرف الشاعر الغنائي داود سلمان أحمد، المعروف بـ (أبو عادل)، وكنت أقول له: اكتب لي أغنية، ويقول لي: عندي لك أغنية (يا الماشية بليل لهلج). فأردُّ عليه، وأقول له: (الله يخليك أبو عادل، أريد أغنية عاطفية، لكنه يرد، ويقول لي: (عندي لك يا الماشية...!)، ويرفض أن يعطيني غيرها حتى زهقت روحي، وفي يوم من الأيام ذهبت إليه في منطقة (الصدرية)، وجلست معه في المقهى، فطلبت منه كلمات أغنية عاطفية، ومن جديد لم يرد بغير (يا الماشية...!)، قلت له: أمري إلى الله، أعطني إياها، لكنه قال: لم أؤلفها بعد! فصرخت: كيف؟ فقال: سأكتبها الآن!

وأضاف: ثم راح يطلب مني أن أجمع له علب السكائر

الفارغة ليكتب عليها، وصرت أبحث له في الأرض عن (باكيت) فارغ، وأجلبه إليه، ليكتب عليه كلمات الأغنية، وصار يكتب ويقول: (هذا الرد)، وهذا (الكوبليهات)، وهذا (الموال)، وهكذا حتى انتهى من الأغنية.

وتابع: أخذت الكلمات منه وهي مكتوبة على علب السكائر الفارغة، وطرت بها، وأنا في الطريق كنت أدندن بها، ثم عملت على تلحينها بالشكل البسيط، وطبعًا كان ذلك من دون آلة موسيقية، ومن ثم غنيتها، وذهبت إلى دار الإذاعة، وكانت هناك لجنة فحص مؤلفة من السادة: محمد مرهون، منير الذويب، روحي الخماش ورئيسها علي حيدر الركابي، ووافقت اللجنة على غنائها، وحددوا لي يومًا، فكان ذلك صباح يوم جمعة من شتاء عام ١٩٤٨، وغنيتها على الهواء مباشرة، ونجحت الأغنية نجاحًا كبيرًا على مستوى العراق، وصارت أغنية الموسم، وانتقل صداها إلى الوطن العربي، ثم سجلتها لإذاعة لندن العربية، واشتهرت الأغنية، واشتهرت معها، وكان ذلك اليوم لا ينسى.

وأوضح الساحر: ومن الطريف أن هذه الأغنية غناها العديد من المطربين العراقيين والعرب، غنتها لميعة توفيق، وغنتها المطربة راوية المصرية من إذاعة دمشق بدون أن أدري، وغنتها المطربة أشواق زوجة المصور إلياس جموعة، وسجلتها على أسطوانات بيضافون في بيروت، وغنتها نجاح سلام بعد أن طلبتها من روحي الخماش، وغنتها سليمة مراد، وسعدي البياتي، وسعدي توفيق، ومطرب فلسطيني اسمه فهد نجار، كما غنتها أمل خضير، وغناها رياض

أحمد، كل هؤلاء غنوا (يا ماشية بليل لأهلج / حولي عدنه الليلة، بعيد الدرب شيوصلج هواية المسافة طويلة) التي اعتبرها من أجمل الأغنيات، وما زلت أتذكر أيامها بمسرة.

يذكر أن الاسم الحقيقي للمطرب الكبير حمدان الساحر هو (أحمد سلمان العبيدي)، وقد اختاره لوجود فنان يحمل الاسم ذاته، وهو الفنان الكبير أحمد سلمان (مطرب الأغاني السياحية المشهور) الذي كانت تربطه به صداقة وزمالة فنية، وقد سبقه باختيار اسمه الفني (أحمد سلمان) اسمًا فنيًا له عوضًا عن اسمه الأصلي.

وقضى الفنان الراحل فترة طويلة من حياته في دولة الكويت، وكان موظفًا في الإذاعة والتليفزيون الكويتية، وعاد إلى بغداد بعد انتهاء الغزو العراقي للكويت، ولم تشفع السنين الطويلة التي قضاها في الكويت له لتبرئته من وزر الاحتلال، لأنه عراقي، وكان يعاني رحمه الله من مرض السكري الذي أثر على بصره، وأجريت له جراحة ليزرية فاشلة في مدينة الطب ببغداد انطفات بسببها إحدى عينيه كما عانى من محاربة النظام السابق، لأنه كان يعمل في الكويت.

ومن أشهر أغانيه (رمانتين افد ايد ما تلزم)، (جينا لبابكم يا حباب جينا)، (غالي والنبي غالي)، (داده اسمعي دادا)، (اليوم إله يومين ما مر علي)، وغيرها.

فريد الأطرش... صورة في الذاكرة

فيما مضى من الزمن، كانت هناك صورة للمطرب الراحل فريد الأطرش (١٩١٠ – ١٩٧٤) تستهويني أكثر من غيرها في العديد من مراحل حياتي، بل كانت الأكثر انتشارًا في بغداد من سواها خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات تحديدًا، وإن صرت لا أراها في سنواتنا الأخيرة إلا نادرًا، وهي من الصور الرائعة لفريد وهو يحتضن العود، ولأنها التقطت له في سنواته الأخيرة، وكنت أراها بحجم كبير مؤطرة ومزججة في العديد من الأماكن، لا سيما المقاهي، وفي المحال التجارية، ولا أستغرب كثيرًا، لأن العراقيين بطبعهم (كانوا) يحبون الطرب الأصيل والجميل، وقد كان فريد يمثل شكلًا من أشكال هذا الغناء، وأنا وإن كنت أعشق أغاني عبد الحليم إلا أن أغاني فريد كان لا بد منها عزفًا وغناء، وكنت أجد في ما أسمعه من عشاقه مناداته (أبو وحيد) صورة من ذلك التحبب اللانهائي.

هذه الصورة إن تأملها عاشق سيسمع عزفًا على العود تهتز له مشاعره، أغمض عينيك، واسمع وأنت تقف قبالتها، الصورة ستتحرك في خيالك، وتهب عليك رياح موسيقى (الربيع) أو (أول همسة) أو (أضنيتني بالهجر) وغيرها، فلا تجد بدًا من أن تمتلئ روحك شغفًا وحبًا.

والأجمل أن الفنانة الراحلة فريال كريم أسرتني أن أسرتها

لا تعشق من المطربين سوى فريد الأطرش، وقد توارثوا هذا الحب، تقول: أنا فتحت عيوني على (فريد)، أخي اسمه (فريد)، وأختي (فريدة)، وحينما استشهد أخي فريد عام ١٩٨٦، وجاءنا طفل أسميناه (فريد) أيضًا، وابنتي الفنانة (عبير) منحناها اسمًا فنيًا فيه اسم فريد، وهي الآن معروفة (عبير فريد).

وتذكر أنه كان يقال إذا ما أحد نسي أحدًا (ها... ألهاكم فريد الأطرش) كما أذكر كلمة قالها جندي عراقي في فلسطين لأهله الذين قلَّت رسائلهم إليه، قالها بمشاكسة: (ها نسيتوني... ألهاكم فريد الأطرش عني).

وما زلت أذكر كلماتها وهي تقرأ لي شعرًا عنه قائلة: كنت قد حفظت شعرًا للشاعر عبد الله الفيصل، وأنا ما زلت في الدراسة الابتدائية، وما زال معي إلى هذه اللحظة يقول فيه: (غنى الفريد فأحكم الأوزانا، والعود فاض عواطفَ وحنانًا/ فكأننا في أرض مكة سُجَّدًا/ وكأنه وحي الإله أتانا).

هذه الصورة تحمل الكثير من الذكريات للذين كان فريد مطربهم المفضل.

أغنية (في سكون الليل)...
بين كنعان وصفي وعبد الحليم حافظ

أعادني ذكر أغنية (في سكون الليل) في كتابتي عن الفنان كنعان وصفي إلى أغنية بالاسم ذاته غناها المطرب عبد الحليم حافظ (٢١ يونيو ١٩٢٩ - ٣٠ مارس ١٩٧٧)، وتساءلت مع أحد الزملاء إذا ما كانت الأغنية هي نفسها، لا سيما أن الكلمات واللحن هما لنفس المؤلف والملحن، الكلمات لإمام الصفطاوي، واللحن لعلي إسماعيل، والتي يقول مطلعها:

(في سكون الليل تصحى الأشواق، ويناجي الليل كل العشاق
في سكون الليل تصحى الأشواق، ويناجي الليل كل العشاق
ويطير بيهم ويمنِّيهم في سكون الليل)

في البدء سألت الموسيقار كريم وصفي، نجل الراحل كنعان وصفي، عنها، فقال: (أعتقد... نعم)، وسألته إذا ما يوجد لديك تسجيل صوتي للأغنية بصوت الوالد؟ فأكد عدم وجوده بقوله: (أبدًا)!

ولكنني في البحث والربط وملاحقة المعلومات، تأكدت أن الأغنية هي نفسها، لكن كنعان وصفي غناها قبل عبد الحليم حافظ بسنوات.

بدأت البحث عن بدايات كنعان وصفي، فوجدت أنه

كان يعشق الفن، الرسم والغناء، لكنه برع في رسم صور الفنانين، من أسرة تعشق الفن، ووالده من الرواد الأوائل للموسيقى، كان مقلدًا... ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك أمام أحد، وأنه وهو ابن ١٨ عاما غادر مدينته الموصل مسافرًا إلى مدينة (حلب) السورية (٥٠٠كلم) التي تعلم فيها الكثير، ولكن غناءه اقتصر على الجلسات الخاصة والسهرات العائلية.

ويقول الكاتب حيدر الحيدر: (بدأت خطواته الحقيقية مع الغناء في أوائل الخمسينيات، وكانت مع الموسيقار الحلبي محمد إبراهيم الدرويش، وهو من أعلام الموسيقى في حلب، فأعطاه لحنًا وسجله له)، ثم انتقل إلى العاصمة اللبنانية بيروت، التي فيها واصل العمل في مجال الرسم، واعتبره وسيلة اعتاش منها، وأخذ يعمل في رسم ديكورات المسرح الصيفي في كازينو اسمه (بطرس).

(الكازينو في لبنان، هو محل للترفيه والسهر والقمار والغناء).

وكان الشاب كنعان... أثناء عمله في ديكورات مسرح الكازينو... يغني أو يدندن بأغنيات محمد عبد الوهاب.

(مثل أية لقطة طريفة لشاب مفعم بالحيوية: كان يعمل ويغني، متعة لنفسه وتزجية للوقت، وفيما هو كذلك سمع من يصفق له، كانت هذه هي المرأة التي اسمها نادية شمعون صاحبة الكازينو، وبسرعة أعربت له عن إعجابها بصوته، فضلًا عن كونه شابًا وسيمًا، وفاتحته على الفور بعرض قدمته له، وهو الغناء في الكازينو، ويبدو أنه وجده

فرصة سانحة لإعلان موهبته في الغناء، فغنى... وانتظم مع مديرة الكازينو في مواعيد غنائية، فحقق نجاحًا باهرًا، من خلاله أسس بعد ذلك فرقة مثّل معها قصة طرزان، وقد ساهم هذا في بروزه كنجم غنائي يلتف حوله الناس.

وحدث أن كان الموسيقار المصري علي إسماعيل في زيارة لبيروت مطلع الخمسينيات، وصادف أن زار هذه الكازينو الذي استمع فيه إلى صوت كنعان فأعجب به، ومن ثم قدم له لحن أغنية (في سكون الليل)، فغناها كنعان... ولم يكتف علي إسماعيل بهذا إعجابًا بصوت كنعان، بل نصحه بالقدوم إلى مصر من أجل مزيد من التألق، لكن كنعان عاد في ١٩٥٦ إلى حلب، وعمل في إذاعتها كمخرج ومُغنٍّ وملحن. وسموه الحلبيون (عبد الوهاب حلب) و(كنعان حافظ)، لأنه غنى أغاني عبد الحليم، في فترة لم يكن فيها معروفًا بعد!

ومن ثم سافر إلى القاهرة، حيث يقول: (وهناك تبناني الموسيقار علي إسماعيل، ونجحت في الاختبار، معتبرين صوتي صوتًا نحاسيًا، وسجلت أول أغنية شائعة لي عن الوحدة السورية المصرية (١٩٥٩- ١٩٦٣)، و(جدول الوحدة)، وثلاث أغانٍ عاطفية).

وعلي إسماعيل (١٩٢٢ - ١٩٧٤) هو موسيقار مصري شهير، تميز بالتأليف والتوزيع الموسيقي، له الكثير من الأعمال في الإذاعة والسينما والمسرح، وفرقة رضا للفنون الشعبية. ووضع الموسيقي التصويرية لأكثر من ٣٥٠ فيلمًا سينمائيًا مصريًا. بالإضافة إلى العديد من الأغاني

الوطنية.

علي إسماعيل كان زميلًا للمطرب عبد الحليم حافظ في معهد الموسيقى الذي كان يسمى آنذاك (معهد فؤاد الأول)، وكانت الدفعة تشمل أسماء لمعت في عالم الموسيقى بعد ذلك، مثل: كمال الطويل، وأحمد فؤاد حسن، وفايد كامل.

نذهب إلى عبد الحليم حافظ، ونقرأه (من خلال مؤرخي تلك المرحلة)، إنها فترة البدايات الممتدة من إجازته في الإذاعة عام ١٩٥١ بعد تقديمه قصيدة (لقاء) من كلمات الشاعر صلاح عبد الصبور، وألحان كمال الطويل، حتى بدء تصوير أول أفلامه (لحن الوفاء) عام ١٩٥٥، قدم عددًا كبيرًا من الأغاني، كان من الصعب أن يعتمد علي ملحن واحد هو كمال الطويل، خاصة وأنه (موسوس)، وشخصية قلقة جدًا، ولا يرضى بسهولة عن ألحانه، فكان عليه البحث عن ملحنين آخرين، وحاول كمال الطويل أن يقنع بعض الملحنين بأن يعطوا صديقه المطرب الجديد ألحانهم، لكنهم في معظم الأحيان كانوا يهربون، ويماطلون، ويتفننون في الاعتذار، إلا عددًا قليلًا، منهم الموسيقار علي إسماعيل، زميلهم في معهد الموسيقي، الذي أعطى عبد الحليم العديد من الألحان التي منها (في سكون الليل)، وجميع تلك الأغنيات من كلمات الشاعر إمام الصفطاوي، لكن هذه الألحان الجديدة المبتكرة التي لا يتعدى اللحن فيها عن ثلاث دقائق لم تحقق أي نجاح، حسب رأي المؤرخ والباحث في التراث الفنى وجيه ندى.

هذا يؤكد أن كنعان وصفي هو أول من غنى هذه الأغنية التي نجحت عنده، بدلالة طلب الملحن علي إسماعيل منه أن يذهب إلى القاهرة، وأن الأغنية ذاتها لم ينجح في أدائها عبد الحليم، حينما منحها له الملحن نفسه.

السؤال الذي راودني كثيرًا هو: لماذا لم يسجلها كنعان وصفي طوال هذه السنوات؟ وحتى بعد أن غناها عبد الحليم ليثبت أسبقيته ونجاحه في غنائها؟ الجواب الذي قد أبرره له هو انشغالاته الكثيرة في القاهرة، وحماسه للتمثيل، وغيرذلك.

ملاحظة: أنا هنا اجتهدت جدًا على الرغم من تباين الكثير من المعلومات والتواريخ.

دمعة أبي

قبل وفاته بسنتين، وبالتحديد في العام ١٩٩٠، دخلت الغرفة على أبي، وكان جالسًا لوحده فيها، ومن الراديو القريب منه كانت تنبعث أغنية ياس خضر (الهدل... آخ الهدل، ومنين أجيب زرار للزيجة هدل)، نظرته مستغربًا لأنني أعرف أنه لا يسمع إلا القرآن الكريم، فرأيت الدموع تغزو خديه، لم أنبس ببنت شفة، وخرجت من الغرفة، كي لا أثلم كبرياءه!

لكنني تساءلت: ما الذي أحدثه هذه الأغنية في نفسه؟ وما الذي فجرته في داخله ليفيض هكذا، وتغمر ملامح وجهه الآهات والحسرات... ربما، لذلك؛ وكأنني لا أعلم، وكأنه لم يشعر بدخولي، قررت أن لا أسأله احترامًا لتلك الدموع والكبرياء لديه.

(الأغنية هي الأولى في مسيرة ياس خضر (١٩٣٨ – ١ أيلول ٢٠٢٣)، غناها وهو في العشرين من عمره، أي في العام 1958، وهي من ألحان محمد جواد أموري).

فيما بعد... عدت إلى الأغنية، سمعتها أكثر من مرة، لأتبين إذا ما كانت تحمل في طيات كلماتها وموسيقاها، وجدت أن الأغنية فيها أنين كثير، وكأنها ما تسمى (النعاوي) التي تقال عن الميت، وتحفز على اللطم على الصدور، حيث موسيقاها مؤثرة، لكن الغريب أنها ليست (تراجيديا) إلا

بقدر (الظرافة) التي فيها، فالموسيقى وصوت المطرب لا يلتقيان مع فحوى الكلمات التي فيها من الغزل الشفيف والصورة الشعرية ما يُثير، فهي تتحدث عن (الكائن الخرافي) في صدر المرأة، ويرسم له صورة بديعة طاغية، حيث إن كلمة (الأهدل) في اللغة المُسترخي أو المُسترسل، لكنها كانت (عامية)، وإن أخذت معناها منه، فالقميص الهدل أو الثوب أو الزيق هو الفتحة العلوية النازلة من الرقبة، والذي يميل إلى جانب، بسبب ما تحته من حجم لا يمسكه الثوب أو القميص، فيتهدل ليكون مثيرًا.

في الأغنية أنين المنذهل المتعجب الموجوع الذي يرى ما يستفزه، وما عليه إلا أن يسكت، فيغضب، ويعبر عن غضبه وعجزه بالتورية والرمزية.

(الهدل آخ الهدل...
منين أجيب زرار...
للزيجة هدل...
وجوابها يقول...
لا تدور زرار للزيجة هدل
شلون يتزرر الشايلة جبل
وبيت الأبوذية يقول...
جرى دمعي دمًا ولرداي يبلين...(بلل ثيابه)
على الخصر النحيل الحمل يبلين.....(جبلين...)
وحياتك لو عظام عضاي يبلن...
بسير لحدي وهواك يعم عليه)

ما الذي فيها يا أبي ليبكيك، لتذرف الدمع صامتًا وساكتًا، أي معنى لها عندك؟ أية ذكرى أليمة تحمل هذه الأغنية هي في معناها بحذافيره أم تهيج الذكرى لديك؟!

أبي... مما عرفته عن حياته أنه في شبابه كان يعمل في (العمالة)، أو كما يسميها هو عن نفسه (عامل طين)، وأنه خطب فتاة من المنطقة التي يسكنها، وأعتقد أنها منطقة اسمها (محيرجة/ التوفيقية حاليًا) التابعة لمحافظة واسط، وكان يضع كل النقود التي يحصل عليها من عمله الشاق عند هذه الفتاة من أجل تجهيز ما يمكن تجهيزه من أغراض العرس، وبعد وقت ليس بالقصير، حدثت المفاجأة الصادمة، فقد ماتت الفتاة، وراحت كل فلوسه!

شـوارب المُلحـن!

في العام ٢٠٠٦، انتبهت إلى صديق ملحن شاب معروف، وقد حلق شاربه الكثَّ، اعتبرت الأمر عاديًا أو شأنًا شخصيًا، وفكرت: ربما هو كذلك قبل هذا الوقت، ربما لم أنتبه إليه خلال الوقت السابق.

وحين ركبت معه في سيارته، وجدته ينظر إلى وجهه في المرآة الأمامية، ويمدُّ أصابعه على مكان الشارب المحلوق، ثم نظر إليَّ، وقال: أليس أنا من دون شارب أفضل؟ وهذا ما أثار فضولي، وجعلني أخمن أنه حلق شاربه يوم أمس أو اليوم.

لكنه سرعان ما أسرني قائلًا: إنه من منطقة شعبية وبيئة اجتماعية تحترم (الشوارب)، لذلك بدأ حياته الفنية بشارب كثٍّ طالما اعتنى به، لكنه كلما نظر إلى المرآة يرى نشازًا ما بين هذا الشارب الكثِّ وموهبته كملحن، لكنه كان يضع في حسبانه المجتمع الذي لا يرحم، كما قال.

ويبدو أن هذا الشارب كان يثقل ألحانه، ويؤثر على موسيقاه، بل إنه كلما جلس بين فنانين حليقي الشارب يتحسس شاربه، فيرى أنه لا يصلح لملحن، بل إن البعض منهم يرى في شواربه إشكالية فنية، فهو لا يتطابق مع الموسيقى والألحان!

يقول: وفي لحظة تجلٍّ قررت المغامرة والمجازفة بحلاقته في حالة تمرد جريئة، فأتيت عليه، ولم أبق له أثرًا، فشعرت أنني تحررت، بل إن ألحاني صارت أجمل !

فكروني

أكثر أغنية لها تأثير مباشر في نفسي، وضرر اجتماعي ومعنوي، هي أغنية (فكروني) للسيدة أم كلثوم، كنت أسمعها وأتحسس أنغامها، نغمة نغمة، وأتهجى حروفها حرفًا حرفًا، وكل جملة منها، أعيدها وأكررها، كلامًا وغناء وصراخًا، ولا أملُّ منها، لكنها توقظ في أعماقي بكاءات تفزز غيومًا هائلة من الدمع، كنت أكتبها على الورق مرات ومرات، وأتفحص كل جملة بتأمل وتأنٍّ كأنها قراءة في ما عشت من ظروف عاطفية مريرة، أراني أشاهدها مثل شريط سينمائي، وتهتز لها أعماقي وفرائصي في آن واحد، وينساب الدمع معها مدرارًا، بل وتقشعر كل خلاياي الحسية واللاحسية، شجن ينبعث من مغارات روحي، ويتعامد مع صوت أم كلثوم ولحن الأغنية، شجن عارم يتصاعد جنونًا يضرب كل محتويات الرأس، ويجعل الذاكرة تطلق العديد من المواقف على امتداد سنوات، فيبدأ الاهتزاز هكذا: (كلموني تاني عنك... فكروني). ما هذا التذكر، ومن هؤلاء؟ وقد اختفت الآلام خلف جدران البعد، ودخان الحرب العراقية الإيرانية وهمومها، فتقفز ارتجافات سرعان ما تحمل معها (صحوا نار الشوق... الشوق في قلبي، وفي عيوني).

هذه الصحوات للشوق لا يمكن إطفاء نيرانها بالدمع

والصراخ، لكن الأعظم في التذكر الذي كنت أعيشه في وحدتي هناك في أيام الجيش الحزينة التي لا نافذة منها تطل على الحرية هو (رجعولي الماضي بنعيمه وغلاوته وبحلاوته وبعذابه وبأساوته...).

كانت ساعات التذكر طويلة مفعمة بالحكايات، ومن ثم (وابتدى قلبي يدوبني بآهاته / وابتدى الليل يبقى أطول من ساعاته / وأسهر أسمع نبض قلبي بيناديلي / روحي فيك مهما جرى أنا روحي فيك).

شجن ينزُّ من شجن وحزن ينزف حزنًا، والانقلابات في النفس كثيرة، كيف سأمد لها يدي، وكيف سأنظر في عينيها بصبر عظيم، لتقرأ ما فيهما من هيام بها، ولوعات وانتظارات، لا أشعر بالملل منها، وكيف أمنحها ثقتي بعد أن قالت أنها لا تثق بأحد أبدًا، وكيف لي أن أقنعها بكلمات مثل (تسوى إيه الدنيا وأنت مش معايا. هي تبقى الدنيا دنيا إلا بيك)، أراها ما بين غير مصدقة وساخرة وابتسامة تنزف عناءات تلوح على شفتيها الرائعتين اللتين لم أرَ أجمل منهما، ولا أريد أن أقول: (ولا أشهى...)، لأنني ما نظرت إليها على أنني ذكر وهي أنثى!

وأمضي في السياق مثل راكض في صحراء ومُتعثر بالرمال، فأكتب عنها شعرًا، خاصة بعد أن (كلموني ثاني، ثاني عنك / بعد طول حرماني منك)، ووجدتها أمام عيني، أقترب منها فيما هي لا تراني، كما أراها، كان ذلك المكان العام مروعًا، وأنا أدور فيه مثل تائه، أنتظر شيئًا قد لا يحدث مطلقًا، لكن غروب الشمس أوحى لها أن تسألني أن نمضي معًا،

أريد أن أقفز من أعلى المكان أو أصرخ فيه لأحقق مفارقة فيه، ولكنني عدت لأسمع كلماتها (لا أثق بأحد مطلقًا!) كنت أريدها أن تثق بي، ولكن كيف؟ لا أدري، وحين مشينا على الشارع صامتين كنت أود أن أقول لها: (يا حياتي أنا كلي حيرة ونار وغيرة وشوقي ليك / نفسي أهرب من عذابي نفسي أرتاح بين إيديك)، وأن أختصر سنوات البعاد بأن أغني لها وسط الشارع لأمنحها جرعات من الثقة (والخصام والهجر وليالي الآسية / كل دول ما يهونوش حبك عليًا)، وإن لم يكن هناك خصام أبدًا، كانت مسافات الطريق تتداعى فيما كان الصمت يلفنا بخيمته أغلب الأحيان، لكنني كنت أطير وأرقص وأمشي إلى الخلف، لتقابلني عيناها وأتغنى بما كتبته عنها في سنوات بعيدة (واللي جوه القلب كان في القلب هو / رحنا واتغيرنا إحنا إلا هو. هو نفس الحب وأكتر، هو نفس الشوق وأكتر. هو هو).

وحين افترقنا جلست على ناصية رصيف أتابعها بنظراتي، وأقول بهمس لا يسمعه سوى الرصيف: (اللي فات وياك يا روحي بعود إليه... / واللي عشته معاك رجعت أعيش عليه).

لكن يا للأسى، كانت العودة كارثية، وكان التذكر مأساويًا، فقد تبدل كل شيء، وجاءت نتائجه عكسية، فادلهمت الخطوب، وقد استطعت أن أحوز على كثير من ثقتها، تفجرت الكلمات واحترقت الأوراق، وتخاصمت وجهات النظر، وصارت الأشياء سوداء قاتمة، وصوت أمي يَفْزُزْنِي،

وهو يشرح لي كيف أن الوجه الجميل أصابه الأذى: (يمه... لو مِتِّ أنتِ، ولا هذا الوجه الحلو يخرب).

هل انتهت أم كلثوم من أغنيتها؟ بالطبع لا، أخذني العمر، تداخلت عواطفي، وتأرجت مشاعري، فأخطأت وأصبت، وكلما أرى أعماقي أراها متوهجة، وعلى سطحها يطفو ذلك الوجه الجميل، لكنني على مر السنوات أردد: (فكروني إزاي، هو أنا نسيتك/ أنت أقرب مني ليا/ يا هنايا. حتى وأنت بعيد عليَّا).

ثم أقول بصبر وثقة: (تنتهي الأيام/ ونطوي العمر منا وأنت حبك أنت للأبد مالوش نهاية/ حبك أنت ملوش نهاية).

حكايتي مع عبد الحليم حافظ

لم أكُن، في مرحلة الصبا الأولى، أفهم من الغناء شيئًا، لكنني عرفت أسماء البعض من المطربين، ومن ثم صارت تستهويني الأغاني، بسبب الآخرين من حولي، وحيث كان لنا مذياع صغير عرفت من خلاله (أغنية اليوم)، وبرنامج من كرمنشاه الإيرانية هو (دكان الألحان)، ولكنني عرفت اسم سعدون جابر قبل أسماء كل المُغنيين، وكانت ابنة جارنا معجبة به، فكنت أشتري صورته الصغيرة وأهديها لها، عسى أن ترضى عني!

لكن عبد الحليم كان دخوله إلى القلب عجيبًا، لم يكن بسبب أغنية (جبار) التي كانت جدتي (رحمها الله) تناديني كلما سمعتها، وتقول: (دهر الدهر شيريد منك)، لا بل لأشياء ساحرة في صوته تواءمت مع ما في نفسي، ربما لانسيابية الصوت أو لهدوئه وصفائه، أو لجاذبية النغمات التي يتغنى بها، أو ربما الكلمات المفهومة منه، بيد أني لم أعرف الحب بعد، فلم أكن قد تجاوزت الخامسة عشرة من العمر، وحفظت بعضًا من أغانيه، حتى إنني أحببت أحد زملائي التلاميذ؛ لأن عينيه تشبه عيني حليم في إحدى أغانيه، لكنني مع أول هبوب لرياح الحب على قلبي صرت لا أسمع سوى عبد الحليم، وأحفظ أغانيه وأغنيها بيني ونفسي!

صار عبد الحليم حافظ (١٩٢٩-١٩٧٧) مطربي المفضل والوحيد، وصار لزامًا عليَّ أن أحفظ أغانيه، وأستمتع بها، بغض النظر عن آراء الآخرين، وكان أبي (رحمه الله) لا يطيق سماعه، ويستغرب أنني أحبه.

وحين وقعت في نهر الحب، ولم أكن أعرف السباحة فيه، وكان ذلك في شباط ١٩٧٧، لم أجد من أتمسك به للتعبير عن حالتي الجديدة غير عبد الحليم، كل أغانيه أسمعها وأحيلها إلى نفسي، لنجعل منها مواكبة للهواجس والمعاناة والهيام الذي فيها، وتترجمه كما تشاء، وكانت (قارئة الفنجان) صديقتي التي ترافقني في تلك المدة حتى إنني اقتنيت شريطها لأسمعها متى ما شئت.

وعندما رحل يوم ٣١ /٣/ ١٩٧٧ كان يومًا حزينًا بالنسبة لي، وبكيته كالآخرين، وإن كنت لم أبلغ السابعة عشرة من العمر، وكانت ردة فعلي أن أشتري كل المجلات التي تتحدث عنه، لا سيما مجلة (صباح الخير) المصرية التي نشرت مذكراته، والكثير من أسرار حياته، كما اقتنيت كتابًا أو كتابين عنه، فحفظت سيرة حياته أكثر من أي كتاب منهجي لدراستي.

ولم أتخلَّ عن عبد الحليم، بل إنني عشقته أكثر خاصة بعد أن علمت أن التي أحبها (من طرف واحد طبعًا) تحبه! كان ذلك جميلًا وممتعًا، فحاولت التقرب منها به، فكنت أبعث لها المجلات التي تتحدث عنه، وعلى هوامش الصفحات أكتب خواطري التي يبدو أنها لم تُعر لها انتباها بقدر ما كتب عن عبد الحليم.

كبرت وصرت صحفيًا، وكان من الواجب أن أكتب عنه في ذكراه، فكتبت في العام ١٩٩٦ مقالة كبيرة عنه في جريدة (العراق) بعنوان: (عبد الحليم في ذاكرة الغناء... أبدًا)، الأجمل في هذا أن الناقد الأستاذ محمد الجزائري (رحمه الله) كان حينها ضيفًا على برنامج ثقافي في تليفزيون العراق ليقطع حديثه بلفت نظر مقدم البرنامج إلى هذا المقال، وراح يقرأ مقاطع منه، وهو سعيد ومبتهج، وكان هذا خبرًا أكثر من سعيد، لأنني استطعت التعبير عن حبي لحليم!

تمر السنوات، ويبقى حليم منجم ذكريات، أحبه ويحبني، وكلما أشتاق إلى أيامي تلك أراه أمامي، يغريني بسماع أغانيه والكتابة عنه.

سعدون جابر (يلحن) لمحسن فرحان!

ليست من الأسرار، تلك العلاقة التي تربط المطرب سعدون جابر بالملحن محسن فرحان، فهي تعدت صفة العلاقة بين المطرب والملحن، إلى علاقة المحبة الكبيرة والوفاء.

ولكن من الأسرار التي تكتنف هذه العلاقة هي الخوف على الآخر، وتمثل ذلك من جانب سعدون إبان مدة الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨)، وكان حينها محسن فرحان جنديًا في جبهات القتال، ويبدو أنه غير مهتم بالتلحين للحرب، أو بالأحرى لا يريد ذلك، فيما سعدون كان يعرف الكثير عن كتابة التقارير ونظرة النظام إلى المبدعين الذين لا يجارونه، أو ربما تناهى إلى سمعه في المجالس الخاصة أو عبر آخرين عن غياب محسن عن التلحين للحرب، فما كان من سعدون إلا أن قام بتلحين أغنية، ولصق اسم محسنٍ فرحان عليها، كي لا يتعرض محسن للمساءلة، وخوفًا عليه من المتصيدين، وما أكثرهم.

أخبرني بهذا سعدون جابر في لقاء معه في العام ٢٠٠٠.

وحدث أن سألت محسن فرحان ذلك في حوار صحفي، فأجابني قائلًا: نعم هذا صحيح، هناك أغنية لحنها هو، ونسبها لي، وهذا كان أيام الحرب مع إيران، لأنني كنت

مُقلًا في الأناشيد التي كانت تقدم، وربما كان غرضه من باب حمايتي آنذاك.

وأضاف: حينها فوجئت... وأنا أشاهد أغنية تظهر على التليفزيون، وهي من ألحان محسن فرحان، ولكن هذه الأغنية لم تحقق أي شيء، فمثلما ظهرت ماتت، لأن سعدون ليس ملحنًا، وما فعله كان لحمايتي فقط.

المُغنون أولاد سالم

من الطرائف (السرية) اللطيفة في تاريخ الغناء العراقي هو انتشار اسم (سالم)، ليكون اسما ثانيًا لعدد من المطربين والمطربات، لا سيما في عقد الستينيات من القرن العشرين، وكان (بطل) هذه الطريفة هو عازف القانون والملحن سالم حسين الأمير الذي كان صيته ذائعًا كملحن وشاعر وعازف ومسؤول في أقسام الإذاعة، ويبدو أنه كان محبوبًا من الجميع.

فقد أسرني ذلك قائلًا: عند عودتي من القاهرة عام ١٩٦٢ كلفت من قبل الأستاذ علاء كامل مدير برامج الموسيقى في الإذاعة والتليفزيون أن أتولى الإشراف على القضايا الريفية كفنان من الريف، ولي خبرة وأغانٍ، وكان هناك موعد تسجيل أغنية للمطربة لميعة توفيق، للملحن محمد نوشي (يا عمَّة)، فلم يحضر لمرضه، فكنت معها ومع أختها حليمة توفيق التي أسميتها (غادة)، فلما سمعوا بذلك أضافوا اسمي، فصارت (غادة سالم)، وفعلوا ذلك مع مطرب آخر اسمه أحمد الراوي الذي لحنت له قصيدة الشاعر نزار القباني عن بغداد (مدي بساطي، واملئي أكوابي، وانس العتاب، فقد نسيت عتابي)، فجعلوا اسمه أحمد سالم، كما كان ذلك مع المطرب فؤاد سالم الذي لحنت أول أغنية له «سوار الذهب»، وكان اسمه فالح

حسن بريج، واقترحت عليه تغيير اسمه إلى فؤاد، فاختار هو اسمي ليضيفه إلى فؤاد، فكان فؤاد سالم، وهكذا مع كل مطرب أساعده، وأرادوا كذلك أن يضيفوا اسمي إلى المطربات خالدة ووفاء وهناء، وغيرهن، لكنني رفضت، وقلت (عيب) أن تضيفوا اسمي إلى كل مطرب يجيء.

حسين قدوري... يتحسر لضياع أغنية الطفل

حين طلبت من الأستاذ حسين قدوري (١٩٣٤- ٢٠٠٥)، الباحث الموسيقي وملحن أغاني الأطفال، أن يستذكر لي يومًا من أيام عمره له أهمية عنده، كتب لي على ورقتين رسالة قصيرة جدًا واليوم الذي طلبته، كتب في الرسالة: (أخي الأستاذ عبد الجبار العتابي / تحياتي وتقديري / شكرًا لتذكركم لي، أتمنى لكم الخير الوفير، أدناه ما أراه مناسبًا، والأمر لكم لنشر ما ترونه لطفًا / أخوكم حسين قدوري. ١٠ / ٢ / ١٩٩٩)، لكنني فوجئت بما كتبه عن اليوم من عمره الذي تجاوز الخاصة إلى العامة حينما ذهب إلى استذكار عام الطفل العالمي!

قال: بتاريخ ٢١ / ٢ / ١٩٧٦، صدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة نصَّ على أن يكون عام ١٩٧٦ عام الطفل العالمي، واستمر هذا التقليد سنويًا.

وأضاف: أن هذا القرار الدولي تجسيد حي لأهمية الطفل كثروة للمستقبل، تتطلب منا اهتمامًا متكاملًا في كافة أوجه حياته، ولن يتم هذا الاهتمام إلا من خلال تخطيط وتنفيذ المنهاج والبرامج المختلفة التي تساهم في تنشئة أطفالنا تنشئة سليمة، يتوازن فيها الجانب التربوي المعرفي، والجانب التربوي الوجداني (الجمالي).

وأضاف: نحن في العراق، قبل هذا التاريخ بكثير، ركزنا على

الجانب التربوي الوجداني (الجمالي) باعتباره في مقدمة المقومات التربوية لأطفالنا، فشكلت بالتعاون مع قسم الأطفال في إذاعة بغداد، أول فرقة إنشادية موسيقية للأطفال، والتي أصبحت خلية نحل، الكل يعمل بجد ونشاط، فأنتجت الكثير والكثير من الأغاني، القصص المغناة، المسرحيات الغنائية التي عرضت على مسارح بغداد، إضافة إلى البرامج الإذاعية والتليفزيونية، والتي تندرج كلها تحت مفهوم التربية الجمالية للأطفال، والآن في مكتبات الإذاعة والتليفزيون العشرات من الأغاني من غيرها، مخزونة في الرفوف، تتآكل يومًا بعد يوم، وكأنها محنطة تعود إلى الماضي البعيد، لا كونها نتاجًا تربويًا ثقافيًا ترفيهيًا للأطفال، وليد اللحظة الحاضرة.

وتابع: إذن... ليس العيب فينا، أغنية الطفل العراقية موجودة، بل العيب في وسائل الاتصال التي هي الوسيط المهم بيننا وبين أطفالنا، وأعني بالذات الإذاعة والتليفزيون، وبالأخص التليفزيون كونه الأكثر تأثيرًا، ولا أدري لربما (مغنية الحي لا تطرب).

واستطرد: في كثير من الأحيان، أشاهد أغاني أطفال ليست عراقية مبنية على الأفكار البرجوازية، وفيها (المغنية) وهي تستعرض نفسها من خلال حركات راقصة.

وأوضح: أؤكد بأن أغنية الطفل موجودة كمًّا ونوعًا في كامل أوصافها الفكرية، لقد أنتجت ما يقارب من الألف أغنية في الوطن العربي، وحصلت على جوائز عراقية وعربية وعالمية، كان آخرها جائزة الإبداع لعام ١٩٩٧ من وزارة

الثقافة والإعلام.

وأضاف: إن المعنيين بأغنية الطفل في الأقطار العربية يدقون بابي طالبين مني المزيد من الإنتاج، وبالفعل أعمل ذلك، أما في بلدي، فلن أسمع، ولم أتلقَّ أية دعوة من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية لإنتاج أغنية واحدة.

وختم بالقول: أنا لا أدق الأبواب، لأنني أعرف نفسي من خلال ما أنتجته لأكثر من ثلاثين عاما للأطفال في الوطن العربي من المقروء والمسموع والمرئي، وهو إنتاج يعرفه الجميع.

يا ليل يا عين... ما معناها، ولماذا يرددها المغنون؟

في مساءات الضجر وما أكثرها، أجدني في غفلة مني أطلق صوتي غناء، وإذ لا أعرف كيف أبدأ، وقد تداركني وجع ما، أسمعني أردد كلمات: (يا ليل... يا عين... ياليلي يا عيني)، وتمتد طويلًا هذه الكلمات معي، ولا أشعر بما يأتي بعدها، وطالما عادت إلى لساني حينما أجدني ضجرًا، لا أقوى على قول، ولا أفكر في شيء!

حتى ذات مرة وفي غفلة مني أيضًا ركض إلى لساني سؤال: لماذا يا ليل يا عين، وليس غيرهما، وقد سمعت العديد من المطربين العراقيين والعرب على حد سواء يبثونها متألقة في أغنياتهم، لم أحرص على أن أجد الجواب بقدر ما يعنيني أنهما تستخرجان من داخلي بعضًا من الألم المكبوت، ثم بدأت أكتب شيئًا عنهما، كتبت:

(في الغناء... طالما ترنم المغنون بهاتين الكلمتين، ويحاولون البوح فيها بذلك الألم الذي بين الضلوع، فيسرجون مُهْراتِهِمْ، وينطلقون في أودية الليل هائمين بروعتهما، فيرسمونها بأصواتهم ممدودة، محلقة، ثائرة، حاسمة، يا ليل... يا عين، ثم يردفونها بأخرى وأخرى، انتهاء بـ«ياعيني يا ليلي» طويلة، تستنفر كل جراحهم وشجونهم).

لكنني فيما بعد ذهبت أبحث في الأصل، دفعني فضول غنائي لها في مساءات الضجر... وما أكثرها، حيث الليل

مفرغ من نشوته، ونائم على طرقات الانتظار، وبعد جهد وجدت أن (ياليل ياعين) مما أتعب العديد من الباحثين، ورسمت على ألبابهم علامات استفهام كبيرة متبوعة بعلامات تعجب أكبر منها، فراحوا يبحثون في ليل العرب الطويل وسحره عن تلك الرابطة التي بين غنائهم والليل، وقد أحب العرب الليل، فأرخوا بلياليه، وابتردوا من هجير الصحراء، وقد وجدوا الشعراء يتنادون باليل ويناجون مميزاته.

بينما راح البعض يخرجها من الألحان السريانية، ومن كلمة (هاليل) التي معناها (أنشدوا).

وعلى أنها كلمة قبطية معناها (افرحي)، أي: ياعين افرحي.

أو على أنها فارسية من كلمة (لال) التي معناها (الحبيبة).

بينما ردها البعض إلى الفراعنة بمعنى: (أيها الطريق الطويل)، وهو ما يتغنى به العمال.

مثلما ردها البعض إلى كلمة (ليلي) الآشورية التي تعني (رسول)، فيقصدون (رسول الحبيبة).

مثلما عزاها البعض أنها مأخوذة من الترك، وهم يغنون: (ياللي... أمان).

بينما راح آخرون يتسعون في البحث، ويردونها إلى (أنليل) إله الهواء عند السومريين، وكما يقول غوستاف لوبون: (إن الآشوريين كثيرًا ما ينظمون الشعر الغنائي لتكريم الآلهة وتمجيدها).

حتى انتهى الأمر عند البعض إلى أنها عربية، المراد منها نداء الليل.

أتعبني البحث مثل أولئك الباحثين، وقبل أن أفكر في الخطوة اللاحقة، وجدتني أطلق صوتي الجهوري، وأقلد أبا خالد الفنان سعدي الحلي الذي أعتقد أنه أكثر من غنى يا ليل ياعين، وأطرب فيهما، وإن كان أبو وحيد فريد الأطرش، قد زخرف العديد من أغانيه بهما، المهم أن الدهشة مما حصلت عليه أثارتني، ورحت أبتسم لتلك الكلمتين الجميلتين اللتين تحملان من المعاني الكثير، قلت: لأستزيد فضولًا، وأصر على أن أعرف أكثر.

تذكرت حديثًا بيني وبين الأستاذ الراحل جرجيس إلياس، أستاذ الفنون الموسيقية والتراث الأندلسي، حول هذا الموضوع، فقال: (ياليل ياعين وغيرهما، ألفاظ يسمونها بالمطيبات والزخارف، لتجميل الغناء العربي الأصيل، وعلى رأسه الموشحات الأندلسية، فالمغني يقول (ياليل) من شدة التعجب)، وأضاف إلياس: (أنا أقول أن كلمة ياليل، ياعين، آه أمان، يالا...لا، أمرك أفندم، كلمات تملأ بها بعض الثغرات في الغناء، وأشار إلياس: في كتاب (من كنوزنا) الذي أنتجه أربعة مختصين، وعلى رأسهم الباحث فخري البارودي، والشيخ علي الدرويشي أبو الموشحات، لم يرد ذكر الليل (ذكر)، ولا عين (أنثى)!

وضعت ما استذكرته على طرف ذاكرتي، ورحت أغني، وأخذت أفكر كيف أستزيد معرفة، وكلما تأتي على لساني هاتان الكلمتان أجدني أتحرق شوقًا إلى أن أعرف الكثير، يدخل الفضول كل خلاياي الحسية، ويجعلني أدور في المكان بلا وعي، وبين فكرة وأخرى، قررت أن أتصل بالناقد

الموسيقي المعروف الأستاذ عادل الهاشمي، وأسأله عن «ياليل ياعين»، وإن كان الوقت منتصف الليل، فاتصلت، وكعادته بعد تأمل قال: (في الأسطورة الشعبية المصرية القديمة... أن رجلًا اسمه (ليل) كان يحب فتاة اسمها (عين)، وحدث كما في الأسطورة أن فقدت (عين) حبيبها (ليل)، إذ غرق في النهر أو ابتلعه التمساح، كما تقول المصادر، فأخذت عين تنادي: (ياليل... ياليل... ياليل)، وهي تبكي حزنًا على فقْده، ولما يئست من ملاقاته رمت بنفسها في لجة مياه النهر، وماتت أيضًا! فأخذ أهلها ينادون (ياعين... ياعين... ياعين) بحثًا عنها، وتحولت هذه الترديدة إلى التعبير عن الألم الدفين بسياقات صوتية، فيها شيء من التلحين الأدائي، الأمر الذي تطورت فيه هذه الترنيمة الأدائية إلى ما يشبه الموال الغنائي، واكتملت بهذا الموال الغنائي أسباب الشخصية الأدائية في الغناء، وأصبح قالبًا غنائيًا من قوالب الغناء العربي الذي يبدأ بـ(ياليل) وينتهي بـ(ياعين)!).

في لحظة وجدتني أبتئس، كيف لي أن أنوح وسط هذا الليل الذي أعشقه عن (واحد وواحدة) تحدثت عنهما أسطورة، قلت: لالالا، يا أستاذ عادل، أغمضت عيوني متخيلًا صورة ليل وعين، وهما يتباكيان على بعضهما، وسرعان ما فتحت عيوني على الليل البغدادي الجميل (رغم حظر التجوال)، وتجولت في أرجاء السماء، ثم رددت: (ياليل: الصب متى غده)، وقلت: لو أنني عاشق ما قلت إلا لهذا الليل: ياليلي... ياليلي، وما قلت: ياعيني... يا عيني إلا

للمحبوبة، ففي الليل تتفتح كل ورود الحنين.

وكي تكتمل عندي الصورة في الغناء، وجدتني أتصل بالملحن الكبير محمد جواد أموري لأسأله عن السياقات النغمية لقالب (ياليل ياعين)، فأجاب: (في كل دولة عربية يؤدى هذا القالب بسياقات نغمية تختلف أو تلتقي مع مثيلاتها في الدول الأخرى، لكنها تؤشر إلى حقيقة أكيدة أن هذا الضرب من الغناء هو ضرب عسير ومعقد وصعب، ولا يمكن لأية حنجرة أن تأتي بفنون هذا الضرب أدائيًا، إلا من اكتملت له أسباب التفوق في مجال المساحة الصوتية، وقدرة الأداء والإحساس بالكلمة، والمعرفة بفنون الانتقال النغمي والمقامي، ولذلك؛ فإن من يجيدون هذا اللون من الغناء هم قلة قياسًا إلى عدد الأصوات التي تغني).

إذن... أنا والليل والعين ننصت لخفقات قلب المساء، وتظل كلماتنا ترقص على ضفاف الحنين.

المُغني الذي أطاحت به أغنية!

من المصادفات الغريبة التي تتحول إلى (نكتة) سمجة، من الممكن أن يشار إليها بـ (شر البلية ما يضحك)، ما حدث للشاب رائد جبوري، الذي أطاحت به من منصبه أغنية وحيدة، كان قد غناها وسط أمواج هادرة من الصخب الغنائي الذي ظهر مطلع عقد التسعينيات من القرن العشرين.

فهذا الشاب (المغني) الذي حاز على منصب المتحدث باسم رئيس الوزراء حيدر العبادي الأسبق، ما إن تبوأ المنصب حتى باغته عرض فيديو على شبكات التواصل الاجتماعي يظهر فيه مطربًا يمجِّد رئيس النظام السابق صدام حسين في أغنية «تعبوية»، وسرعان ما أثير حولها ما أثير من ردود أفعال متباينة، حمل أغلبها تساؤلات، واستغرابًا، وسوء ظن!

ويظهر في الفيديو المغني (رافد فاضل) جبوري، وهو يؤدي أغنية بعنوان (ارفع راسك، أنت عراقي)، يمتدح فيها رئيس النظام السابق، والأغنية من كلمات عادل محسن، وألحان جبوري نفسه، وربما هي الأغنية اليتيمة له في عالم الغناء في وقت يعرف الجميع تفاصيله، حيث لا دخول إلى عالم التليفزيون خاصة (تليفزيون الشباب) إلا بتقديم أغنية مثل هذه، لأن المسؤول عن هذا التليفزيون هو ابن

الرئيس، وقد أشار البعض إلى أن الأمر طبيعي، لا سيما أن في زمن النظام السابق كان المغني لا يستطيع أن يسجل أغنية عاطفية، دون أن تكون الأولى في مديح الرئيس، فيما ذهب البعض إلى أبعد من ذلك، وطالب العودة إلى أرشيف جبوري والاطلاع عليه من خلال تقاريره لقناة «بي بي سي»، يوم كان مراسلًا لها، بل إن البعض وصل به الاستغراب إلى أن تساءل قائلًا: كيف يكون الناطق باسم حكومة شعب المقابر الجماعية والحروب، والمعتقلين، شخصًا كان يمجِّد ويَمْتدح الطاغية بأعلى صوته؟

من جانبه أكد رافد جبوري أن غلطة عمره أنه غنى لصدام حسين، وقال: هذه الأغنية كانت غلطة عمري، وهي من الأخطاء الكبيرة في حياتي.

وأضاف: كنت في بداية حياتي أهوى الغناء الوطني، وكانت الأولى والأخيرة، ومن ثم اتجهت إلى العمل الصحفي.

وتابع: انتشار الفيديو بهذه السرعة يوكد أن هناك من يسعى إلى إفشال عمل الحكومة، وأكرر أنني أقول للشعب العراقي: أنا آسف، وأعتذر أنني في يوم من الأيام غنيت إلى من قتلكم وأبادكم.

عدنان الشيخلي... يحفر الذاكرة بالأغنيات التراثية

هذا رجل فنان يستحق أن نستذكره، لأنه كان يتواصل مع فن يوشك على الاندثار، يمارسه ليس للعيش فقط، بل للتذكير به ومحاولة عدم التخلي عنه، لأنه جزء من التراث الغنائي العراقي، لكنه رحل عن الدنيا في مايو عام ٢٠١٨، وغاب عن المشهد، وقد نالت منه الأمراض حدَّ إصابته بالشلل.

كنت أراه... وأتحدث معه، يشكو لي، لكنه كان مرتاحًا بقدر ما، لأن هناك من يستمع له، ويثني على تواصله، ويأسف أن المؤسسات لم تعد تهتم بالمربع البغدادي.

فمن ضمن طقوس يوم الجمعة في شارع المتنبي، يلفت نظر العابر من هناك ذلك الرجل السبعيني الذي يجلس أمام عربة صغيرة، لكنها لافتة للنظر أيضًا، كونها تحمل كتابات تحتاج إلى قراءة متأنية، وليست عابرة، إذ إن العنوان الكبير ذاته لم يكن عاديًا، ويدعو إلى الاستفهام عنه، كما أن الصوت المنبعث من (مسجل) صغير هو الآخر يثير الدهشة، حيث يبث أغنيات قديمة تحمل سمات الأطوار الريفية والبغدادية عبر أصوات مطربين من أجيال مختلفة، ارتبطوا بذاكرة الناس، تؤجج في العابرين مشاعر مختلفة، تدعوهم للتوقف والنظر والاستماع، تجعلك تغمض عينيك مع نبرات صوت

يوسف عمر ورشيد القندرجي ومحمد القبانجي تارة، ومع داخل حسن تارة أخرى، أو مع زهور حسين وعبادي العماري وحسين اسعيدة وسلمان المنكوب أو سواهم، مع تلك الأغنيات والمواويل و(الأبوذيات) والزهيريات التي تأتي تباعًا لتذهب إلى أقصى بقاع الذاكرة، وتحفر فيها ما يجعلها تنزُّ لتنبعث من قيعانها روائح تستلب العواطف: (اهنا يمن جنه أوجنت/ جينا أوكفنه ابابك/ أوليف الجهل ما ينسي/ اشمالك نسيت احبابك).

ولا بد لك... وأن تعبر من تلك العربة إلا الالتفات وقراءة ما عليها كأنها خارطة فنية: (الرفوف العالية/ أصوات لا تنسى/ المربع البغدادي/ المقام العراقي والريفي الأصيل)، وكذلك قائمة بأسماء المطربين العراقيين على اختلاف أجيالهم القديمة، وقائمة بأسماء الأفلام السينمائية العراقية القديمة، وكل هذه التسجيلات الغنائية والسينمائية موجودة في هذه العربة التي أصبحت جزءًا من المكان، لا سيما أن وقوفها أمام مقهى الشابندر التراثية.

مزهو... هو الرجل بما لديه، ومتحمس لبضاعته التراثية، وحين توقفت عنده مثل الآخرين لم أستطع أن أنال من وقته ولو دقيقة واحدة لكثرة المتحدثين معه، والسائلين عن أشياء غابت عن الذاكرة، أو الذين يسألونه عما في عربته، وحين انفضَّ جزء كبير من نهار شارع المتنبي استطاع أن يتفرغ لي، كنت أعرف أنه مطرب مربعات بغدادية، فقلت له: أريد أن أسمع شيئًا مما لديك، أجمل ما لديك، فابتسم، ثم قرأ: (شكد ثوبج حلو/ عد من

مفصلته) و(بيوم العيد ابني يريد عيدية) ومن ثم (أهلج وين يا بنية ددليني)، وراح يطلق نظراته في الأفق البعيد، ثم رحت أسأله فيحيب.

قال: أنا عدنان الشيخلي من مواليد ١٩٤٠، مطرب المربعات البغدادية منذ عام ١٩٥٠، وما زلت مستمرًا في غنائها في المناسبات العامة والأعراس وحفلات الختان في المناطق الشعبية، وما زلت ضيفًا للعديد من الفضائيات في شهر رمضان المبارك حينما أكون من ضمن لعبة (المحيبس) الشعبية، وأطلق مربعاتي البغدادية خلالها، بدأت في غناء المربعات وأنا في عمر (١٥) عاما، كنت أرافق المرحوم فاضل رشيد، مطرب المربعات الشهير، لأنه ابن منطقتي وجاري في محلة سراج الدين / قرب باب الشيخ في بغداد، وتواصلت مع فاضل رشيد إلى وفاته، كما كنت أطلع مع المرحوم عكلة علي منذ عام ١٩٦٦ في إذاعة القوات المسلحة التي صارت فيما بعد إذاعة (صوت الجماهير)، وكان المشرف عليها آنذاك الفنان الراحل راسم الجميلي، واستمريت مع عكلة إلى وفاته قبل سنتين، رحمه الله.

وأضاف: الباقون من قراء هذا اللون البغدادي الآن اثنان فقط، أنا وجاسم الشيخلي، نحن من الرواد، ولكن هناك شباب بدأوا السير على هذا الطريق، ويطلعون معنا في مشاركاتنا بالمناسبات، ومنهم علي شاكر، وفالح النعيمي.

وحين سألته عن العناوين التي كتبها على عربته، قال: الرفوف العالية هو عنوان برنامج تليفزيوني، كان يقدمه الفنان عبد الحميد الدروبي سنة ١٩٥٨ من تليفزيون بغداد،

يتناول الأغاني والمقامات والمربعات، وتوصل حتى عقد السبعينيات، أما (أصوات لا تنسى)، فهو عنوان البرنامج الذي كان يقدمه ثامر عبد الحسن منذ السبعينيات إلى ما قبل عشر سنوات، وكان يقدم فيه الأغاني الريفية، ويستضيف مطربي الريف، وأنا وضعت عنواني هذين البرنامجين، لأنهما يذكران الناس بالفن الأصيل الذي كان يقدم، بالإضافة إلى رغبتي في إحياء التراث حبًا بالبرنامجين، وأعتقد أن العراقيين يعرفون جيدًا قيمة هذين البرنامجين.

وتابع: في صباح كل يوم جمعة أجيء إلى شارع المتنبي؛ لأن رواده يعشقون هذه التسجيلات الغنائية القديمة، أما أكثر المبيعات، فهي لناظم الغزالي ومحمد القبانجي ويوسف عمر، ويأتي بعدهم زهور حسين ووحيدة خليل وحضيري أبو عزيز وداخل حسن وناصر حكيم وحسين سعيدة وعبادي العماري، أما باقي الأيام فمكاني في آخر شارع الرشيد قرب ساحة الميدان، هناك أطلق أصوات المطربين القدامي بما تحمل أصواتهم من حنين وجمال.

سألت أحد المتوقفين بعد أن راح يسأل الشيخلي عن أغنيات قديمة، فقال أبو سامر: هذا الرجل يجبرنا على أن نتذكر ما غاب عن الذاكرة، وما دفنته الأيام والسنوات، ويجبرنا على أن نقف أمام عربته، فهو يجذبنا إليها بالصورة والصوت، يا عيني على تلك الأغنيات الأصيلة، وأنا أتعجب من أين له كل هذه التسجيلات. وأضاف: أعتقد أنه يزين شارع المتنبي بحضوره، وإذا استمر سيكون علامة من علامات الشارع الثقافي الجميل.

المطربة نادرة... في بغداد والبصرة

هذه المطربة المصرية كانت هنا، في بغداد، تحت أضواء المساءات البغدادية الجميلة وإشراقات النهار، وقد استضافها مسرح فندق الهلال في الميدان عام ١٩٣٤ الذي سبق أن استضاف السيدة أم كلثوم.

إنها المطربة المصرية نادرة (١٩٠٦ - ١٩٩٠)، التي انتشرت لها إعلانات في الصحف البغدادية، وفي أماكن مختلفة من بغداد، تعلن عنها، مثل (أميرة الطرب نادرة، ألم تسمعها بعد؟ إن شَدْوَ البلابل لا يغنيك عن صوتها الساحر، فلا تتوهم. فهيا... هيا إلى أوتيل الهلال)، فغنت وأطربت الناس الذين قابلوها بالثناء والمحبة، وقد حققت حفلاتها نجاحًا كبيرًا، فيما تغزل بها الشاعر جميل صدقي الزهاوي بقصيدة من ٥٧ بيتًا، قال في بعض أبياتها:

(ما أنت إلا نادرة، في كل فن ساحرة/ للسمع أنت فتنة، وفتنة للباصرة/ أنت لشعب كسرت، منه القلوب جابرة/ أميرة الفن على، الإبداع أنت قادرة/ أنت جديرة بحق، أن تكوني الآمرة/ وأنت عبقرية، من أكبر العباقرة/ معجزة بالغة، من معجزات القاهرة).

أما هي، فلم تجد إلا أن تمتدح أخلاق العراقيين، كما ذكرت ذلك مجلة مصرية، حيث قالت عنها... و(أطنبت في ذكر الكثيرين من الكبراء والعظماء، وخصوصًا صبحي

بك الدفتري (أمين العاصمة)، فيما كانت خفيفة الدم وظريفة.

ونادرة... حسب مجلة مصرية: (صوتها الملائكي جعلها الاختيار الأول لعشاق الطرب في مصر والوطن العربي، أصولها المصرية اللبنانية جعلتها فريدة من نوعها، أو نادرة تمامًا كاسمها، تميزت بملامح لبنانية وبشرة بيضاء كوالدتها، وصوت شرقي جميل يجذب كل من يسمعه، كالأصوات الطربية المصرية، تعد الفنانة الراحلة نادرة من رائدات الغناء في مصر، وأول من جمعت بين الغناء والتلحين، وذاع صيتها حتى بغداد، فقد كانت تسافر خصيصًا لإطراب الحاكم فقط).

ومن الطريف أنها تحدثت لمجلة (الاثنين) المصرية في عددها الصادر في ١٩٣٤/١٠/٨ عن الحفلات الغنائية التي أقامتها في العراق، وتجاوزت اثنتي عشرة حفلة، تقول نادرة: قبل رحيلي إلى العراق، كنت متألمة من حرارة الصيف في مصر... فرغبت في الهجرة إلى بلد آخر هربًا من الحر... فلما جاء متعهد الحفلات في العراق للاتفاق معي سألته عن حالة الجو هناك، فطمأنني من هذه الناحية... ولكنني حين وصلت إلى بغداد، شعرت بحرارة الجو القاسية التي لا يحتملها الإنسان.

وأضافت: وفي اليوم الأول لوصولي إلى بغداد، أبلغوني أنهم سيهيئون لي مكانًا في أعلى الفندق (السطوح)... فضايقني ذلك، فقلت: «وهل من اللائق بي وبكرامتي أن أنام على السطوح؟ ألا توجد في الفندق غرفة أنام فيها؟ فلما سمعوا

ذلك انتقوا أحسن غرفة في الفندق، وقادوني إليها. وأدرت المروحة التي في الغرفة، وأحضرت زجاجتين مملوءتين بماء مثلج، واحتضنتهما، إلا أن ذلك لم يلطف من حرارة الجو. وفي اليوم التالي، طلبت أن يفرشوا لي (مرتبة) في أي مكان عالٍ.

ونادرة هي أول من غنى أغنية (يقولون ليلى في العراق مريضة، فيا ليتني كنت الطبيب المداويا)، وقد لحنتها نادرة نفسها.

ولم تأتِ زيارة نادرة إلى بغداد مصادفة، بل كان صيتها ذائعًا، ووصل إلى العراق، فكان لا بد من الزيارة، وقد نشرت جريدة «صدى البلد» المصرية (الخبر القديم) ذاك نقلًا عن مجلة «آخر ساعة» في عددها الأول لعام ١٩٣٤، موضحة: (وكانت المطربة نادرة سافرت إلى العراق خصيصًا للسؤال عن صحة ليلى العراقية التي كانت مريضة حينها، وخلال هذه الزيارة كانت تستعد أيضًا لمقابلة الملك غازي في قصره في بغداد لتطربه بصوتها الملائكي، واختارت له قصيدة مخصصة لتغنيها بين يديه، وهو النشيد الذي كتبه الراحل عباس العقاد، وكانت كلمات العقاد إشادة بالملك العراقي، وقال فيها:

(غازي قلوب الشعب بالكرم... والفضل والتدبير والحسنى

غازي العِدا بالبأس والهمم... حسنت طوالع سعدك اليمنى

أحببت في بغداد للدنيا... عهدًا كعهد أخيك مأمون)

وقالت المجلة: (المطربة نادرة كانت من أشهر المطربات في ذلك الوقت، وكان العقاد يخصها بكتابة أغانيها، وكانت نادرة على المستوى الشخصي مقربة جدًا من الأديب والشاعر الكبير العقاد، واستمرت علاقتهما لفترة طويلة).

وتابعت: (أما عن ليلى التي تم ذكرها في الخبر، فقد كانت أديبة مريضة في العراق، وكان قد تم ذكر اسمها في عدة قصائد شعرية، منها ما كتبه الأديب الكبير زكي مبارك فيها، فقد كان أحد كبار الأدباء حتى أواخر الأربعينات، وعاش في العراق فترة طويلة، وكتب قصيدته التي قال فيها: (يقولون ليلى في العراق مريضة... فيا ليتني كنت الطبيب المداويا) (للتصحيح: هذا البيت لقيس بن الملوح).

وأوضحت المجلة: (أما الملك غازي نفسه الذي غنت له نادرة، فكان مولعًا بالغناء الأصيل، وهوايته الثانية التي أودت بحياته، وهي قيادة السيارة بسرعة جنونية، وكان قد لقي مصرعه في حادث سيارة على باب قصره في بغداد).

وقالت المجلة: المطربة المشهورة السيدة نادرة في الأسبوع الماضي من رحلتها التي قضت معظمها في مدن العراق، وبخاصة بغداد، حيث اتفق معها أحد المتعهدين على إحياء اثنتي عشرة حفلة فيها، ويؤكد محرر الموضوع بقوله: (ولقد زرت نادرة عقب وصولها، فهنأتها بسلامة الوصول... وسألتها عن صحة سلامة السيدة ليلى العامرية، التي كانت بالعراق مريضة، والتي سبق لنادرة أن أبلغتنا في خطاب أرسلته إلينا من بغداد أن سبب ذلك

المرض راجع إلى شدة حرارة الجو التي لا يتحملها الإنسان.

وزادت نادرة على ذلك، فقالت أنها قبل رحيلها إلى العراق، كانت متألمة من حرارة الصيف في مصر، فرغبت أن تهاجر إلى بلد آخر هربًا من الحر، فلما جاء متعهد العراق للاتفاق معها على السفر سألته عن حالة الجو هناك، فطمأنها من هذه الناحية، ولكنها حين وصلت إلى بغداد وشعرت بحرارة الجو عادت إلى المتعهد تعاتبه، فأجابها: «أنتِ وأنا في مصر نسيت حر بلادي، فوصفته لك بما شعرت به في بلادك!).

ويوضح: وبعد أن تغزلت نادرة في حر العراق ما شاء لها الغزل، قالت: (أود أن أنصح السيدات الأوروبيات اللواتي يلجأن إلى حمام الشمس في المصايف، كي يَنلنَ اللون الأسمر أن يقصدن العراق، وأنا الكفيلة بأنهن يَعُدنَ إلى بلادهن كالكتاكيت المسلوقة)!

ومن نوادر نادرة في هذا السبيل، أنها كانت تأتي بلوح من الثلج، وتضعه في «البانيو» كلما أرادت الاستحمام.

وبعد أن أحيت نادرة حفلات بغداد قامت إلى البصرة بالطيارة، فأحيت فيها أربع حفلات، ثم عادت إلى بغداد بالسيارة، وفي ذلك تقول أنها قادت السيارة بنفسها، وكانت موضع الإعجاب لمهارتها.

وقد امتدحت نادرة المناظر الطبيعية في البصرة، وخصوصًا (شط العرب)، وقالت: إن هناك نوعًا من القوارب يطلقون عليها اسم (البلم) -بفتح الباء واللام- وهي تشبه تلك التي تمخر شوارع البندقية المسائية، فإذا ركب الإنسان

البلم، وسار في شط العرب، ملكت لبَّه المناظر الساحرة، والسماء الصافية، واستولى عليه الخيال والشاعرية.

وقالت أيضًا: هذا وقد حدثتنا نادرة عن نهر دجلة ومائه العذب، فقالت أنه يساعد على الهضم بسرعة فائقة، فهو في الحقيقة يروي ويداوي في وقت واحد. وختمت المطربة حديثها قائلة أنها وصلت إلى بغداد، ووزنها ستون كيلو جرامًا، ولكن مضايقة الحرلها أنقصت وزنها إلى ستة وخمسين كيلو!

ولما عادت نادرة إلى بغداد، أقامت بضع حفلات أخرى، إلا أن ذلك لم يرق المتعهد الذي اشترط عليها في التعاقد، أن لا تقيم ببغداد حفلات غير الاثنتي عشرة حفلة التي اشتراها لحسابه، ومن ثم رفع عليها دعوى يطالبها بتعويض قدره (٤٠٠ جنيه) لإخلالها بشروط التعاقد، وعرضت القضية أمام «محكمة بداءة بغداد»، وتقدم للدفاع عن المطربة الأستاذ القدير نجيب الراوي، وهو من كبار المحامين هناك، وقد صدر الحكم في مصلحة نادرة، إذ رفضت الدعوى، وأضيفت المصاريف على جانب المدعي... وكانت المحكمة دقيقة في حيثيات الحكم إلى أكبر حد، حيث رأت أن المقصود من عدم إقامة حفلات خلاف المتفق عليه، هو أن لا تكون الحفلات اللاحقة معطلة لحفلات المتعهد... وما دامت حفلاته قد انتهت، فلها كل الحرية في أن تقيم ما تشاء من الحفلات.

فرقد ملكو... تكشف أسرار علاقتها مع كاظم الساهر

لم تكن فرقد... إلا مقدمة برامج تليفزيونية ناجحة متميزة، دخلت عالم الأضواء والشهرة، وقد سجلت حضورًا واضحًا على الشاشة الصغيرة منذ أول ظهور لها، وعبر البرامج التي قدمتها، والتي لم يبق منها سوى (جريدة أم الربيعين التليفزيونية) التي قدمت منها مئات الحلقات.

فرقد التي التقيتها في شهر آذار/ مارس من العام ٢٠٠١، تحدثت لنا عن بداياتها التي كانت مع برنامج (نسمات من بلادي) عام ١٩٨٤، والذي توقف بعد سنوات سبع من ولادته، على الرغم من الطموحات التي كانت في نفوس القائمين عليه للخروج به إلى ساحة أوسع، تشكل الأقطار العربية.

في حديثنا الطويل مع المتألقة فرقد، توقفنا عند علاقتها بالفنان كاظم الساهر، فقالت: كاظم الساهر... أخي، وعلاقتي الأخوية به هذه تمتد إلى الفترة التي لم يقدم فيها أية أغنية بعد، كانت علاقتنا عائلية جدًا، وزوجته (أم وسام) صديقتي جدًا، وطالما عشت الكثير من تفاصيل بداياته، ولحظات أزماته المالية من أجل تحقيق شيء في الفن، ومما أذكره له أنه في أحد الأيام قام ببيع (المكواة) من أجل توفير أجرة السيارة إلى بغداد من الموصل، فكاظم

الساهر كان طموحه منذ البداية كبيرًا، ووحده شق طريقه بيده، وقد عانى الكثير.

*الذي أعرفه أنك كنت قدمتِهِ في برنامج «نسمات من بلادي».

– نعم... أنا أول من قدم كاظم الساهر في لقاء تليفزيوني، وكان ذلك في برنامج (نسمات من بلادي)، وقد كنا نصور تلك الحلقة في منطقة (صدر الدغارة) في محافظة القادسية، حيث اتصلت به في بغداد من الديوانية هاتفيًا، وطلبت حضوره على الفور، فرد علي بقوله: (مسافة الطريق فقط)، وبالفعل جاء، وعملنا له لقاء جميلًا، وقدمنا له ولأول مرة أغنيته التي اشتهرت كثيرًا (تلدغه الحية)!

* وبعد ذاك؟

– كان نجاحه كبيرًا، ولعلاقتي العائلية به والذي كان يحترمها، طلب مني أن أشاركه في تصوير أغنية (لا تحرموني منه)، لكنني رفضت، وظل يصر على ذلك، فقبلت بشرط أن لا تبدو صورتي واضحة، فكان ذلك، وكذلك أرادني أن أشاركه في تمثيل مسلسل (المسافر)، وطلب أن يكون لي دور في المسلسل، والذي كان فيه كاظم يخاف من التمثيل، فكنت أقول له: (لا تخف... فأنت في أغنياتك كنت تمثل!).

*** ما الذي تسجلينه لكاظم الساهر، وعليه؟**

- أسجل له إصراره منذ البداية ومعاناته الشديدة من أجل أن يكون ناجحًا، وأسجل عليه أنه في كل لقاءاته لم يذكر البرنامج الذي قدمه، ولم يذكر من قدمه، وأول من أجرى معه لقاء تليفزيونيًا!

عبد الرزاق العزاوي: نحن بحاجة إلى نوع آخر من الغناء

في شهر كانون أول من العام ٢٠٠٢ التقيت الموسيقار عبد الرزاق العزاوي، وتجاذبنا أطراف الحديث حول الموسيقى والغناء وواقعهما، وسمعت رأيه الذي قال فيه: (نحن بحاجة إلى نوع آخر من الغناء).

سألته عن واقع الأغنية العراقية، وعما يراه من طموح إليها في نفسه، فأجاب قائلًا:

الأغنية العراقية متطورة مع الزمن، سواء بمواضيعها أو ألحانها أو إيقاعاتها، وتواكب روح العصر، إلا أن هناك بعض الشوائب الصغيرة، وهذا موجود في كل مجال فني، أنا أرى أن الأغنية بخير من الناحية الجمالية والفكرية، وهي على مختلف أنواعها، سواء كانت السياسية أو الاجتماعية أو العاطفية، أدت دورًا مهمًا، واستطاعت أن تؤثر بشكل كبير في المستمع، وتتفاعل مع كل الأحداث، وأيضًا من الناحية الفنية استطاعت أن تستخدم تراثها وجذورها، وتمازج ذلك مع الإيقاعات والألحان التراثية غير العراقية والعربية، فتأثرت به، وذلك نتيجة لوسائل الاتصال الحديثة من قنوات فضائية و(سي دي)، وهي لم تكن مقلدة، وإنما متطورة مع ما يحدث في العالم، وتحاول أن تنهض بنفسها نحو العالمية، لكن هذا الطريق صعب، ويحتاج إلى مستلزمات كثيرة من المعرفة والدراسة.

وأضاف الفنان العزاوي:

الخلل في الأغنية يكمن في الأداء، فلا مشكلة لديها في اللحن والكلام والتوزيع، ولا حتى في التقنيات الصوتية، وإن كان فيها ضعف، لكن المشكلة الحقيقية هي في الأداء، فالعناصر النسائية لديها هبوط في مستوى الأداء، والعناصر الرجالية متفاوتة، وإن كان هناك شباب سجلوا حضورًا متميزًا، لكنَّ الآخرين دون المستوى الاعتيادي، والأداء يحتاج إلى عناصر عديدة أولها: الاستماع، فلا بد أن يكون المؤدي مثل الكاتب أو الروائي، عليه أن يقرأ لتكون لديه ملكة القراءة، المطرب بحاجة إلى أن يسمع أصواتًا عديدة أو مصادر ليوسع مداركه، ليستطيع أن ينوع أداءه، وحتى لا يكون أحادي الأداء، وثانيها: التمرين الصوتي، مدى التنفس، مخارج الحروف وتمارين الطبقة الصوتية، وهذه في الأغلب لا يعرفها المؤدي، ولا يسأل عنها، ولا يتابعها، وعلى المؤسسات الفنية أن تعمل الكثير في هذا المجال للنهوض بالواقع الغنائي، فأنا أدعو هذه المؤسسات إلى إقامة احتفالات غنائية، ومسابقات تحدد فيها الشروط المعنية، فنية وفكرية، لغرض الوصول إلى المستوى الذي هو أكثر من واقعنا الحالي، هذا فضلًا عن حاجتنا إلى نوع آخر من الغناء يخاطب الحس الثقافي والوجداني والفكري، وليس فقط الجانب العاطفي الذي أغرقنا به، بحاجة إلى غناء يخاطب الفئات العمرية المختلفة في المجتمع، لأن غناءنا الحالي ٩٠٪ منه يخاطب المراهقين، الفئات الأخرى شبه منسية، وهي (تجتر) الأغاني القديمة، وتعدها تراثًا

وماضيًا حلوًا، وكذلك نحن بحاجة إلى أغانٍ للطفل، فهو ليس له غناء، فأنا أرى من (الخطيئة) أن يغني الطفل لأم كلثوم... وكل ذلك على عاتق الأغنية العراقية.

حسين الأعظمي: بيئة الأعظمية هي السبب

كيف هو تأثير البيئة على الإنسان الفنان؟

سؤال طرحته على الفنان حسين الأعظمي قارئ المقام المعروف، فأجاب قائلًا: بشكل عفوي منذ الوهلة الأولى أحسست أنني أنتمي إلى بيئة أسرية، تنتمي بدورها إلى ممارسة الأداء المقامي دينيًا دون احتراف، وهذا الجو الأسري هو الذي جعلني أدرك منذ وقت مبكر أن المقام العراقي سيكون مصيرًا لحياتي، إذ إنه جو مشحون بالمقام حتى في اللاوعي.

ثم أوضح الأعظمي مكان ولادته ونشأته، فقال: ولدت في الأعظمية بمحلة الحارة التي امتدت إلى الهجرات الأولى قبل ٨٠٠ عام، وهي منطقة تراثية، وفيها جامع الإمام الأعظم، ولا أدري ما سر أن تحافظ المناطق الدينية على التراث بأشكاله كافة، وتقوى فيها أواصر العلاقة بالتراث، ومن هنا كان للبيئة هذا التأثر السحري عليَّ، وهكذا كنت دون اختيار طبيعة النشأة، ولهذا السبب، يقال بأن التراث يمتلك ولا يعطي، وبصراحة كنت الوحيد الذي غامر، وقدم نفسه إلى وسائل الإعلام، ليغني المقام العراقي، والبيئة الأسرية الدينية لم تشكل ضدي إلا معارضة بسيطة لقناعة أهلي أن المقامات العراقية ليست سوى تراث الآباء والأجداد، وغناؤها ليس مثل جو الغناء الاعتيادي،

على الرغم من أنهم كانوا لا يحبذون مشاركتي في الحفلات الأسبوعية التي كانت تقام في المتحف البغدادي في مطلع السبعينيات، وكان ذلك في يوم ٢٣/ ٣ / ١٩٧٣ الذي احتفل به سنويًا.

الأعظمي يؤكد: أن البيئة هي التي جعلته هكذا، فتأثيرها كان بالغًا عليه.

شعوبي إبراهيم... رحل والجوزة في أحضانه!

أسرني الدكتور هيثم شعوبي... أن والده عازف الجوزة الشهير شعوبي إبراهيم (١٩٢٥- ١٩٩١)، رحل عن الدنيا، وهو يحتضن الجوزة التي عاش معها ردحًا من الزمن، وعلاقة توثقت عبر السنوات، لتكون أقرب الآلات إلى نفسه.

وهيثم... هو الابن الوحيد من أبناء الفنان شعوبي إبراهيم الأحد عشر الذي اتجه إلى الفن، وتخصص في (الجوزة) التي اشتهر بها والده.

يقول د. هيثم: والدي هو الذي شجعني دون إخوتي بعد أن وجدني متأثرًا به، فتعلمت منه الكثير، ودخلت معهد الدراسات النغمية، وكان هو مدرسي في البيت وفي المعهد، ثم اتجهت اتجاهات أكاديمية، حيث كتبت مؤلفًا بتاريخ الموسيقى بعد أن أكملت كلية التربية/ قسم التاريخ، وبدأت أدرس تاريخ الموسيقى في المعهد بصفة معيد من عام ١٩٧٨ إلى عام ١٩٨٣.

قلت له: لماذا الجوزة؟ فقال: هي آلة من الآلات المصاحبة للجالغي البغدادي، وحتى أن لها تسمية ثانية هي (الكمنجة البغدادية)، وسميت بهذا الاسم، لأنها مأخوذة من المادة المأخوذة منها، وهي (جوز الهند)، أي أنها نصف ثمرة جوز الهند، وهي تتميز بالصوت الذي ارتبط

بفن المقام، وإذا ما كان هناك عيب فليس في الآلة... بل في العازف، والمسؤولية مرتبطة بمعهد الدراسات النغمية الذي يجب أن يأخذ على عاتقه إحياء هذه الآلة التراثية، ومعها السنطور أيضًا، فالإقبال الحالي عليها قليل، وحيث إن الذي يعزف على الجوزة لا بد أن يكون ملمًا بالمقام، وأغلب شبابنا بعيدون عنه.

سألت د. هيثم: ما الذي ظل في بالك من الوالد؟ فقال: يوم التاسع من أيلول رحل عن الدنيا، وما أذكره عنه أن الجوزة كانت تمثل حياته، وقبل أن يموت بيوم واحد كان يحتضنها، ولم يهتم إلا بها، وكان يدندن عليها بأصابعه حتى ماتت أصابعه على أوتارها!

ذياب مشهور... المشهور عراقيًا

حينما نقلت الأخبار نعي المطرب السوري ذياب مشهور (١٩٤٦ – في ٢٤ أيلول / سبتمبر ٢٠٢٢)، كانت دوائر التذكر تدور في ذاكرتي، فأنا أعرفه، ولي قصة معه وأنا صغير، وكنت أعرفه عراقيًا، لأن لهجته عراقية.

ذياب... اشتهر في العراق بشكل كبير حتى صارت أغانيه الأكثر انتشارًا، لا سيما التي غناها في مسلسل (ملح وسكر) مع دريد لحام وصباح الجزائرية، إنتاج عام ١٩٧٣، وكانت أغنيتاه «يا بو رديِّن يا بو ردانة» و«عالمايا عالمايا»، أكثر ذيوعًا، مثلما اشتهرت له أغنية (يا نمنم خانم).

لم يكن التليفزيون آنذاك قد دخل كل البيوت، وأعتقد أن الإذاعة والتليفزيون كانا يبثان الأغنيتين، كان عمري ١٣ سنة حينما سمعت الناس يتحدثون عن هاتين الأغنيتين، فكنت أحاول الوصول إلى مقهى (حسين اعزيز) القريبة من بيتنا لمشاهدة هذا المطرب الذي كنت أظنه عراقيًا مثل الكثيرين، كنت أسمع اسمه من التليفزيون، وحين أرجع إلى البيت مبتهجًا أخبر أهلي بفرح طفولي وانتصار (قالوا عنه أنه مشهور)! ولم أكن أعلم أن اسمه (ذياب مشهور).

وقد كنت أنا الصغير متأثرًا بالكبار الذين يحرصون على سماع الأغنيتين، ومشاهدتهما على شاشة التليفزيون، بل إنني كنت أسمع تعليقات جميلة حول الأغنيتين،

فالكلمات تبدو عراقية شعبية سهلة (شكلنالج يا دادة زعلانة) و(وبصوابو دكدك اعظامي) و(ومحني روس أصابيعه) وغيرها، فضلًا عن ما أضفاه على الأغنيتين من تصويرهما ضمن أحداث المسلسل.

وفيما بعد عرفنا سر إعجاب العراقيين له، لأنه يغني الأغاني الفراتية القريبة من الذائقة العراقية، فضلًا عن تأثره منذ الصغر بالفنان العراقي حضيري أبو عزيز.

ذياب أو (دياب) مشهور، كان علامة فارقة في ذلك الزمن، لا يمكن أن تُنسى، رحمه الله.

مقطع من أغنية (موعود)

هل سبق أن قرأت هذا الجزء من أغنية (موعود) لعبد الحليم حافظ قراءة متأنية متأملة، أو استمعت إليه وأنت مغمض العينين، ومتخيلًا ما يحدث في الكلمات والموسيقى والأداء؟

(الغناء لعبد الحليم حافظ، واللحن لبليغ حمدي، والكلمات لمحمد حمزة، إنتاج ١٩٧١).

قد يكون المقطع عاطفيًا، لكنه ليس لامرأة، ولا عن امرأة، ولكنه حديث القلب عن القلب إلى القلب في حياة مترامية الأطراف، متلاطمة الأمواج، مضللة، القلب الضاجُّ بالذكريات والأمنيات والتوقفات في محطات عديدة من الحياة، إنها شيء من فلسفة الحياة التي نبحث عن تفسير لها، التي تعترينا، وتتركنا هناك نهبًا لطرح الأسئلة).

(سيكون إحساسك بالأغنية أكثر لو كنت متقاعدًا عاطلًا، أو تعاني من عناءات الشيخوخة!).

وإذن... عليك أن ترى أين أنت من الواقع المعاش، ربما تلتفت في الأرجاء، ولكن الحياة مفرغة من حولك، لا يمكنك أن تعاتب بقدر ما تطرح تساؤلًا يكون جوابه معروفًا لديك، لكنك بسبب الأسى تحاول أن تتجاهل، فالحياة تركتك هاهنا، أنت وقلبك، وحيدين إلا من عناء الواقع.

(شوف بقينا فين يا قلبي
وهي راحت فين
شوف خدتنا لفين يا قلبي
وشوف سابتنا فين)

في صوت حليم الهادئ الوديع... شجن يتفجر متصاعدًا، ثمة قطرات أسى تنزل من سماء عالية لتصل إلى شغافك، يهز كوامن الذكريات، ويهدر بوجع خامل، وتتحول الكلمات إلى عيون ترى، لكن مآقيها تنزُّ، أرض سبخة تنزُّ ماء، أي مشهد حياتي مثير، خاصة مع امتداد كلمة (شووووووف) بقرارة صوت حليم.

لكن المسافات التي تنظرها خلفك تعيدك إليها، أو تحاول سحبك، لكن لا فائدة، فأنت تدور حول نفسك ضائعًا في البقعة المظلمة التي تقف عليها.

(فى سكة زمان راجعين فى سكة زمان
فى نفس المكان ضايعين فى نفس المكان)

لهذا... لا تجد بدًا من الاعتراف بما فعلته بك الحياة:

(لا جراحنا بتهدا يا قلبي
ولا ننسى اللى كان يا قلبي... شوف)

هل شفت... أيها القلب؟ تلك هي الدنيا، صارت أمام عينيك فضفاضة، تسخر منك وأنت ترفع يديك مستسلمًا لفراغك الهائل، وتقطر: ذ... ذك... ذكر... ذكريات! ومهما تشتد بك الخطوب وتركض، وتحاول أن

تتشجع، فأنت إلى صوت الناي أقرب!

(بتصحي الطريق خطاوينا وأنين السنين
والسما بتبكي علينا والناي الحزين
حتى نجوم ليالينا والقمر غايبين)

و... تعود، وقد أمسكت بك متاهات مختلفة، لتتفن بك:

(وتاني تاني تاني راجعين أنا وأنت تاني
للنار والعذاب من تاني
وتاني تاني تاني راجعين للحيرة تاني
هايمين بنجري ورا الأماني)

لماذا يصفق الجمهور، ويشتعل حماسًا يا حليم، وأنت تؤكد على حقيقة الإخفاق والخيبة التي تحملتها أنت وقلبك حينما تركضان وراء الأماني، وليس هنالك سوى الدخان والظلام، ومن ثم الندم.

(ويغيب القمر، ونعيش السهر، وآهات الألم، وليالي الندم)

أراني... في هذا الضياع أتوسل الدنيا أن تعيد شريطها، أن تمحو كل ما حدث لي معها، أن لا تهزمني في سنوات الصبا والشباب، أن تمنحني حق أن أكون فارغًا مثل كثيرين، تجردني من الإحساس الذي جلب العناءات لي، ومن ذلك الذي يسمى (الحب)، ولا تجعله يطل عليَّ برأسه، فنفتح أذرعنا لاحتضانه، توسلات لن تفضي سوى إلى إعادة المشهد من أوله:

و(وأمانة يا دنيا أمانة، تداوينا من جرح هوانا
وتخلي الحب بعيد عنا، ولا نستناه ولا يستنانا
أمانة)!

إعادة المشهد الحزين من أوله حيث ((شوف بقينا فين يا قلبي، وهي راحت فين، شوف خدتنا لفين يا قلبي، وشوف سابتنا فين)، وليس في جعبة القلب سوى الناي.

ريحة الورد ولون العنبر

هذه الأغنية (ريحة الورد ولون العنبر) غناها الكثيرون، لكنها في الأصل للمطرب ناظم الغزالي، غناها في العام ١٩٦١، وهي من كلمات: جبوري النجار، وألحان: ناظم نعيم.

استوقفتني كلمات مطلعها: (ريحة الورد ولون العنبر/ بخدودك يا حبيبي الأسمر)، حاولت أن أضبط ما بين الرائحة واللون على خدود الحبيب الأسمر، حسب ما جاء في الأغنية، ثم تساءلت: لماذا قال المغني: (ريحة الورد ولون العنبر/ بخدودك يا حبيبي الأسمر)، وما قال: (لون الورد وريحة العنبر)، وهي حسب رأيي: الأصح؟

لماذا؟

فأنا على يقين أن الشاعر النجار لا يقصد بلون العنبر ما ينتجه الحوت، والذي هو: (مادة رمادية أو بيضاء أو صفراء أو سوداء، يستخدم في تحضير وتصنيع أفضل وأغلى أنواع العطور. ويعيش حوت العنبر في المحيطات، يأكل ما شاء من المخلوقات البحرية).

ولكن بالتأكيد يقصد (رز العنبر) أو تمن العنبر، أو الشلب هو أحد أنواع الرز، والذي يُعد الأفضل والأكثر إنتاجًا في العراق، بسبب (شدة بياضه) و(رائحته المميزة)، وغير ذلك... بل إن العارفين بهذا النوع من الرز، يؤكدون على

مواصفاته التي من أهمها: (لونه أبيض، ورائحته قوية).

وهنا يمكن القول بناء على ما جاء أن لون العنبر لا يمكن أن يكون على لون بشرة الحبيب الأسمر، فضلًا عن ذلك أن المقطع الثاني من الأغنية يؤكد ما ذهبنا إليه حين يقول: (الورد مفتح بخدودك، تزهي الشامة بين ورودك)، هنا يشير الشاعر إلى كون الورد بشكله هو الذي يزدهي على خدود الحبيب، ويؤكد ذلك بتغزله بالشامة المطلة زاهية ما بين الورد، كما أن المقطع الثالث يحمل الشيء نفسه حين يقول: (بإكليل الورد أنت مصور/ والشعر الفاتن يتموج).

لذلك؛ يمكن القول أن الشاعر سحبه الإيقاع والضرورة التي جعلته يغلط هذا الغلط غير المقصود.

هذا رأيي، وأترك للآخرين حرية التعبير!

المغنية الأميركية Mary McBride...
تحيي حفلًا في بغداد

هذا الحدث يستحق أن يؤرخ، لأنه جاء في زمن عراقي صعب، لا سيما من الجانب المعنوي، كان ذلك خلال المدة ما بين ١٥- ٢٣ من شهر مايو ٢٠١٢ التي زارت فيها المغنية الأميركية مري مكبريد بغداد.

وسط حشد كبير من الشباب العراقي، ولمدة ساعتين، أقامت المغنية الأميركية مري مكبريد حفلًا غنائيًا في بغداد معبرة عن سعادتها بزيارتها للعراق التي هي الأولى لها، وفاجأت الجمهور بغنائها للأغنية العراقية (هي وهاي وهي)، تفاعل معها الجمهور.

أحيت المغنية الأميركية (Mary McBride) ماري مكبريد حفلًا غنائيًا في بغداد، حضره السفير الأميركي جيمس جفري، وحشد كبير من الجمهور العراقي الذي غصت به قاعة تموز بفندق عشتار (شيراتون)، قدمت أغانيها تباعًا، ودون توقف ودون تعب، أغنيات كثيرة مختلفة الأنماط ما بين السريعة والهادئة، وما بين الفردية والمشتركة مع أحد أفراد فرقتها، كان صوتها الصداح يملأ القاعة فيما الجمهور يتفاعل معها، يردُّ على حركاتها وعلى كلماتها، فلم يستطع الكثيرون إلا أن ينتهوا بالقرب منها يتراقصون على اهتزازات صوتها والآلات الموسيقية،

فيما تساءل الكثيرون: ماذا لو كانت هذه الحفلة في ساحة التحرير وسط بغداد؟!

ابتدأ الحفل بعزف النشيدين الوطنيين الأميركي والعراقي، ثم حيا السفير الأميركي المغنية وفرقتها على تجشّمها عناء السفر للوصول إلى بغداد وتقديمها حفلات للعراقيين، كما حيا الحضور الكبير اللافت، مشيرًا إلى أن المغنية تعد سفيرة للثقافة في وزارة الخارجية الأميركية، وهي تسافر إلى جميع أنحاء العالم لإحياء حفلات غنائية، وإلى جميع الأماكن المهمة، ذهبت إلى تركيا والصين وأفغانستان وإيطاليا، وهي الآن تحل قي بغداد.

ماري... مع فرقتها استدرجت الشباب الذين ما وجدوا بدًا من القفز إلى الساحة الصغيرة أمام المنصة التي تقف عليها المغنية، وبدأوا يتراقصون على أنغام الموسيقى، أكثر من ثلاثين شابًا نزلوا إلى الساحة، وتواصلوا بأشكال من الرقص، وكانت المغنية بين حين وآخر تحيي الجمهور، وتقول لهم كلمات مثل: (أنا أحبكم، شكرًا لكم)، ثم دعت المغنية أحد الشباب إلى مشاركة الفرقة في العزف على الكيتار، فتناول الكيتار ووقف الشاب خجولًا... في الطرف القصيِّ من الفرقة إلا أن أحد أعضاء الفرقة سحبه ليجعله يقف في الوسط بالقرب من المغنية! وسرعان ما تبدد خجله، وانطلق في عزفه إلى انتهاء الأغنية، وتواصل الغناء إلى أن فاجأت المغنية الجمهور بغنائها لأغنية عراقية سريعة للمطربة البصرية الراحلة (ربيعة) وهي: (هي وهاي وهو / اليوم اجانه الزين / يا هو اللي يحسسه)،

غنتها على طريقتها الأميركية بشيء من الصعوبة، إلا أن الإيقاع كان واحدًا، فتفاعل معها الجمهور بصراخ تارة، وغناء معها تارة أخرى، وبعد هذا بأغنيتين اختتمت المغنية الحفلة بتحية كبيرة وقبلات للجمهور.

وبعد انتهاء الحفلة حاولنا التحدث معها، فقالت ماري لـ (إيلاف): من دواعي سروري أن أكون في بغداد لأول مرة، وهذه زيارتي الأولى للعراق، وهي تعني الكثير الكثير لي، وللفرقة الخاصة بي، وقد عملنا المستحيل من أجل أن نأتي إلى بغداد، ونقدم أغانينا للجمهور العراقي الذي رحب بنا كثيرًا، وليتعرف العراقيون على الثقافة الأمريكية والموسيقى الأمريكية، اتخذنا قرار المجيء إلى العراق بعد تباحث لمدة شهرين، وعندما سألوني رأيي لم أجد غير دقيقة واحدة لأجيب بكلمة نعم.

وأضافت: صورة أي بلد لا يمكن أن تعرفها ما لم تزُرْهُ بنفسك، فالترحاب الرائع الذي تلقيته بدءًا من الأطفال والأكبر منهم، ومن ثم البالغين، شيء جعلني أعيش في شعور لا يوصف، تواجدي في بغداد جعلني أكون سعيدة جدًا جدًا.

وقالت عن الظروف الأمنية في العراق: هذه أول زيارة لي، والترحيب الذي شاهدته، والحضور، يؤكد على أن الوضع مستقر تقريبًا، لأنني شاهدت كيف أن العراقيين يحبون المشاركة والاستماع، وكأن هذه برامج تبادل ثقافي بعيد عن السياسة، وبعيدًا عن الأمور الأخرى، فنحن نرى تقارب الشعوب من ناحية الموسيقى. وكنا قد التقينا

قبل بدء الحفلة إحدى الموظفات في السفارة الأمريكية في بغداد، وحدثتنا عن المغنية والفرقة التي تحمل اسمها، فقالت: اسمها ماري ماك بريد (Mary McBride)، والفرقة تحمل اسمها، معها خمسة أعضاء في الفرقة يعتبرون من (الروكرز) في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي ليست فقط مغنية وإنما كاتبة أغانٍ، بدأت رحلتها الفنية منذ وقت مبكر، اشتغلت في هذه المجال ونجحت، وكانت لها جولات عديدة في عدة بلدان، منها أفغناستان التي كانت فيها رحلتها الأخيرة.

أنا سعيدة جدًا بزيارتي هذه للعراق التي هي الأولى، وهي تعتبر سفيرة الثقافة في الولايات المتحدة، لأن الموسيقى التي تقدمها لا تعتبر من الموسيقى الصاخبة جدًا، بل يمكن اعتبارها عقلانية، النوع الذي تغنيه ماري ماك بريد ليس فيه شيء من الأغاني الفاحشة، بل إنها قريبة من الحب العذري الموجود لدى العرب.

وأضافت: ستبقى ماري في بغداد لمدة أسبوع، وخلاله ستنتقل في العديد من المناطق، وقد كانت في البصرة، وقدمت حفلًا موسيقيًا في القنصلية، حضرها عدد كبير من أبناء البصرة، وفي بغداد كانت لها حفلات عديدة في معهد الفنون الجميلة للبنين والبنات، وقدمت حفلة لدار المسنين، لأنها تعتبر الموسيقى هنا حالة علاجية للحالات النفسية المتعسرة، كما قدمت حفلة دار الأيتام.

* * ما لفت الانتباه خلال الحفل، أن موسيقى النشيد الوطني العراقي التي عزفت هي موسيقى النشيد القديم

(وطن مُدَّ على الأفق جناحًا)، والطريف أن مع أول نغمة في اللحظة الأولى احتج الجمهور بصيحات عالية، مما حدا بالقائمين على إيقافه، ومن ثم عزف النشيد الوطني الحالي (موطني)، والأظرف أن الأمريكيين المتواجدين داخل القاعة استغربوا صيحات الاحتجاج، وراحوا يتساءلون عن سببها، فابتسموا حين علموا السبب!

وائل جسار... في سيارة أجرة في بغداد!

لم أكن منتبهًا للأصوات التي يبثها مذياع سيارة الأجرة العامة ذات الـ ١٢ راكبًا، إلا حينما تحدث رجل مع آخر كان يقابله، وقال: هذا الصوت جميل جدًا ويعجبني جدًا، رد عليه الآخر متسائلًا عن صاحب الصوت، فاستغرب الأول قائلًا: هل من المعقول لم تسمعه؟ يا أخي هذا مطرب صوته جميل جدًا، اسمه وائل جسار! وسرعان ما التفت المتسائل ليخاطب السائق: هل هذا راديو أم مسجل؟ وحين أخبره أنه مسجل طلب منه أن يعيد سماع الأغنية لهذا المطرب، فأعاد السائق الشريط، كانت الأغنية تحمل عنوان (غريبة الناس): يقول مطلعها:

(غريبة الناس، غريبة الدنيا دية / أعز الناس بيتغير عليَّ / ما فيش إحساس / مفيش ولا ذكرى دية / خلصنا خلاص / أنا ماشي وجيبها فيَّ).

وتمايل الرجل طربًا، مما دعا إلى أن ينتبه إليه كل من في السيارة، كنت واحدًا ممن انتبهوا، ورحت أتأمل المشهد الذي أمامي، قام السائق برفع صوت الأغنية، كان صوت المطرب وحده ينتشر في فضاء السيارة، وكان الجميع يرسمون ابتسامات على وجوههم مع إصغاء الرجلين معًا، وحين انتهت الأغنية قال السائق: هل أعيدها؟ فقال له: يجوز ما تعجب الإخوان، فقال بعضهم: لا والله حلوة، فيما

يجب البعض الآخر.

وأخذ الرجل يعرب عن إعجابه بصوت المطرب واصفًا إياه أنه من الأصوات القليلة التي تملك الشجن، وأنه مؤثر جدًا لكونه مليئًا بالإحساس والدفء، ويهز المشاعر بنبرات صوته الجميل، أيده صاحبه الذي استغرب من نفسه، كيف لم ينتبه إلى هذا الصوت، ووصفه بالمؤثر فعلًا، وتساءل منه: هل هو لبناني؟ قال الرجل: نعم، وأضاف: أنا شاهدت أغنيته بالمصادفة على إحدى القنوات، وأعجبتني لكلماتها الجميلة ولحنها المؤثر، بالإضافة إلى صوته الحنون الرومانسي.

سائق السيارة هو الآخر اشترك في الحديث، فقال أنه معجب بالمطرب، لذلك؛ اقتنى شريطه، وأنه يجده أفضل من الكثيرين من المطربين، فقال له الرجل الثاني: أنا لأول مرة أسمعه، وعجيب أن أكون ما سمعته من قبل، الظاهر ما يطلعونه كثيرًا في المحطات، أما المرأة القريبة منهما، فقالت: والله عندي ابنتي ما تسمع غيره، و٢٤ ساعة تسمع أغانيه!

في المساء كنت على موعد مع وائل جسار على النت لأسمع أغنيته هذه، فأعجبتني كثيرًا، وحين انتهيت من سماعها لعدة مرات اتصل بالصديق المطرب جواد محسن لأسأله عنه، فقال: صوت فيه من التعبيرية اللذيذة، يحاول فيه أن يمازج التراث بمعاصرة حديثة، أي أنه يوظف الماضي بطريقة معاصرة، دون أن تفقد الماضوية وجودها العصراني، في صوته نوع من الجمال الذي تتقبله الأذن

الحديثة والذائقة بشكل عفوي، لأن ليس فيه ابتذال، ونحن نعرف أن أغلب المُغنيين لديهم ابتذال بالأنموذج اللحني الذي يقدمونه، في صوت وائل جسار هناك أناقة في الأداء، لا تجدها في كثير من أصوات المُغنيين.

وأضاف: من المؤسف أن وائل جسار لم يأخذ نصيبه من الشهرة التي تدخل في تكوينها العلاقات والتسويق، وأشياء أخرى، وهي تلعب دورًا في انتشار المطرب، وأعتقد أن وائل جسار من الأصوات التي يجب أن يكون لها مكان صريح في عالمنا الغنائي.

سامي عبد الأحد... ملك الطبلة في العالم

حين نذكره أمام موسيقيين ومغنيين سيذكرون أنه (ضابط الإيقاع الشهير)، بل إنهم يزيدون على ذلك بقولهم تأكيدًا أنه (ملك الطبلة في العالم)، وهو صاحب لقب (ملك الطبلة في العالم) الذي ناله خلال مشاركته في مهرجان الرين في باريس عام ١٩٨٤ إثر مشاركته مع ٤٠ عازف إيقاع من بلدان العالم.

له سيرة فنية طيبة يذكرها له زملاؤه ومحبوه، حيث عاصر جميع المطربات والمطربين منذ عقد الخمسينيات، حين جاء الفتى الموصلي إلى بغداد في العام ١٩٥٣ متأثرًا بأبيه عازف القانون، لكن الطبلة استهوته أكثر، فجعل العلاقة بينهما وشيجة ومهنية، وقد وجد أصابعه تقرع سطحها الناعم الأملس ليهتز منها الصوت الذي يطرب، ويترك ابتسامة على الشفاه، حيث تتلو الإيقاعات بصراحة.

سيرته فيها الكثير من الأسى، لا سيما أنه عانى المرارات في سجون البعث منذ عام ١٩٦٣، وكابد ما كابد في سجن (نقرة السلمان) الرهيب، كان مناضلًا، لم ينحنِ لأبواق الأنظمة، واشتهر بفنه كعازف إيقاع ضمن «فرقة الإيقاعات العراقية» التي قادها، وهو القائل أنه حوَّل آلة الطبلة من آلة إيقاعية إلى آلة موسيقية، فيما ذكره المطرب حسين الأعظمي بخير في كتاباته عنه في العام ١٩٩٦، قائلًا:

مهما تحدثتُ عن أخي وصديقي العتيد الفنان الكبير سامي عبد الأحد، فلا أعتقد أنني أصل إلى التعبير المناسب عن حقيقة أخلاقه وتربيته الرفيعة وفنه الراقي. فسامي عبد الأحد فنان من الطراز النادر، ومن الفنانين الذين يصعب تكرارهم...! عازف إيقاع من الطبقة الأولى وبامتياز، وعازف آلة القانون أيضًا، حيث تعلم العزف عليها من والده المرحوم عبد الأحد جرجيس عازف آلة القانون الشهير. واستمرت الوراثة في احتضان هذه العائلة الفنية لآلة القانون إلى الحفيد فادي سامي عبد الأحد، الحفيد الذي أحب هذه الآلة من خلال والده سامي وجده عبد الأحد جرجيس، ومن ثم درسها أكاديميًا في معهدنا الأثير -معهد الدراسات الموسيقية-...!

كتبت عنه حين رحل عن الدنيا يوم الاثنين ١٦-١٢-٢٠١٣، عن عمر يناهز الثمانية والسبعين عامًا، مستذكرًا سيرته التي يستحق أن نذكرها له، تاركًا خلفه تاريخًا من الإبداعات الفنيَّة والذكريات، رحل بصمت مثل الكثيرين من مجايليه.

وهو القائل عن سيرته الفنية: الفضل الأول في إنعاش الذاكرة يعود لوالدي المرحوم عبد الأحد جرجيس، عازف القانون الشهير، الذي تعلَّمت منه الكثير، بدءًا من فنه والتزامه وصولًا إلى إبداعه الذي أسهم في شهرتي، كان يتعجب كثيرًا، وأنا في صباي، لعزفي على آلة القانون، ومن ثم دوزنته وتهيئته له عندما كان يحضر لحفلاته الموسيقية، سواء في الإذاعة أو الجلسات الخاصة، هذه

المرافقة حققت لي مبتغاي الفني، واتِّقاد موهبتي، وإشباع رغبتي في العزف على آلة الإيقاع التي لم تأتِ بالمصادفة كونها كانت تمثل لي البداية.

ويوضح: الطفرة الفنية الأهم في حياتي الفنية، وأنا ابن الأربعة عشر ربيعًا، هي زيارة الفنان الراحل محمد عبد المطلب في العام ١٩٤٩ إلى بغداد، وصادف أن غاب عازف الإيقاع لأسباب شخصية عن الفرقة، فلم يكن من والدي إلا أن زجَّني مع الفرقة للعزف على الطبلة، عزفت مع الفرقة مرتديًا زيَّ المدرسة الابتدائية، وغنى حينها عبد المطلب أغنياته الشهيرة، واجتزت هذا الاختبار العصيب بنجاح بعد أن قبلني جميع من كان في الفرقة، وعلى رأسهم عبد المطلب الذي تنبأ لي بمستقبل جيد.

وأضاف: في خمسينات القرن الماضي عندما غادر الموسيقيون القدامى، وأخذت تخلو الإذاعة من الموسيقيين، طلبت عازفين جددًا، عندها تقدَّمت بطلبي إلى اللجنة المشرفة حتى تختبرني وتوافق مباشرة، في وقتها كنت صغير السن، ولم يسمح القانون بتعييني على الملاك الدائم، وكنت أتقاضى في الأسبوع «دينارين»، ثم انضممت في العام ١٩٥٦ إلى فرقة الإذاعة الرئيسية، وشاركت في جميع أعمالها الفنية وأنا بعمر ١٨ عامًا. في عام ١٩٥٦ عندما افتتح التليفزيون العراقي، عزفت للمرة الأولى مع الفرقة رسميًا مع المطرب الراحل حضيري أبو عزيز، بعد أن أنهى الملك فيصل الثاني كلمته بتلك المناسبة، ومن ثم عزفت للفنانين ناظم الغزالي وعفيفة إسكندر، وكانت الفرقة تضمُّ خيرة

العازفين، ومنهم عازف القانون والملحِّن المعروف سالم حسين، وخضير الشبلي، وكريم بدر، وناظم نعيم، وروحي الخماش، وعازف الرق حسين عبد الله، وتوالت بعدها المشاركات المحلية والخارجية في معظم البلدان العربية والعالمية، والعزف مع مطربين عراقيين أمثال رضا علي، عباس جميل، نرجس شوقي، مائدة نزهت، فاضل عواد، سعدون جابر، ياس خضر وغيرهم، وكذلك مع مطربين عرب، مثل سعاد محمد، صباح، نجاة الصغيرة، فائزة أحمد، وغيرهم».

وتابع: «أبرز إضافة فنية هي إدخال الصولو الإيقاعي للمرة الأولى قبل وأثناء الانتقالات الموسيقية في معظم الأغاني العراقية، وحتى العربية منها، وتشكيل فرقة الإيقاعات العراقية بمشاركة الفنان الراحل منير بشير، ومشاركتها الكبيرة في المهرجانات العربية والعالمية التي أثمرت عن حصولي على لقب ملك الطبلة في العالم في مهرجان الرين عام ١٩٨٤ في باريس، وذلك بحسب اللجنة التحكيمية المشرفة على المهرجان، وبمشاركة ٤٠ فرقة إيقاعية من مختلف أنحاء العالم».

ويشير الراحل إلى أن المحطَّة الأبرز في حياته الفنية هي الحفلات الموسيقية والغنائية التي كانت تقيمها شهريًا قاعة الرباط، خصوصًا مع الفنان الكبير حسين الأعظمي في فرقة المقام العراقي التي استمرَّت لأكثر من ٣٥ حفلة وأغنية وطنية، ظلت راسخة في ذاكرته الفنية، كتبها الشاعر الكبير حامد العبيدي، بعنوان «أصلي وأصلك

عراقي»، وهي تتحدث عن تاريخ جميع مدن العراق.

ومن ذلك كانت هناك كلمات رثاء بحقه من الذين عرفوه عن قرب دونتها ونشرتها.

فقد نعاه الفنان جعفر حسن بقوله: رحل عنَّا نجم آخر من نجوم الموسيقى العراقيَّة، ورائد من روَّادها الكبار المبدعين، ودَّعنا بكل صمت وهدوء العازف الكبير والفنان المبدع المهذَّب المؤدَّب الراقي سامي عبد الأحد، عازف الطبلة والإيقاعات المشهور، كان من أوائل العازفين الموسيقيين الذين ظهروا على شاشة تليفزيون بغداد في الستينات. رحل عنَّا بصمت من دون أن تتذكَّره وتنعيه وزارة الثقافة، ولا أي قناة فضائية عراقية، على الرغم من كثرتها المملة. نمْ قرير العين أيها الصديق المبدع، فكل زملائك وأصدقائك من الفنانين، وكل أبناء الشعب العراقي ممن تمتعوا بعزفك الجميل، سيبقون يتذكرون فنك وإبداعك وطيبتك، أيها الإنسان الفنان.

وقال الشاعر رحيم العراقي: سامي عبد الأحد، رحمه الله، سمعت باسمه للمرة الأولى في طفولتي أثناء نشر أسماء سجناء (نقرة السلمان) الذين أطلق سراحهم في أواخر ستينات القرن الماضي، وأشار أحد روَّاد مقهى أبو عبد الله (أبو الفنان عبد الله الناصر) إلى اسمه في صفحة الجريدة، وقال: هذا اسم سامي عبد الأحد ضابط الإيقاع، رحمه الله وأرضاه، وجعل الجنة مثواه.

تصبح على خير... ناظم الغزالي

واحدة من أروع الأغاني العراقية وأغاني المطرب ناظم الغزالي (١٩٢١ – ٢١ أكتوبر ١٩٦٣)، كأنك تسمعها كل يوم، وهي المأخوذة من طقوس الناس اليومية الداعية لبعضهم البعض أن يستيقظوا على خير وسلام، وفي دعاء لتجديد اللقاء وليس الوداع بـ (في أمان الله) بكلمات تدغدغ المشاعر، وتبهج النفس، ولحن كأنه يهدهد السامع لينام ويغفو، ويحلم بالأحلام السعيدة.

لكنها (مظلومة) ليس في زمن ما قبل ٢٠٠٣ الذي لم نشاهدها على شاشة التليفزيون إلا نادرًا، وكان من الممكن أن تكون لازمة لانتهاء البث قبل انطلاق السلام الجمهوري الذي كان آنذاك يختتم به البث، بل وما بعد ٢٠٠٣ حيث تكاثرت الإذاعات والقنوات التليفزيونية الفضائية العاملة على مدار ٢٤ ساعة، فلا تمتلك الوقت لقول (تصبح على خير) لمشاهديها، لأنها تعيد برامجها مرة أخرى، لذلك؛ غابت هذه الأغنية، فيما كان الكثير من الإذاعات العربية تختتم برامجها في منتصف الليل بها.

(أعتقد أنها الوحيدة التي تتناول هذا الموضوع بشكل مباشر، ومناسبتها محددة بوقت ما بعد السهرة والنوم).

أغنية جميلة جدًا، تتمثل في لحن رائع وكلمات أروع، وزادها ناظم الغزالي بصوته جمالًا كأنها دعاء للمستمع أن يبتسم

قبل أن ينام بهدوء رغدًا، فجميل جدًا أن يقال لك (تصبح على خير)، سواء كنت وحيدًا أو مع أسرتك، ولن تمر كأية كلمة عابرة، بل مؤثرة بروعة ما فيها من إحساس.

(وهي من أواخر أغاني ناظم الغزالي، فكانت لها خصوصيتها اللحنية، ربما التي لا تشبه الكثير من أغانيه، والتي قيل أنها قريبة من الأغنية السبعينية).

الأغنية كلمات: حسن نعمة العبيدي، وألحان: ناظم نعيم (١٩٢١- ٢٠٢٠)، وأدَّاها ناظم الغزالي الذي منحه المستمعون لقب (كروان العراق) بسحر رائع خاص بهذه المناسبة الليلية بعاطفة شفيفة، كأنه يهمس لمن يسمعه أو يشاهده (تصبح على خير... تضوي أيامك)، ثم الجملة المؤثرة المحببة، وهي عراقية أو بغدادية صرفة (بأمان الله تهنى بأحلامك)، الله...! أي وقع للكلمة في النفس لتنشرح أساريرها، وليستقر صخبها ومآلاتها اللحظوية بهذا الرسم الجميل للكلمة.

فالأغنية تبدأ بصوت الكورس النسائي الذي يشدو بالكلمات مفعمة بالحنين والرقة، والتعبير عن المحبة الخالصة، وصفاء الليل، وسكونه، فتتهادى الأصوات لتلامس قلب المستمع، لا يرتفع الصوت ولا الإيقاع، بل تفتح الكلمات الباب مواربًا للبهجة والسرور، وخاصة مع مدِّ حرف الياء في كلمة (خير) ليأتي معبرًا.

ثم يجيء دور الغزالي ليشدو بصوته العذب، يترنم بالكلمات الطيبة على وقع اللحن الرقيق، وهو يخاطب الناس عبر حبيبه، وبوصف جميل للناعس المستعد للنوم (قلبي

يدعي لك حبيبي تصحى ومن تنام، أسعد الأيام وأهنى وأجمل الأحلام، ذابلة وسكرة جفونك، والكرى كحل عيونك، وفي أمان الله تهنى بأحلامك، تصبح على خير، تصبح على خير).

وتتوالى المقاطع هامسة، ومفعمة بالشغف الطيب، لترافق الحبيب إلى وقت الفجر مسترسلًا برسم ما يمكن أن يتمناه الإنسان لحبيبه أو للناس جميعًا، من دون أن يعكر صفو طبائع الفجر الجميل، حيث غفا الحبيب ونام، ومن ثم استيقظ وهو يستقبل الصباح بإشراقاته البهية، ونسائمه الضاحكة.

أما كلمات الأغنية، فهي:

تصبح على خير تضوي أيامك... في أمان الله تهنى بأحلامك

قلبي يدعي لك حبيبي تصحى ومن تنام... أسعد الأيام وأهنى وأجمل الأحلام

ذابلة وسكرة جفونك... والكرى كحل عيونك

وفي أمان الله تهنى بأحلامك... تصبح على خير، تصبح على خير

تصبح بـ خير وأماني وأطيب الأوقات... صغت لك أحلى الأغاني وأعذب النغمات

هذي ترنيمة خيالي... هديتها باسمك يا غالي

وفي أمان الله تهنى بأحلامك... تصبح على خير، تصبح على خير

الفجر بين علينا وأشرق بـ نوره... والفراشات الجميلة تناجي زهوره

فتحت هذي البراعم... تضحك تناغي النسائم

في أمان الله تهنى بأحلامك... تصبح على خير، تصبح على خير

بقي أن نعرف أن الاسم الكامل لناظم الغزالي هو ناظم أحمد خضير الجبوري. ولقب الغزالي اختصت به عائله والدته (جهادية)، حيث كان يطلق على والدها لقب الغزال لسرعته في المشي، وانسحب ذلك اللقب على ناظم (ابنها).

فيروز... لمن تستمع في صباحاتها؟

اعتاد المواطنون العرب أن يسمعوا فيروز... كل صباح، ولكننا لم نعرف ماذا تسمع فيروز في صباحاتها؟ هل يمكن... أنها مثلنا تسمع أغانيها، أم تراها تسمع لمطربين آخرين؟ السؤال يدخل حيز الفانتازيا، والبحث عن إجابات له فيه صعوبة، ولكن لنتخيل، وربما تأتينا إجابة من فيروز!

ليس هنالك من لا يعشق فيروز، مطربة الروح والقلب والعين، ولا أدعي أن أغلب العرب منذ أزمنة بعيدة، وهم حين يفتحون عيونهم في الصباح يجدون أنفسهم يبحثون عن فيروز في المحطات الإذاعية، حيث تتسابق الإذاعات إلى بث أغاني فيروز في الصباحات كمفتتح يتلاءم مع الأجواء والطقوس فتفرح الناس بها، حتى صار بمرور الوقت تقليدًا حياتيًا أن تستيقظ الناس من نومها فتسمع فيروز في الصباحات، أصبح الأمر عفويًا أن تمتد الأيادي إلى مؤشر الراديو لتحركه إلى حيث تغني فيروز، وتترك صوتها يغرد في الفضاءات، وقد توارثت الأجيال هذا الحب الفيروزي، وما زلنا نتعرف على أبناء الأجيال الأخيرة، وهي تؤكد أنها تسمع فيروز لتكون امتدادًا للأجيال التي عشقت هذه الفنانة الكبيرة، وقد وجدت فيها التفاصيل المحببة إلى الروح صوتًا وإحساسًا وعذوبة، فالصباح ذاته نشعره

لا يستطيع إلا أن يسمع فيروز، لذلك؛ كل بلابله تغرد وكل النسائم، على اختلاف الفصول، تهمس بصوت شفيف، تحاول أن تضاهي به صوت فيروز>

وربما لا أجعل الكلام عن فيروز يستدرجني إلى النهاية وأنا العاشق لها، ولكنني سأقف قليلًا عند قول الشاعر أنسي الحاج فيها: (بعض الأصوات سفينة، وبعضها شاطئ، وبعضها منارة، وصوت فيروز هو السفينة والشاطىء والمنارة، هو الشعر والموسيقى والصوت، والأكثر من الشعر والموسيقى والصوت، حتى الموسيقى تغار منه)، فليس موضوعي هو الحديث عن فيروز الفاتنة الجميلة الرمز المتفوقة الحالمة الشفافة الرقيقة السامقة الهادئة العذبة النبيلة الأميرة المغردة الصداحة الشجية، إلى غير ذلك، لكنني أتساءل: إن كان العرب، عبر السنوات الطوال، اعتادوا أن يسمعوا صوت فيروز كل صباح، فلمن وماذا يا ترى تسمع فيروز في صباحاتها؟ هل هناك مطرب واحد أم عدد من المطربين تسمع أغانيهم، من جيلها أم من الأجيال التي جاءت بعدها؟ لرجل أم لامرأة؟ أم هناك موسيقى معينة، أو ربما لا تسمع!

والرأي الأخير لا يمكن أن يتخيله متخيل، إلا إذا تخيل أن صمت فيروز وهدوءَها في الصباح هو بعينه موسيقى وغناء أخَّاذًا ساحرًا يأخذ بلبِّها وروحها، وتحلق معه في فضاءات الصحو التي تحيط بها، وقد لا نبالغ إذا ما قلنا ضمن تساؤلاتنا البريئة: هل هنالك صوت يمكنه أن تقتنع به فيروز ليشاطرها صباحها، وتتقاسم معه طلاوة

اللحظات؟ وربما سيبرز رأي يقول: من السهل أن يوجه السؤال لفيروز ذاتها، فتجيب، وكفى الله السائلين شر الجدال، لكنها فيروز... فيروزنا جميعًا، ويحق لنا أن نتخيل ماذا تسمع فيروز، لا سيما في الصباح، وإذن... يحق لنا أن نتخيل، ونطلق تخيلاتنا العجيبة أو الغرائبية حتى، التي ستعبر المسافات والإنصات للمكان.

السؤال محير وغريب ومدهش، وهذا ما اتفق عليه أغلب الذين طرحت عليهم السؤال، كانت إجابتهم الأولى ابتسامة، ومن ثم حيرة، ولأنني أرغمتهم على الإجابة فقد أجابوا.

سألت الشاعر الجميل سلمان داود محمد، فأجاب أولًا: (تسمع الصباح أكيد!)، وذهب يسبح في تخيلاته، وأراد أن يكتفي بهذا الجواب المختصر، لكنني ظللت منتظرًا، فأجاب قائلًا: الصباح العربي الآن غائب، لم يكن هذا الغياب جديدًا يا صاحبي... فيروز تغني (ذكرى) صباح كان هنا في يوم ما ومضى... هي تذكرنا الآن، وفي كل يوم، بأن صباحًا كهذا لا يمتلك المناعة اللازمة من كسوف صار هو التقويم الذي نعتمده في تصنيف أيامنا، فيروز الآن تغني صباها، زمانها البعيد، وقحطنا نحن أيضًا في صباح لا صباح فيه، ولا هم يغنون.

وأضاف بعد لحظات من التأمل والشرود: لا أدري، لمن وماذا تسمع فيروز، أظن أنها تسمع أنينها فقط... وهذا موجع وجميل حد الذهول!

لكنني تحولت إلى المطرب محمد الشامي، الذي حاول أن

يجر الحديث للتغزل بفيروز وعذوبة صوتها، لكنني أوقفته عند سؤال، فقال: فيروز سرها في فصاحتها، والصوت الفصيح يعني بأخذك إلى عالمه الخاص غصبًا عنك، ولهذا هى تأتيك بالصباح حتى لو سمعتها منتصف الليل، فيروز... قد تسمع صوت رجل مثل وديع الصافي أو صباح فخري، لأن طبقة الرجل تريح أذن المرأة، لأنه أعلى منها ب٧ درجات، يعنى صوت الرجل أعلى من صوت المرأة ٧ درجات، أوكتاف كامل.

وأضاف، لكنه ذهب ليتحدث عن فيروز، فقال: فيروز تغني بكل جسدها، ولها حركة مميزة، وهي سريعة الاتفات، ويداها مشدودة وملتصقة على جسدها، عكس أم كلثوم التي ترتفع عندها اليدان، لأن صوتها من صدرها، ومع أن السؤال محدد، وأن عليَّ أن أتخيل ماذا يمكن أن تسمع فيروز، فسوف أقول لك، أنها لن تسمع أقل من وديع أو صباح فخري، أو تذهب إلى الطرب المصري القديم، فتسمع صالح عبد الحي وسيد مكاوي وأسمهان.

أما الكاتب جلال حسن، فقال: عظماء الحياة يتحدثون عن كل شيء، ويصنفون مدونات الفنون، ولكنهم يتوقفون كثيرًا أمام الموسيقى وسلالم الألحان، ليس لأنهم لا يستطيعون دخول مناطق الذوق الرفيع، بل خشيتهم من دخول منطقة الهدوء الإنساني والانشراح بلا أسلحة تفسير، لكي لا تفسر السكينة الروحية من ضمن مصنفات الأدب أو الفلسفة التي تبتعد إلى آفاق نسقية تحتاج إلى إدراك سحر الوجود، وربما أبعد.

وأضاف: ويوم غنت فيروز (أعطني الناي وغني) وقف جبابرة الموسيقى إجلالًا للصوت، ولم يقولوا شيئًا سوى الإعجاب، لذلك؛ خجلت السيدة فيروز مثل ربة بيت، وغطت وجهها في بحيرة الجمال. فيروز لم تسمع صوتها جيدًا، كانت تحفظ اللحن بطريقة أكاديمية، وعلى نوتات أجنبية تصاحب رائد اللحن عاصي الرحباني بمزيد من التقنية، لكي يخرج صوتها عابرًا أول طبقة سماوية بهدوء الورود، وربما كررتها مع ابنها زياد الرحباني في بروفة (كيفك أنت)، هذا الملحن الرقيق الذي غازل أمه بكلمة صغيرة حين وصفها بكلمة (أزرق)، وكان يعني البحر حين تنشرح الريح على خد الأمواج. فيروز لا تسمع أغانيها خوفًا من الفرح، وربما خشية في تكريم الحزن.

وختم جوابه بالقول: أعتذر لأن إجابتي غير صحفية، ربما ابتعدت كثيرًا. ولكني أقول أنها تعشق فيلمون وهبة وحليم الرومي!

اما شاعر الأطفال جليل خزعل، فقال: أتخيل أن فيروز تسمع تغريد البلابل وضحكات الأطفال، وحفيف الأوراق المعطرة بندى الصباح، وروائح الحقول، تسمع حفيف أجنحة الطيور، ورفيف الفراشات. فيروز تسمع أصواتًا سماوية منطلقة من مآذن وكنائس، تعلم الناس لغة الجمال والسلام، وتذكرهم أن الله محبة، والأديان محبة، وليس فتاوى ذبح وكراهية وتكفير. تسمع همسات العاشقين، وأصوات الباعة المتجولين، وحركة الناس، وتعيد صناعة هذا النسيج الصوتي بصوت هو أقرب إلى

الخيال منه إلى الواقع.

فيما كان رأي الفنان المسرحي يحيى إبراهيم ضحكة عريضة في بادئ الأمر، لكنه سرعان ما قال: للدكتور الفنان فاضل خليل جملة يقول فيه: (ألا تشعر فيروز بالملل، وهي عمرها كله ليس لديها نشازات!) أنا عندما أشعر بالضجر أذهب إلى أحد عروضي المسرحية وأشاهدها، وأتوقع أنها تستمع إلى موسيقى عالمية، أو ربما موسيقى الجاز، أنا أتخيلها لا تسمع أي صوت سوى الموسيقى، لأن الموسيقى وحدها من تسحرها، أو تجعلها تستريح في صباحاتها.

وقال المغني علي روك الذي توقف لحطات، وهو يبدد الدهشة: سؤال صعب جدًا، وربما أصعب سؤال يواجهني، لو سألتني عن أغانيها التي أسمعها لأجبتك، ولكن ماذا تسمع هي، دعني أتخيل، أنها بالتأكيد تسمع أغانيها مثل كل العرب، وهي ربما تشاركهم هذا الاحتفال الصباحي، ومن جملة أغانيها أغنية (دخلك يا طير الورور، لا أعرف لماذا أتصورها تسمع هذه الأغنية، لكنه حدس، وإن قلت ربما هذا فيه شيء من الغرور، فربما تحنُّ إلى أغاني المطربين من جيلها، أتصورها تسمع أغاني عبد الوهاب الخفيفة الهادئة، أو فريد الأطرش أو أسمهان.

قحطان العطار: ظاهرة غنائيَّة وإنسانيَّة محيِّرة

يعدُّ المطرب العراقي، قحطان العطار، من الظواهر الإنسانية المحيِّرة في الفن العراقي، فشهرته لم تتراجع طيلة أعوام في وقت يبحث هو عن العزلة والابتعاد عن الأضواء.

تعد ظاهرة المطرب العراقي قحطان العطار، من الظواهر الإنسانية المحيِّرة التي تحتاج إلى دراسة، فهو مطرب أحبه الناس منذ أن غنى أول أغنية له، لما يمتلك من صوت حساس يمتزج فيه الحزن بالفرح والشجن والحنين والأسى والطيبة، صوت يتفق الجميع على أنه مميز بكل ما تعنيه الكلمة لنقائه وصدقه، وعلى حد رأي الناقد الموسيقي الراحل عادل الهاشمي: «صوت قحطان لا يشبه إلا نفسه».

وظلت محبته تكبر في النفوس مثل شهرته التي أخذت تتسع لأكثر من أربعة عقود، على الرغم من أنه في حالة عزلة عن الأضواء، وترك الغناء منذ أكثر من عشرين عامًا، فالغريب أنه لم يأبه بهذه الشهرة الطاغية، لم تبهره، ولم يدمنها، فترك كل شيء، وسعى إلى الهجرة والرحيل بعيدًا جدًا عن أرض الشهرة، وحين استقر في الدنمارك منذ سنوات طويلة، ذاق مرارات الغربة، وبالتأكيد أن هذه المعاناة، تترتب عليها معاناة مادية، ونحن نعرف أن الغناء يوفر له سبل عيش أفضل، لكن الغريب أنه لم يفكر في

هذا، ولم يبال بالدعوات والطلبات الكثيرة التي تأتيه من أجل الغناء، بل أطلق لحيته، وقبل تصويره في فرن، فتكهَّن البعض بأنه يعمل فرانًا، فيما قال البعض الآخر أنه فرن لصديق له، لكن في كل الأحوال، الصورة معبرة عن واقع الحال للفنان الكبير.

ويقول البعض الآخر من المقربين أن لديه عودًا، ويدندن عليه ببعض الأغنيات في جلساته الخاصة فقط.

ألا تحتاج هذه الظاهرة إلى دراسة وتحليل؟ إلى وقفة لمعرفة الأسرار الخفية وراءها؟ وإلى متى يبقى قحطان العطار على ما هو عليه؟ أما كان الأجدى به أن يستفيد من هذه الشهرة ماديًا ومعنويًا، ويبني له مستقبلًا مثل الكثير من المطربين والمُغنيين والفنانين عمومًا الذين يطاردون الشهرة، وهو الذي يمتلك صوتًا يؤكد كثر أنه لن يتكرر، بدل الاعتماد على المعونة التي تقدمها له دولة الدنمارك، لا يمكن طبعًا الحصول على إجابات من دون الولوج إلى عالم المطرب الجميل.

يقول الفنان رضا الخياط: أنا وقحطان العطار من جيل واحد، ظهرنا معًا في مطلع السبعينات، ما بعد ياس خضر وحسين نعمة وفؤاد سالم، قحطان أكسل من الكسل ذاته، وهذا الكلام أقوله له دائمًا، لا يحب تسجيل الأغاني، ولا يحب الدخول إلى استوديو، لديه حالة انطوائية كبيرة، وهذه حالته منذ بدأ بالغناء، تجده مترددًا، وأنا مقرب منه جدًا، وظهرنا للناس في ليلة واحدة، وما زالت علاقتي به متواصلة، وما زلت على اتصال به، قحطان أغانيه جميلة،

منذ عام ١٩٨٠ لم يقدم جديدًا.

وأضاف: صوت قحطان العراق لا يعرف الشيخوخة، أسمعه يغني الآن، وهو ما زال كما كان، قحطان ما زال في قلوب الناس، وما زالت أغانيه تتردد على مدى السنوات الطويلة، لكنه لا يحب الشهرة، ولا يسعى إليها، وأبرز سماته الكسل، وأعتقد أنه السبب وراء ابتعاده عن الغناء.

أما الشاعر الغنائي رحيم العراقي، فقال: قحطان منظومة نفسية وأخلاقية واجتماعية خاصة، وهو مجموعة صفات تصل إلى مجموعة عقد، ولكنها الصفات التي نعتبرها أخلاقية وإيجابية، قحطان لديه نوع من الحساسية الشديدة، بدأ يفكر بالهجرة قبل الشهرة، أنا معه منذ الصف الثاني متوسط في المدرسة، ورافقته وكتبت أغلب أغانيه، كان حساسًا إلى درجة أنه إذا ما سمع في الشارع لفظة غير مقبولة، فهي تؤرقه، فلا ينام حتى الصباح، وأسمعه يتساءل: لماذا يلفظون هذه الألفاظ؟ لغتنا فيها ألفاظ جميلة، فلماذا لا نستخدمها؟ وهذه المسائل تزعجه، على الرغم من أنه كان يكره التنافس، لا يعتبر نفسه ينافس أحدًا في الغناء، كان يهمه أن يغني فقط، ولما اشتهر تفاجأ، ولم يرغب في ذلك، لأنه يعتبر الشهرة مسؤولية كبيرة.

وأضاف: قحطان كان يحبُّ العزلة، وكان يبحث عنها داخل العراق، فلم يستطع الحصول عليها، لأنه محاط بعائلة وأصدقاء وناس أصبحوا يعرفونه، فسافر مهاجرًا، فوجد العزلة هناك لأن الظروف ملائمة للعزلة، أما الغناء فيعتبره

شيئًا ثانويًا، إنه من النوع الذي يغني لنفسه يحسها حاجة نفسية، ما كان يفكر في جانب أن يكون له تاريخ، حتى الرسائل التي كانت تصله من المعجبين كان يخاف عندما يرى أن كمياتها كبيرة، يقول بخوف: كيف يمكن أن أرضي هؤلاء الناس، ويشعر بالقلق حينما يحس أن هؤلاء الناس ينتظرون منه الجديد، فيحس أنه مراقب.

وتابع: هو من البداية لا يريد أن يغني، وكنا نجبره على ذلك، كنا نأتيه باللحن جاهزًا، عنده حساسية شديدة من الشهرة، ومن الكثير من الأشياء، أذكر لك مثلًا عندما ذهب إليه الملحن طالب القره غولي بأغنية (حاسبينك)، كنت حاضرًا، أسمعها له على العود، حتى إنها شدتني كثيرًا، وقلت أنها أول أغنية تعتبر سياسية عاطفية بشكل لا يثلم من جرف أي واحد، وفرح قحطان بها، وبدأ بغنائها، بحيث حفظناها بصوته، ولكن الذي حصل أن إحدى الفتيات المعجبات قالت: هنالك أغنية اسمها (حسبالي) لسعدون جابر، وقالت لصديقتها أن قحطان سيغني أغنية (حاسبينك) فردت عليها تلك: هل تقصدين أغنية (حسبالي)؟ وهو ما جعل قحطان لا يغنيها، وكان يقلقه هذا التشابه القريب في العنوان.

وأوضح: قحطان كسول جدًا، لا يخرج من البيت، لا يذهب إلى أي مكان، وكان عندما تأتيه حفلة يضجر، لأن عليه أن يرتدي ملابس جديدة، ويتأنق وغير ذلك، هو ليس فرانًا، ولكن الفرن هو لصديق له، يذهب إليه دائمًا، وهو يعيش براتب المهجرين فقط ومقتنع به، وهو من السابق لديه

هذه القناعة حين كان يعتمد على راتب المؤسسة، ويعطي منه مبلغ الإيجار ١٢ دينارًا.

وختم العراقي حديثه بالقول: قحطان رجل يحب العزلة، وحقق ما يريده بأن يكون منعزلًا وبعيدًا، ويعتبر نفسه حقق طموحه، لأن كل ما يريده من الحياة أن يكون لوحده، تزوج امرأة أمريكية من أجل الحصول على الجنسية الأمريكية، وحاليًا يعيش في الدنمارك علاقة جميلة جدًا مع امرأة، ربما تتكلل بالزواج قريبًا.

فيما قال المطرب محمد الشامي: هناك أشخاص لديهم نوع من الزهد والتصوف، وعدم حبهم للشهرة، ويرغبون في أن يكونوا قريبين من ذواتهم، وهناك الكثير من المبدعين لا يحبون الشهرة، وقحطان العطار لديه حساسية مفرطة، وفي أجمل أيام العراق لم يستطع العيش فيه، لأنه يبحث عن العزلة، سافر إلى الكويت والإمارات وتونس وأمريكا، إلى أن استقر في الدنمارك، كما أنه حاليًا بلا زوجة، وهذا يعطيه نوعًا من الانطفاء النفسي، ويقلل عنده حب الطموح وحب الحياة، ويقلل عنده الأحلام، وفي علاقته لا تقول عنه أنه فنان، بل تقول أنه عابد وزاهد، كأنه عائش في صومعة ذاته، قحطان من أول شريط غناه (أماه، لا تفرحي في مولدي وتهلهلي) وقلد فيها الراحل سلمان المنكوب عام ١٩٧٥، ونال الشهرة الكبيرة، وإلى حد الآن يمتلك الشهرة نفسها، وهذه الشهرة الطاغية لا تجعله يفكر في إعطاء الأكثر، إنه يعمل وفق مبدأ (أعيش في قلوب الناس)، هو يشعر أنه ما زال يعيش في قلوب الناس، قحطان يعرف

حجمه وقيمته في العراق، ويعرف أنه إذا جاء إلى بغداد، وأقام حفلة في الشارع، فسوف لن يبقى محطَّ قدم، هو يشعر أنه وصل إلى قلوب الناس، فيما مسألة الشهرة والفضائيات هذه أشياء لا يحبذها أيًّا كان، ولا يبحث عنها.

وأضاف: صوته لن يشيخ، وقد استمعت إليه قبل مدة قصيرة، وهو يغني في جلسة خاصة مع عازف أورغ، ما زال صوته رائعًا، وبات خمريًا.

أما الكاتب محمود موسى، فقال: لم أفاجأ بصورة الفنان قحطان العطار، وهو يعمل في أحد الأفران في الدنمارك، فلقد سبق له أن عمل بمهنة أقسى لا تليق برقة هذا الفنان الشفاف والحساس، فلقد عمل نهاية السبعينات عندما هاجر إلى الولايات المتحدة بطلاء السيارات من الأسفل بمادة الزفت. ويبدو أن عمله الجديد في هذا الفرن فيه شيء من الحنين، لأنه سبق له أيضًا أن عمل نهاية الستينات ومطلع السبعينات بفرن، وقحطان ليس من الصنف الذي يأتمر بأوامر رب العمل، بسبب مزاجيته المفرطة، وإحساسه المفرط أيضًا بكرامته الشخصية، مشكلة قحطان العطار أنه لا يحب المال، ولا يحب الشهرة، فعندما تربع على قمة الغناء العراقي منتصف سبعينات القرن الماضي سرعان ما ركل هذه القمة ليغادر إلى منفاه.

وأضاف: يتمتع العطار بشخصية تشبه شخصية الرسام العالمي (فان كوخ) أو الشاعر (ملارمييه) أو الشاعر (لوتريامون)، ولهذا؛ تراه دائمًا يبحث عن الحرية لروحه، بينما يبحث زملاؤه عن المال والشهرة.

نبذة مختصرة عن سيرة حياة قحطان العطار..

من مواليد الرابع عشر من أيلول عام ١٩٥٠ في قضاء (علي الغربي) التابع لمحافظة ميسان، نشأ يتيمًا بعد أن توفيت والدته، وهو لم يتجاوز السنتين، ثم توفي أبوه وهو في الثانية عشرة من عمره، بعدها انتقلت عائلته إلى بغداد في منطقة (كمب الكيلاني) حيث كان يعمل أخوه الأكبر، أكمل دراسته المتوسطة في ثانوية المعهد العلمي في منطقة البتاويين، وكان يعمل هنالك أيضًا في فرن صمون (خبز) ليحصل على قوته اليومي الذي كان بالكاد يلبي حاجاته البسيطة.

دخل الساحة الفنية من خلال برنامج (ركن الهواة)، وقد أُعجب الملحن كوكب حمزة بصوته كثيرًا، وأراد أن يقدمه كصوت جديد من خلال أغنية بعنوان (محطات) كلماتها للشاعر زهير الدجيلي، لكنه لم يتمكن من ذلك، بسبب سوء العلاقة بين الملحن كوكب حمزة والسلطة البعثية، بعد ذلك اهتم به الفنان حميد البصري الذي استطاع أن يقدمه للمرة الأولى من خلال أغنية بعنوان (الفرح جنحانه عشرة) من كلمات الشاعر الراحل كاظم إسماعيل الكاطع، ومن هنا، كانت مسيرته تتكلل بالألحان الجميلة، وبالملحنين الكبار، فقدم له الملحن طالب القره غولي أغنية (يا ضوه ولاياتنا) من كلمات الشاعر غازي ثجيل، ثم تلتها أغنية «بالكيف» للشاعر عريان السيد خلف، وقدم له الملحن جعفر الخفاف أغنية (اسأل شريانك يا ابن آدم) من كلمات كريم راضي العماري. وجاء دور الملحن محسن

فرحان ليكون مؤثرًا في مسيرة قحطان الغنائية، فقدم الروائع، مثل: (لو غيمت دنياي) كلمات عريان السيد خلف، و(يقولون غني بفرح) كلمات الشاعر جبار الغزي، كما قدم له محسن فرحان أغنية (شكول عليك) كلمات الشاعر زامل سعيد فتاح، و(زمان يا زمان) كلمات الشاعر سعد صبحي السماوي.

ومرت حياته بالعديد من تداعيات الهجرة والسفر والصمت، فهاجر إلى بلدان عدة، بعد أن آثر الصمت، وترك الغناء منذ أوائل التسعينات، ليستقر به الحال في الدنمارك.

المؤلف في سطور

- عبد الجبار العتابي
- صحفي وشاعر عراقي، من مواليد بغداد / 1960
- بدأ العمل في الصحافة عام 1979 مع جريدة (بغداد) التي تصدر عن أمانة العاصمة.
- في العام 1984 وما بعدها؛ تخصص في الصحافة الرياضية من خلال جريدة (البعث الرياضي) ومجلة (الرشيد).
- في العام 1991 عمل في مجلة (الرافدين).
- كتب الشعر للأطفال ونشره في (مجلتي) ومن ثم جريدة (الجمهورية).
- تجربته الصحفية الأهم كانت في جريدة (الجمهورية) التي عمل فيها منذ عام 1994 إلى عام 2003، وترأس فيها قسم التحقيقات، وكانت له فيها صفحات خاصة به منوعة فنية وحوارية مع شخصيات مميزة، ثم أنيط ب مسؤولية ملحق (الجمهورية) الأسبوعي.
- عمل بعد عام 2003 في العديد من الصحف العراقية، ابتداءً من جريدة (الصباح) وانتهاءً بجريدة (المؤتمر) التي أمضى فيها أكثر من عشر سنوات إلى حين إغلاقها.
- عمل مدير إعلام قناة السومرية منذ سنة 2006.
- عمل مدير تحرير جريدة (المؤتمر) لسنوات عديدة قبل احتجابها عن الصدور.
- عمل في جريدة (إيلاف) الإلكترونية العالمية لأكثر من 12 عامًا، وكانت التجربة الأكثر اتساعًا ونجاحًا وتميزًا.

- حصل على العديد من الجوائز أبرزها:

- لقب أجرأ صحفي لعام 2005، في استطلاع لإذاعة العراق الحر.
- أفضل كاتب عمود رياضي من جريدة الشباب والرياضة.
- جائزة أفضل صحفي من مؤسسة عيون للثقافة والفنون، للأعوام: 2009 و2010 و2012 و2014.
- فضلاً عن العديد من الشهادات التقديرية.

- صدر له:

- الجوهرة : كتاب رياضي عن اللاعب «فلاح حسن»، 1986.
- لواعج فنان : كتاب ذكريات الفنان عز الدين طابو.
- من ذكريات القطار.
- قديسة المسرح العراقي : عن الفنانة آزادوهي سومائيل، 2023
- صندوق الأغاني : مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، 2024
- فضلاً عن ثلاثة كتب في المطابع، والعديد من المخطوطات.

• البريد الإلكتروني: attaby60@yahoo.com

شمس
للنشر والإعلام

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net